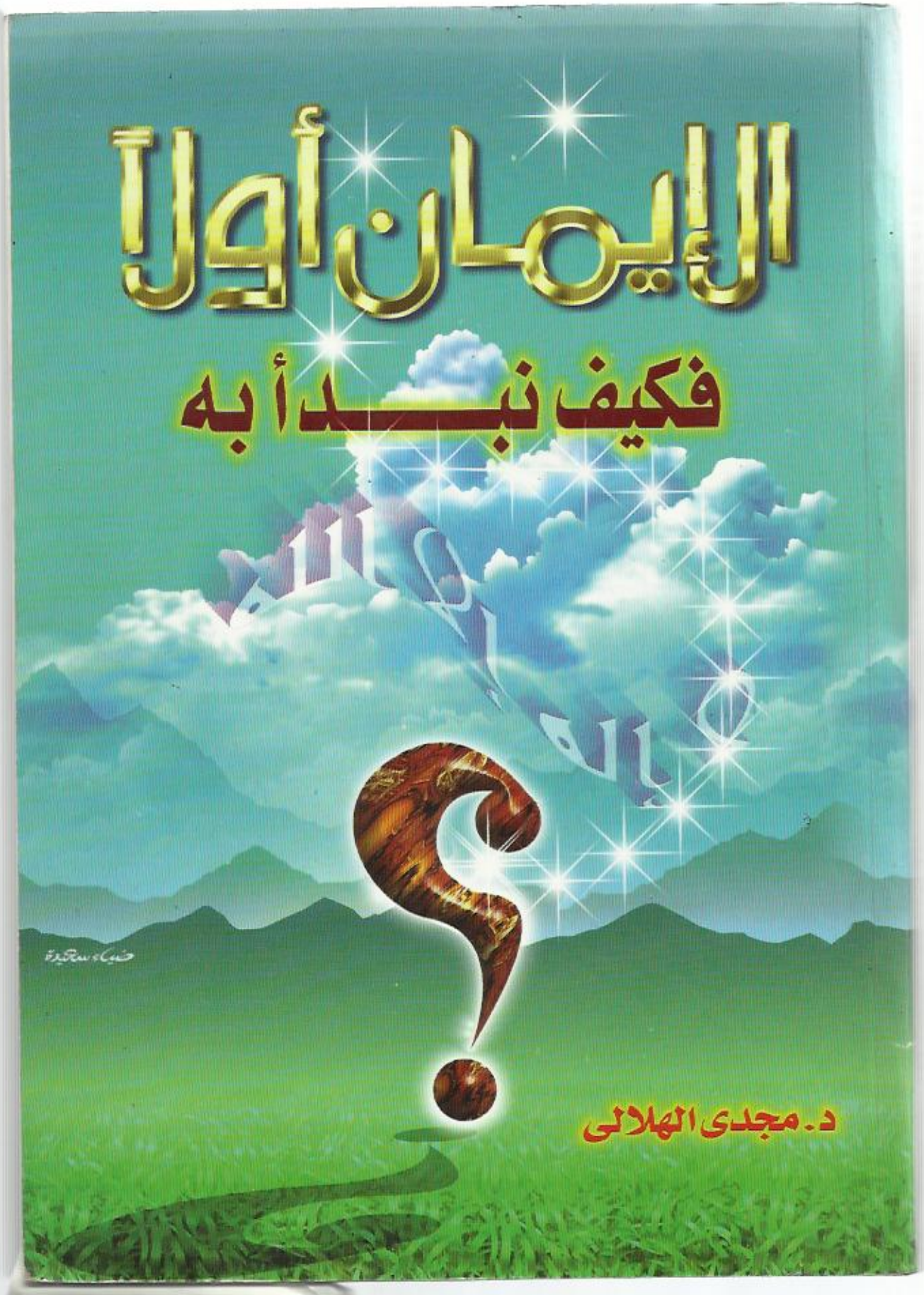

الإيمان أولاً
فكيف نبدأ به
د. مجدى الهلالى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد :

فما من مسلم فى قلبه إيمان بالله واليوم الآخر إلا وتأتى عليه لحظات يتحسر فيها على حاله، ويتملكه شعورٌ بالخوف من لقاء الله - عز وجل - وهو على ما هو عليه من غفلة وتقصير فى جنبه سبحانه .

فالقلوب التى دخلها الإيمان مهما بلغت قسوتها إلا أن فيها حنيناً إلى الله تعالى ، وشوقاً إلى الاتصال به ، والسير إليه إلا أن أصحابها لا يستطيعون تجريدها من حب الدنيا وربطها بالآخرة، وكثيراً ما يتساءلون : كيف يكونون ربانيين وهم بين أزواجهم وأولادهم ، وفى أعمالهم ودون أن يعتزلوا الناس وينقطعوا للعبادة ؟

وقبل أن يشرد الذهن ، ويسرح الخيال ، ويظن أن تحقيق هذه المعادلة من الصعوبة بمكان علينا أن نتذكر أنَّ جيل الصحابة - وهم خير أجيال أمة محمد ﷺ - قد استطاع أن يحقق هذه المعادلة ، ويحدث التوازن المطلوب بين حاجات الروح ومتطلبات الجسد .

وتذكُّرنا لجيل الصحابة ليس من باب التأكد من إمكانية تحقيق هذا التوازن فحسب، ولكن أيضاً من باب أنه لا ينصلح حال آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

فإذا ما نظرنا إلى سيرة هذا الجيل الفريد فإننا سنجد أنفسنا أمام عدة ملاحظات منها :

- أنهم لم يكونوا أكثر صلاة ولا صياماً ممن جاءوا من بعدهم.

قال بعض السلف: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره[1].

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - لأصحابه: أنتم أكثر صومًا وصلاة من أصحاب محمد ﷺ، وهم كانوا خيرًا منكم، قالوا: وبم ذاك؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا، وأرغب في الآخرة.

يشير إلى أن الصحابة - رضي الله عنهم - فاقوا من بعدهم بشدة تعلق قلوبهم بالآخرة ورغبتهم فيها، وإعراضهم عن الدنيا بتحقيرها وتصغيرها - وإن كانت في أيديهم - فكانت قلوبهم منها فارغة، وبالآخرة ممتلئة[2].

- ومن هذه الملاحظات: أنهم لم يتركوا الدنيا، ولم ينقطعوا للعبادة ويعتزلوا الناس، بل كانوا يمارسون حياتهم بصورة طبيعية، فيأكلون من الطيبات، ولا يحرمون على أنفسهم منها شيئًا، ويتزوجون ويضحكون ويتسامرون، ويلاعبون أولادهم وأزواجهم .. يبيعون ويشترون ويتملكون.. أي أنهم كانوا في انسجام تام مع بشريتهم.

- ومنها أيضًا: أنهم حققوا التوازن في حياتهم بصورة لا مثيل لها، فهم بالليل رهبان، وبالنهار فرسان.. في مجال العلم علماء، وفي ساحة الجهاد مجاهدون، وفي المحاريب راكعون ساجدون.. يعلمون الجاهل، ويسعون في قضاء حاجة المحتاج، ويسارعون في نجدة الملهوف.. خير الأزواج لأزواجهم، والآباء لأبنائهم، والجيران لجيرانهم.. ظرفاء لطفاء، لا يمل أحد من الحديث معهم.

عاشروا الناس بأبدانهم، وعاملوا الله بقلوبهم.. فكيف وصلوا إلى هذا المستوى؟

لقد كان المنهج السماوي في تربية هؤلاء الأخيار يركز على ربط قلوبهم بالله، فلم تحرم الخمر إلا في المدينة، ولم يفرض الصوم إلا في السنة الثانية من الهجرة، بل إن الصلوات الخمس فرضت في رحلة الإسراء والمعراج.. أما قيام الليل فقد فرض في بداية الدعوة.. إنه أمر ينبغي أن نتوقف عنده طويلاً، فقيام الليل عبادة شاقة بالصورة التي فُرض بها في البداية، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ١- ٤].

---

(١) الحجة في سير الدلجة، لابن رجب، ص: ٥٣.

(٢) الحجة في سير الدلجة، لابن رجب، ص: ٥٤، ٥٥.

فلماذا كان قيام الليل قبل بقية التكليفات؟

يقول تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

فصلاة الليل والناس نيام، وترتيل القرآن وتدبره، وطول القيام والركوع والسجود.. من شأنه أن يزيل الحُجُب التى تحيط بالقلب، ويفتح الطريق المسدود بينه وبين خالقه، فيحدث الوصال والقرب والارتباط.

فإذا ما اتصلت القلوب بالله، وذاقت حلاوة معرفته، فإن تغيير الظاهر يتم بعد ذلك بالإشارة، وبأقل مجهود، كما حدث فى تحريم الخمر بقوله - سبحانه -: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، فامتلأت طرقات المدينة به، عندما سارع الصحابة - رضوان الله عليهم - فور سماعهم للآية بسكب كل ما فى آنيتهم من الخمر.

ومع قيام الليل كان للقرآن تأثير عظيم فى قلوبهم؛ فقد كانوا يتلقونه للتنفيذ الفورى، ولإعادة صياغة حياتهم بناء على أوامره.

قال عبد الله بن مسعود: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن(١).

ومع المنهج السماوى المتدرج فى تربية الصحابة، والذى كان من أهم سماته العمل على ربط القلوب بالله، وتهيئتها لتلقى نور الهداية الربانية المتمثلة فى القرآن الكريم.. كان رسول الله ﷺ يحرص فى تربيته لهم على صلاح قلوبهم قبل صلاح جوارحهم، فكان كثيراً ما يوجههم إلى هذا الاتجاه، فيقول ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٢).

ويقول ﷺ: «... ألا إن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»(٣).

فبداية الإصلاح إذن إنما تكون بربط القلوب بالله، وغرس الإيمان فيها؛ ليصبح هو الدافع لجميع الأعمال.

---

(١) تفسير ابن كثير، المقدمة، ص: ٤.

(٢) صحيح، أخرجه الإمام مسلم عن أبى هريرة.

(٣) صحيح، متفق عليه، أخرجه البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع حـ(٣١٩٣).

لابد من أن نبدأ بالإيمان، ونعمل على تمكينه فى القلوب، ليصبح إيمانًا عميقًا ضاربًا بجذوره فى جنبات القلب، فيحرق الشبهات والشهوات ويبدد الحجب والظلمات.

وعندما ينصلح القلب، وتدب الحياة فيه، تنصلح الجوارح تبعًا له دون تكلف ولا مجهود.

فالتربية الإيمانية لابد وأن تسبق غيرها من جوانب التربية الأخرى.

وقد يقول قائل: إننا جميعًا متفقون على أن التربية الإيمانية لابد وأن تسبق غيرها، ولكننا لا نعرف بوضوح خطواتها العملية، التى من شأنها أن تربط القلب بالله، وتجعل صاحبها من الربانيين.

نعم ... هناك الكثير من التوجيهات والتوصيات، لكنها لا تشكل منهجًا متكاملاً لهذه التربية، ولقد وُفّق الإمام ابن القيم – رحمه الله – فى كتابه (مدارج السالكين) فى شرح منازل السائرين إلى الله، وبيان أحوالهم ومقاماتهم، والعقبات التى يمكن أن تقابلهم وكيف يتخطونها، وردَّ فيه على جميع من خالف هدى رسول الله ﷺ فى تزكيته وإصلاحه للقلوب، وبدأ – رحمه الله – المنازل بمنزلة اليقظة، واعتبرها مفتاحًا لجميع المنازل الأخرى، وبدونها لا يكون هناك سير، ثم استكمل الحديث عن بقية المنازل دون أن يذكر الكيفية التى بها تتم تلك اليقظة، وإن كان قد أشار إلى ذلك إشارات سريعة فى مواضع مختلفة بالكتاب.

وهذه النقطة من النقاط المحورية فى التربية الإيمانية، والتى بدونها يستمر القلب فى رقدته وغفلته.

فبداية تلك التربية هى إيقاظ الإيمان فى القلب، ولا يمكن الانتقال إلى الخطوات التى تليها دون القيام بها وتحقيق المستهدف منها، فبدونها يصبح الحديث عن بقية المنازل من توبة وإخلاص، وإحسان وشكر، وتعظيم وإنابة، وغير ذلك من المنازل، من قبيل المتاع العقلى.

لذلك لا يخطئ من يقول: إن إيقاظ القلب من رقدته، وعودة الحياة إليه، لمن أهم محاور التربية الإيمانية، وبدون تلك اليقظة لا تصل هذه التربية إلى مستهدفها.

وهذا الكتاب محاولة لبيان أهم معالم تلك التربية، وبخاصة جزئها الخاص بإيقاظ الإيمان، وعودة الحياة إلى القلوب.

وهو مقسم إلى تمهيد وبابين:

التمهيد بعنوان: «حول مستهدف التربية الإيمانية فى مرحلتها الأولى».

وعنوان الباب الأول: «لماذا الإيمان أولاً؟» ويندرج تحته أربعة فصول، وهى على الترتيب: دوافع الأعمال، حقيقة الإيمان، عندما يضعف الإيمان، الإيمان أولاً.

أما الباب الثانى فعنوانه: «كيف نبدأ بالإيمان؟» وفيه تمهيد حول شروط البداية، وعشرة فصول، كل فصل منها يتناول وسيلة من وسائل إيقاظ القلب، وهى على الترتيب: شدة الخوف من الله، تدبر القرآن، قيام الليل والتهجد بالأسحار، مداومة الإنفاق فى سبيل الله، الفكر والذكر، التعلق بالمساجد، الاستفادة من مواسم الخيرات، الصيام، اصطحاب كتاب من كتب علم السلوك، الالتحاق بالمحاضن التربوية.

والله من وراء القصد، وهو الهادى إلى سواء الصراط،،،

كتبه الفقير إلى عفو ربه

مجدى الهلالى

ربيع الآخر ١٤٢١هـ

تمهيد

حول مستهدف التربية الإيمانية فى مرحلتها الأولى

ما الذى يمنع القلوب من الاتصال بالله؟ وما الذى يحول بينها وبين معرفته؟ مع أنه -سبحانه وتعالى- قريب غير بعيد، كما قال - عز وجل -: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فما سبب البعد والانقطاع والوحشة التى نشعر بها فى علاقتنا مع ربنا؟

يقول تعالى: ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين: ١٤]، فالران المحيط بالقلوب هو الذى يُغلق الطريق بيها وبينه - سبحانه وتعالى -.

وحجم الجهد المطلوب لفتح الطرق المغلقة بين القلوب وخالقها، يختلف من شخص لآخر، حسب سمك ما يحيط بقلبه من أغلفة وظلمات.

فالقلب الحى يمكن أن نشبهه بالكنز المدفون فى باطن الأرض، والذى يختلف مكانه من شخص لآخر.

فقد يجده البعض على مقربة منه، وقد يحتاج البعض الآخر إلى جهد أكبر، ووقت أطول للوصول إليه.

وقد يسأل سائل: كيف يعرف الواحد منا أنه قد وصل إلى كنزه، وأن الطريق المسدود قد تم فتحه؟

أجاب القرآن على هذا التساؤل فى عدة مواضع، وبيَّن العلامات التى يستدل الشخص بها على عودة الحياة إلى قلبه.

- منها قوله تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وعن ابن مسعود قال: قلنا يا رسول الله، قوله تعالى: ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ** ﴾ [الزمر: ٢٢] كيف انشرح الصدر؟ قال: «**إذا دخل النور القلب انشرح الصدر وانفتح**»، قلنا يا رسول الله وما علامة ذلك؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن**

دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول»[1].

– ومن هذه العلامات: وجل القلوب عند ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنفال: ٢].

فوجل القلوب عند ذكر الله من علامات عودة الحياة إليها، والوجل هو الخوف والاضطراب والفزع، وزيادة خفقان القلب وسرعة ضرباته.

قالت أم الدرداء: إنما الوجل فى القلب كاحتراق السعفة[2].

– ومنها أيضًا: خشوع القلب عند ذكر الله – عز وجل –، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ [الحديد: ١٦].

وخشوع القلب هو خضوعه وهبوطه، وذلته وانكساره.

يقول ابن القيم: والخشوع فى أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون، قال تعالى: ﴿**وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ**﴾ [طه: ١٠٨] أى سكنت، وذلت، وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالرى والنبات، قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾ [فصلت: ٣٩][3].

– ومنها: حضور القلب فى الذكر والصلاة، وحصول المواطأة بينه وبين اللسان.

– ومنها: أن صاحب هذا القلب يجده حاضرًا معه عندما يريده ويستدعيه، وهذا ليس قاصرًا على الصلاة، وقراءة القرآن، والذكر، والدعاء وحسب، بل متى أراده وجده معه نابضًا، خاشعًا، رقيقًا.

– ومنها: زيادة خشوع القلب بعد كل عبادة كان فيها حاضرًا، كما قال تعالى: ﴿**وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾ [الإسراء: ١٠٩].

– ومنها: تذوق صاحبه طعم حلاوة الإيمان، وهى حلاوة لم يشعر بمثلها فى حياته،

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقى فى الزهد.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، ١٥/١٦٣.

(٣) تهذيب مدارج السالكين، ص: ٢٧٥.

يقول ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلقى فى النار»(١).

يقول الحسن البصرى: تفقدوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء: فى الصلاة، وفى الذكر، وفى قراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق(٢).

– ومن هذه العلامات أيضًا: شعور صاحبه بالقرب الحقيقى من الله – عز وجل – ويظهر ذلك فى دعائه ومناجاته... ويزداد هذا القرب يومًا بعد يوم، حتى يصل إلى درجة الأنس به سبحانه، والتلذذ بمناجاته، وترقب أوقات الخلوة به.

يقول ابن القيم: اعلم أن القلب إذا خلا من الاهتمام بالدنيا، والتعلق بما فيها من مال، أو رياسة، أو سورة، وتعلّق بالآخرة، والاهتمام بها من تحصيل العدَّة، والتأهب للقدوم على الله – عز وجل – فذلك أول فتوحه، وتباشير فجره، فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضى به ربه منه، فيفعله ويتقرب به إليه، وما يسخطه، فيجتنبه، وهذا عنوان صدق إرادته...

فإذا تمكن من ذلك، فتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية، التى تهدأ فيها الأصوات والحركات، فلا شىء أشوق إليه من ذلك، فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته، وتسد عليه الأبواب التى تفرق همه، وتشتت قلبه، فيأنس بها، ويستوحش من الخلق.

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة، بحيث لا يكاد يشبع منها، ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده فى لذة اللهو واللعب، ونيل الشهوات، بحيث أنه إذا دخل فى الصلاة ودَّ أن لا يخرج منها.

ثم يفتح له باب حلاوة استماع كلام الله، فلا يشبع منه، وإذا سمعه هدأ قلبه به، كما يهدأ الصبى إذا أعطى ما هو شديد المحبة له...(٣).

فهذه وغيرها علامات لعودة الحياة إلى القلب، جاء ذكرها – كما رأينا – فى القرآن وفى سنة الرسول ﷺ.

وتبقى نقطة جديرة بالملاحظة وهى: أننا وإن لم نشعر بمثل هذه العلامات، فليس معنى

---

(١) صحيح، أخرجه البخارى، ومسلم وغيرهما عن أنس، انظر صحيح الجامع الصغير ح (١٠٤٤).

(٢) تهذيب مدارج السالكين، ص: ٤٦٣.

(٣) تهذيب مدارج السالكين، ص: ٦٣١ – ٦٣٢.

هذا أننا لسنا مؤمنين، فالإيمان موجود – بفضل الله – فى قلوبنا، بل وتأتى على البعض منا لحظات يشعر فيها بقرب حقيقى من الله، إلا أن هذه اللحظات لا تستمر طويلاً، وهذا مما يؤكد ضرورة المضى قدمًا فى طريق هذه التربية، لعلنا نصل من خلالها إلى اليقظة المستمرة لقلوبنا.

يقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢٤].

إن الذى لا يحمل قلبًا حيًا يقظًا قد يتأثر بالطاعات والعبادات، وبخاصة عند أدائها فى أجواء معينة – كرمضان والعمرة والحج – وقد يشعر فى هذه الأوقات بلذة وراحة وسعادة، ولكنه تأثر وقتى، سرعان ما يزول بعد الدخول فى دوامة الحياة، ويمكن أن نشبهه بالنائم المستغرق فى نومه، والذى قد ينتبه منه نتيجة تعرضه لمؤثر خارجى مفاجىء؛ فيفيق لحظات ثم ما يلبث أن يعود لنومه، أما صاحب القلب الحى فهو دائم اليقظة والانتباه... وهذا هو مستهدف هذه المرحلة.

الباب الأول

لماذا الإيمان أولاً؟

الفصل الأول: دوافع الأعمال.

الفصل الثانى: حقيقة الإيمان.

الفصل الثالث: عندما يضعف الإيمان.

الفصل الرابع: الإيمان أولاً.

الفصل الأول

دوافع الأعمال

ما من عمل إرادى يقوم به الإنسان إلا وله دافع يدفعه إلى فعله، هذا الدافع ينطلق دائمًا من عاطفة الحب أو البغض.

فعلى سبيل المثال، حب الواحد منا لشخصٍ ما، من شأنه أن يدفعه لجلب ما يسعده، ودفع ما يؤذيه.

فالأم تسهر من أجل رعاية وليدها، وتضحى بنومها وراحتها، وما ذلك إلا لشدة حبها له، واستشعارها مدى حاجته إلى هذا السهر.

والمريض الذى يتناول دواءً مرًا... ما الذى يدفعه إلى تحمل تلك المرارة؟

إنه حب العافية وكراهية المرض.

فمدار أفعال العباد تنطلق من مشاعر الحب أو البغض، ففعل الطاعات وترك المنكرات -على سبيل المثال - لن يقوم بها العبد بسهولة ويسر، إلا إذا انطلقت من هذه المشاعر.

يقول تعالى ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** ﴾ [الحجرات: ٧].

وعندما تنطلق جميع أفعال المرء من منطلق حبه لما يحبه الله، وبغضه لما يبغضه -سبحانه- فإنه يكون بذلك قد استكمل الإيمان، لأن جميع دوافعه أصبحت على مراد الله، ليس لنفسه فيها حظ ولا نصيب.

عن أبى أمامة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»(١).

وإذا ما تعارض حبان لشيئين مختلفين أمام الشخص، فإن الحب الأقوى هو الذى سينتصر فى النهاية.

---

(١) صحيح، أخرجه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ح (٥٩٦٥)، والسلسلة الصحيحة ح (٣٨٠).

يقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فالذى يريد التفوق فى دراسته، لما فى ذلك من شهرة، وتميز على الأقران، يضحى براحة نفسه واستمتاعها بكثير من اللذات، لأن حبه لما سيؤول إليه هذا التفوق أقوى من حبه لتلك اللذات.

وبعبارة أخرى فإن شدة حاجته إلى التفوق، جعلته يضحى بكل ما من شأنه أن يعطله عن الوصول إلى هدفه.

فالحاجة إلى الشىء هى التى تولد الرغبة والعزيمة داخل الإنسان، وتدفعه للقيام بكل وسيلة من شأنها أن تقربه إلى مقصوده.

وبقدر الحاجة إلى الشىء تكون الرغبة فى تحصيله.

علاقة الإيمان بالحاجة

إن السبب الرئيسى لعدم إيمان الكثير من الناس بالله - عز وجل -، وعدم قيامهم بحقوق عبوديتهم له، هو عدم استشعارهم حاجتهم إليه.

يقول تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

ففى ظنهم أنهم يمتلكون من أسباب القوة ما يجعلهم فى غنى عنه - سبحانه - وعندما يُستبدل حالهم من اليسر إلى العسر، ومن السعة إلى الضيق، ومن الأمن إلى الخوف والكرب، فإنهم يتجهون بكليتهم إلى الله - عز وجل - بعد أن زالت عنهم عوارض القوة، وعاشوا فى حقيقة فقرهم وضعفهم، واستشعروا حاجتهم الماسة إليه سبحانه.. فتراهم يعودون إليه متضرعين، منكسرين، مخلصين له الدين.

يقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢].

ولقد كان الرسل جميعًا يركزون فى دعوتهم للناس على إشعارهم بحاجتهم إلى الله، فيذكرونهم بحجم النعم التى أنعمها عليهم - سبحانه -، ويخوفونهم من سوء مآلهم إن هم عصوه وكفروا به.

يقول تعالى على لسان هود – عليه السلام – وهو يخاطب قومه: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢ – ١٣٥].

فأى توجيه أو نصح لا يقع موقعه الصحيح فى نفس مستمعه إلا إذا استشعر حاجته إليه، يقول تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

كيفية إنشاء الرغبة:

وبما أن الأعمال تنطلق من إيمان صاحبها بجدواها، ومدى حاجته إليها، يصبح التركيز على فضل العمل والآثار المترتبة على القيام بفعله من الأهمية بمكان، لإنشاء الحاجة، وتوليد الرغبة داخل النفس.

ومثال ذلك: استجابة الكثير من الناس للدعوة إلى الإنفاق فى سبيل الله عندما تصل إلى مسامعهم كلمات صادقة عن فضله، وحاجة المسلمين إليه.

من هنا كانت التربية باستشعار الحاجة من وسائل تغيير السلوك والقيام بالأفعال المرغوب فيها، والمتأمل لأحاديث الرسول ﷺ فى فضائل الأعمال يجد الارتباط الوثيق بين العمل والثواب المترتب عليه، لتولد الحاجة داخل النفس لفعله.

ولأن من طبيعة البشر النسيان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، فإن استشعار الواحد منا حاجته للشيء قد يضعف بمرور الوقت.. لذلك كان من الضرورى دوام التذكير بأهمية ما نقوم به من أعمال، يقول تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

ولابد كذلك من وضوح الهدف الأسمى الذى نسعى جميعًا لتحقيقه، ألا وهو دخول الجنة والنجاة من النار، وكل ما ينبغى أن نقوم به من أعمال ما هى إلا وسائل تعيننا على الوصول إليه، وعندما يصبح هذا الهدف ماثلاً بوضوح أمام أعيننا، فإن من شأنه أن يصوغ حياتنا بطريقة مختلفة عما إذا كان غير ذلك.

بمعنى أننا سنتعامل مع كل شيء يقابلنا فى الحياة من خلال علاقته بهذا الهدف، فما نراه يقربنا إليه نتمسك به، وما نجده يبعدنا عنه نتركه غير آسفين عليه.

والمتأمل لآيات القرآن يجد الحث المتكرر، والترغيب الشديد فى دخول الجنة، كى يزداد السعى إليها، ولا يغفل عنها أحد.

يقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ويقول تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وفى مقابل الترغيب فى دخول الجنة كان الترهيب والتخويف من النار بصور متكررة كى تشتد الحاجة للهروب منها.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢١ – ٢٦].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾

[المزمل: ١٢، ١٣].

الفصل الثانى

حقيقة الإيمان

من معانى الإيمان بالله: التصديق الجازم، واليقين الصادق بأسمائه وصفاته، ووعده ووعيده، والإقرار بأنه – سبحانه – لم يخلقنا عبثاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ – ١١٦].

بل خلقنا لأمر عظيم ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

هذه العبودية، وما يستلزمها من معانى الذل والخضوع والاستسلام، تشترك فى معانيها مع عبودية سائر المخلوقات لله – عز وجل –، كما قال – سبحانه وتعالى – : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

إلا أن عبودية البشر تختلف عن عبودية بقية المخلوقات فى كونها تنطلق من إرادة الإنسان واختياره، فى ظل وجود النفس الأمارة بالسوء، والشيطان الرجيم، الذى أقسم بعزة الله أن يعمل جاهداً على غواية الناس ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ – ٨٣].

ولقد بين لنا – سبحانه وتعالى – أنه لا قيمة لنا فى هذه الحياة إلا بعبادتنا له، فقال فى كتابه الكريم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾

[الفرقان: ٧٧].

ولقد أخذ – سبحانه – العهد من جميع بنى آدم وهم فى عالم الذر على ذلك، وأشهدهم على أنفسهم:

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ

بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢].

وجعل – سبحانه وتعالى – هذا العهد مركوزاً فى الفطرة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠].

قال رسول الله ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يُهودانه، أو يُنصرانه، أو يُمجسانه »(١).

ولقد بين لنا – عز وجل – أنه لن يتركنا دون حساب عن تلك المهمة التى طالبنا بالقيام بها، يقول تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦].

ويقول : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف : ٤٨].

القلب محل العبودية :

جعل الله – عز وجل – القلب محلاً لعبوديته، ففيه تجتمع المشاعر والوجدانات داخل الإنسان، من حب وكره، وخوف ورجاء، وفرح وحزن، ورغبة ورهبة، وفزع وسكينة .. وغير ذلك من العواطف .

ولقد جعله – سبحانه وتعالى – مَلِكاً على الجسم كله، فما من حركة إرادية يقوم بها أى عضو إلا وتأتى استجابة لأوامره .. فهو محل الإرادة واتخاذ القرار، وما على الجميع إلا التنفيذ، يقول ﷺ : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب »(٢).

ومن جنود هذا القلب : العقل، ومن أهم وظائفه أنه محل العلم والتفكير، وبه تُدرك العواقب، وتُلجم العواطف، لذلك فهو مستشار القلب ووزيره .

أما النفس فإنها وإن كانت من جنود القلب إلا أنها تحاول دائماً الاستئثار به، والسيطرة عليه؛ لتتمكن من مركز الإرادة، فتنطلق القرارات خادمة لهواها، وموافقة لحظوظها .

---

(١) صحيح ، أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٥٧٨٤).

(٢) صحيح، متفق عليه، أخرجه البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٣١٩٣)

ولقد جعل الله – عز وجل – لكل عبدٍ من عباده مَلَكاً من ملائكته، يحثه على فعل الخير، ويذكره به، وينهاه عن الشر، ويحذره منه، وجعل له كذلك شيطاناً يمنيه الأمانى الباطلة، ويوسوس له، ويزين له فعل المحظورات، مستغلاً جهل النفس وولوعها بالحصول على ما فيه متعتها.

يقول ﷺ : « فى القلب لمتان، لمة من الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله، ولمة من العدو: إيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، ونهى عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾(١) [البقرة: ٢٦٨].

علاقة العبودية بالإيمان:

عبودية المرء لله تتمثل فى إخضاع جميع مشاعره له، فيحب فيه، ويبغض فيه، ويطيع أوامره، ويجتنب نواهيه، ويفرح بفضله، ويحزن من التقصير فى جنبه، ويتحاكم إليه، ويتخاصم من أجله..

إنه الاستسلام المطلق له سبحانه فى كل شىء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

هذه العبودية تتأثر سلباً وإيجاباً بحجم الإيمان الموجود فى القلب، فكما أشرنا سابقاً أن منشأ ومنطلق أى فعل يقوم به الإنسان هو الحب أو البغض، والحب قد يكون حباً لله، وابتغاء مرضاته، وقد يكون حباً للنفس، وابتغاء لرضاها، والعبد مطالب بنصرة الله على نفسه، وتقديم رضاه على رضاها.

قال تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

وما من قرار يصدر من القلب إلى الجوارح إلا ويترجم: انتصار حب الله والإيمان به على حب النفس وهواها، أو العكس.

فالصراع بين الإيمان والهوى لابد وأن يحسم لصالح أحدهما لحظة اتخاذ القرار، فإن انتصر الإيمان انقادت الجوارح لأوامره من طاعات وقربات، أما إذا انتصرت النفس فى هذه

---

(١) أخرجه الترمذى وحسنه، والنسائى فى الكبرى من حديث ابن مسعود، والآية فى سورة البقرة: ٢٦٨.

المعركة كان القرار قرارها، فتأمر الجوارح بفعل ما يوافق هواها.

ففعل الجوارح يعكس حجم الإيمان الموجود فى القلب.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

فمن أراد أن يعظم شعائر الله فليعمل على زيادة الإيمان والتقوى فى قلبه، وهذا ما يؤكده له تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ – ٦١].

فكلما ازدادت خشية الله فى القلب كانت المسارعة إلى الخيرات بالجوارح.

ولقد رأى بعض السلف رجلاً يعبث بلحيته فى صلاته، فقال: لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه(١).

من هنا قال العلماء: إن الدافع لفعل الطاعة هو الإيمان، كما أن الطاعة من ثمراته ونتائجه، وفى المقابل فإن الدافع لفعل المعصية – بعد انتفاء الجهل والإكراه والخطأ والنسيان – هو الهوى(٢).

يقول تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]

---

(١) الذل والانكسار للعزيز الجبار، لابن رجب، ص: ٣٣.

(٢) الإيمان، لابن تيمية، ص: ٦٨.

الفصل الثالث

عندما يضعف الإيمان

عندما يضعف الإيمان فى القلب، وتقل مساحته فيه، فإن ذلك ينعكس أثره على السلوك، حيث تنطلق الأفعال مستجيبة لداعى الهوى.

ولمعرفة حجم هذا الضعف علينا النظر إلى السلوك الخارجى، ورصد ما يبتعد منه عن هدى الإسلام.

مظاهر ضعف الإيمان:

لضعف الإيمان مظاهر عديدة، تختلف نسبة تحققها من شخص لآخر، حسب درجة هذا الضعف، ومن هذه المظاهر:

– التكاسل عن أداء الطاعات بالكيفية المطلوبة، فترى مثل هذا الشخص – صاحب الإيمان الضعيف – يتأخر عن صلاة الجماعة، وقلما يحضر أولها مع الإمام، وفى أثنائها تتزاحم عليه الخواطر والأفكار الدنيوية، فلا يفيق منها إلا والإمام ينهى صلاته بالتسليم.

– لا يستيقظ لصلاة الصبح فى موعدها بالمسجد، وعندما يفتح عينيه فيجد ضياء الشمس قد ملأ الكون حوله دون أن يصلى الفريضة، لا تجده مستشعراً حجم المصيبة التى لحقت به، فلا يكون حزيناً ولا مكتئباً ولا خائفاً من حدوث بلاء له فى يومه، بسبب تفريطه فى صلاة الفجر.. بل يمارس حياته بصورة طبيعية، كأن شيئا لم يكن.

– يذهب إلى صلاة الجمعة متأخراً، بعد أن يصعد الإمام المنبر، وتغلق الملائكة سجلاتها التى كتبت فيها أسماء المبكرين إلى الصلاة.

– يترك الكثير من السنن بدعوى أنه لا حساب على تركها، فلا تراه يصلى الرواتب، ولا صلاة الضحى، ولا التوبة، وكذلك قيام الليل، وصلاة الاستخارة.

– فى مثل هذه الأجواء يُهْجر القرآن، فإذا ما قُرِئَ فباللسان فقط.. يمر القارئ بآيات الوعد والوعيد، فلا يتأثر بها قلبه، ولا تدمع لها عيناه، ولم لا والقرآن لم يجاوز حنجرته؟!

– ومع هجر القرآن قراءةً وتدبراً تُترك الأذكار، وكذلك الدعاء، ويشعر صاحب هذا

القلب بثقل اللسان، فإذا ما رفع يده بالدعاء سرعان ما يقبضها؛ لأن قلبه فى وادٍ ولسانه فى وادٍ آخر(١).

- ومن مظاهر ضعف الإيمان فى القلوب النظر إلى الأمور من جهة وقوع الإثم فيها أو عدم وقوعه فقط، وغض النظر عن فعل المكروه، فيقترب صاحب هذا القلب من دائرة الحرام شيئاً فشيئاً، وهذا عين ما أخبر به النبى ﷺ: «... ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه...»(٢).

ومن نتائج ذلك أيضاً:

- قلة الورع، وعدم تحرى الحلال والحرام فى الأقوال والمعاملات، والطعام والشراب، ويدخل فى هذا الباب عدم إتقان الفرد لعمله، وعدم وفائه بوعوده ومواعيده.
- يضعف سلطان الدين فى قلبه، فيبدأ فى التنازل شيئا فشيئا عن كثير من الثوابت، فلا تراه يغضب إذا ما انتهكت محارم الله، ولا يفكر فى القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.
- يضعف شعوره بالمسئولية تجاه هذا الدين، فلا يقوم بواجب الدعوة إليه، ولا يؤثر فيمن حوله.
- تضعف مقاومته أمام التلفاز، فيشاهد فيه الكثير مما يغضب الله - عز وجل - من نساءٍ كاسياتٍ، عارياتٍ، مائلاتٍ، مميلاتٍ.
- ومن مظاهر ضعف الإيمان فى القلوب عدم غض البصر بين الرجال والنساء، وكثرة الكلام بينهم بضرورة وغيره ضرورة.
- وعندما يضعف الإيمان يكثر اللغو، وتزداد جلسات السهر والسمر واللهو، وفيما يزداد الحرص على الاستئثار بالحديث، والإجابة عن كل تساؤل، ومقاطعة المتحدث، ويأخذ كلام الأشخاص الطابع العقلى، ويفقد السمة الإيمانية، حتى لا تكاد تجد فى كلام الحاضرين نصاً من القرآن، أو السنة، أو كلام السلف - رحمهم الله -(٣).

---

(١) ظاهرة ضعف الإيمان، للمنجد، ص: ١٢.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم، انظر ظاهرة ضعف الإيمان، للمنجد ص: ١٦، ١٧.

(٣) ظاهرة ضعف الإيمان، للمنجد، ص: ٢٢

– وفى مثل هذه المجالس تُنتهك حرمات الأشخاص، فتكثر الغيبة والنميمة، والسخرية والاستهزاء، والغمز واللمز.

– تتعلق القلوب بالدنيا، فتفرح إذا ما زاد الرصيد من المال والذهب، وتحزن عند نقصانه.

– يزداد الحرص على التمتع بمباهج الحياة، ويظهر ذلك جلياً فى الملبس والمأكل، والمسكن والأثاث، وفى السعى للحصول على الكماليات، وفى كثرة الذهاب للمصايف والمنتزهات، بمناسبة وغير مناسبة.

ومنشأ هذا الحرص إصابة القلب بمرض حب الدنيا، فينعكس ذلك على تصورات صاحبه، وعلى أحلامه وتطلعاته.

فالفقير يحلم بالثراء، والغنى ينظر إلى من هو أغنى منه، ولا يكتفى أحد بما عنده، بل يريد المزيد والمزيد من أسباب القوة فى الدنيا، مما يؤدى إلى زيادة التنافس على امتلاك زينتها، من أرضٍ وعقاراتٍ ودوابٍ.. إلخ.

– وعندما يضعف الإيمان فى القلوب يتغير تفكير الآباء تجاه أبنائهم، فبدلاً من أن يهتموا بأمور دينهم، يصبح جل اهتمامهم هو تعليمهم اللغات الأجنبية، فيعملون على إلحاقهم بمدارسها، وفى أغلبها الكثير مما يهز العقيدة فى نفوس الأولاد، ويكسبهم سلوكيات عديدة منافية للإسلام، فينشأ الكثير منهم فى وادٍ وآباؤهم فى وادٍ آخر.

– يضعف تعظيم شعائر الله، وحب السنة، ويصبح المنادى بضرورة التمسك بها غريباً، لا يكاد يجد صدى لندائه، وفى المقابل يزداد البحث عن الرخص لاتباعها، والتنصل من تكاليف الإيمان.

– وعندما يضعف الإيمان يقل العفو والتسامح، وتزداد المشاحنات بين الناس، وتتوتر العلاقات بين أصدقاء الأمس؛ فيكثر الخصام، ويعمل الواحد منهم على تصعيد أخطاء صاحبه، وتشويه صورته أمام الآخرين.

– فى هذا الجو تتضخم الذات، ويكثر الاعتداد بالرأى، ويزداد الحرص على الانتصار للنفس، وحب الظهور، والتصدى، والسعى للإمارة.

– وفيه يقل البذل والعطاء، والإنفاق فى سبيل الله، ويزداد الحرص والشح، ويقل حب الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله – عز وجل –، ويزداد الخوف من الابتلاء والمحن التى تصيب العاملين للإسلام.

- وعندما يضعف الإيمان: تسود الأخلاق، ويقل الحلم والعفو، والصفح بين الناس.. تكثر الفظاظة والغلظة، ويقل التراحم والذلة بين المؤمنين، ويزداد التقصير فى القيام بالحقوق: « كبرٌ الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجار.

- تسود المعاملات بين الناس، ويظهر ذلك جلياً فى البيع والشراء والتجارة، فالكل يحاول الاستئثار بالخير لنفسه.

- ومن مظاهر ذلك أيضاً: قلة الثقة فيما عند الله، وازدياد الطمع فيما فى أيدى الناس، وعدم الرضى بالقدر، فيكثر التسخط والتشكى، ويظهر ذلك بوضوح عند مواجهة أدنى مصيبة.

- تزداد حالة السلبية، وعدم المبالاة بهموم الآخرين، ومشاكلهم، فيقل السعى فى قضاء حوائج المحتاج، أو نجدة المهلوف، أو مساعدة الفقراء والمساكين.

- وفى مثل هذه الأجواء التى قد تعيشها بعض القلوب تزداد حالات الفتور، والابتعاد عن صفوف العاملين للإسلام، وتقل سرعة تلبية الأفراد للتكليفات الإيمانية، وتُختلق الأعذار للهروب من الواجبات.

- وعندما يضعف الإيمان تقل درجة الإخوة بين الأفراد، ويضعف الحب فيما بينهم، فينظر الواحد منهم إلى حقوقه، ولا يقبل من أحد أن يقصر فى أدائها، وينسى فى المقابل واجباته، ويسوق دائماً مبررات هروبه منها.

الفصل الرابع

الإيمان أولاً

إن تعدد مظاهر ضعف الإيمان يدل دلالة قاطعة على قلة مساحته فى القلوب.

حينئذ لا يمكن العلاج فى مواجهة المخطئ بخطئه، أو الكشف عن ضعفه، والعمل على تخطئته، ولا يجدى نفعاً إلزامه بانتهاج السلوك المضاد، لأن الحالة التى وصل إليها تعكس أول ما تعكس ضعفاً إيمانياً فى قلبه، نتج عنه تغيير فى فكره وقناعاته، فانعكس ذلك على سلوكه، فإذا ما ألزمته بتغيير سلوكه دون أن تبدأ بإيقاظ الإيمان فى قلبه فكأنما تحرث فى الماء، فهو فى وادٍ وأنت فى وادٍ آخر، وذلك لأنه ليس لديه دافع ذاتى يقوده إلى مثل هذا التغيير.

من هنا نقول إن بداية الخروج من هذا الواقع، وعلاج مثل هذه الظاهرة، ليست فى تكليفات جديدة يتثاقل عن أدائها القلب الضعيف، وإنما يكون بالإيمان.

فالإيمان قبل التكليفات.

تقول السيدة عائشة – رضى الله عنها – : أول ما أُنزل من القرآن سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل من أول الأمر: لاتَزنُوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، ولو نزل من أول الأمر: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا نترك الخمر أبداً، أنزل على النبى ﷺ وأنا جارية ألعب ﴿**بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر**﴾ وهى من سورة القمر، وما نزلت البقرة والنساء إلا وأنا عنده فى المدينة(١).

وهذا جندب بن عبدالله – رضى الله عنه – يقول: كنا مع النبى ﷺ ونحن فتيان حزاير(٢) فتعلمنا الإيمان قبل القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا(٣).

ويؤكد على هذا المعنى عبدالله بن عمر – رضى الله عنهما – بقوله: لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد فنتعلم حلالها وحرامها

---

(١) صحيح البخارى.

(٢) جمع حزير، وهو الشاب الممتلئ نشاطاً وقوة وجلداً.

(٣) رواه ابن ماجة بسند صحيح.

وأمرها وزجرها وما ينبغى أن يقف عليه منها، ثم رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدرى أمره ولا زجره، ولا ما ينبغى أن يقف عنده، فينثره نثر الدقل(١).

ولقد وصف لنا القرآن حالة من يرث الكتاب قبل أن يؤتى الإيمان بقوله تعالى: ﴿ **فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ** ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

لذا فإن من الواجب علينا أن نعيد ترتيب أولوياتنا، وتشكيل عقولنا مرة أخرى، وأن يحتل فيها الإيمان المساحة العظمى ليصبح أساس التفكير ومنطلق الأعمال.

وليس معنى هذا أن نهمل الجوانب الأخرى، ولكن المطلوب هو التركيز على هذا الجانب، فبه ستحل البركة على جميع الأعمال، وسيسهل على الواحد منا القيام بجميع الواجبات، وترك المنهيات.

والقارئ المتدبر للقرآن يجد فيه العديد من الآيات التى تقرر هذه الحقيقة.

يقول تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ [الحج: ٣٢].

فتعظيم شعائر الله يعكس حجم الإيمان والتقوى فى القلوب، وبقدر هذا الحجم يكون مستوى التعظيم.

ويقول تعالى: ﴿ **لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ** ﴾ [التوبة: ٤٤].

فإيمانهم بالله واليوم الآخر هو الذى دفعهم للجهاد بأموالهم وأنفسهم دون الحاجة إلى من يحثهم على ذلك.

نموذج عملى:

لقد عاش صحابة رسول الله ﷺ هذه المعانى الإيمانية، وتمكنت منهم، فصنعوا المعجزات.

فالمهاجرون تحملوا الضيق والحصار الذى ضُرب عليهم، ثم هاجروا إلى المدينة، تاركين أموالهم وديارهم، حباً لله - عز وجل - وابتغاءً لمرضاته ومثوبته، كما قال تعالى عنهم:

---

(١) أخرجه الحاكم، وصححه على شرط الشيخين.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [البقرة : ٢٠٧].

أما الأنصار فلقد تمكن الإيمان من قلوبهم تمكُّناً شديداً، حتى وصلوا إلى الدرجة التى قال الله – سبحانه وتعالى – عنها : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ ﴾ [الحشر : ٩].

فكانهم دخلوا بكليتهم فى الإيمان، ولم يدخل الإيمان فيهم، وشتان بين الأمرين.

لقد اختلط الإيمان بلحومهم ودمائهم، فضلاً عن تمكنه فى قلوبهم، فانعكس ذلك على تصرفاتهم، فكانت منهم الأفعال التى لا تصدر عن أى بشر عادى.

لقد كان التنافس فيما بينهم شديداً على ضيافة المهاجرين ومؤاخاتهم، فقد روى أنه: « ما نزل مهاجرى على أنصارى إلا بقرعة ».

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

يقول القرطبى : كان المهاجرون فى دور الأنصار، فلما غنم عليه الصلاة والسلام أموال بنى النضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين فى إنزالهم إياهم منازلهم، وإشراكهم فى أموالهم، ثم قال : « إن أحببتم قسمت ما أفاء الله علىَّ من بنى النضير بينكم وبينهم – وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكن فى مساكنكم وأموالكم – وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم »، فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ : بل نقسمه بين المهاجرين، ويكونون فى دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار ».

فكل ما يجد الإنسان فى صدره مما يحتاج إلى إزالته فهو حاجة، والأنصار لم يجدوا فى صدورهم أى حاجة تجاه المهاجرين عندما خُصُّوا بمال الفئ وغيره(١).

لقد آثروهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم، لا عن غنى، بل مع احتياجهم إليها(٢).

أخرج الإمام مسلم عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه فقالت : والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء، فقال : « من يضيف

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٨ / ١٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٨ / ١٩.

هذا الليلة رحمه الله؟ « فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا قوت صبياني، قال: فعلّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه، قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: « قد عجب الله - عز وجل - من صنيعكما بضيفكما الليلة ».

أي مستوى من الإيمان كان عليه هؤلاء الأنصار؟

ولكي نعرف حجم التغيير الضخم الذي أحدثه الإيمان في حياة الأنصار علينا أن نعرف حالهم قبل الإسلام، وكيف كانوا منقسمين إلى فريقين متباغضين، قال تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لذلك من أراد تحصيل أي وجه من أوجه الخير فليوجه اهتمامه إلى الأصل العظيم، والشجرة المباركة.. شجرة الإيمان ومنها ستتفرع الفروع، وتقطف الثمرات في كل الاتجاهات، وعلى مدار الأوقات مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

الأمر بالمعروف قبل النهي عن المنكر:

هناك أمر آخر يؤكد حقيقة أن البدء بالإيمان والتركيز عليه من شأنه أن يحل الكثير من المشكلات، ويُظهر الكثير من الثمرات الطيبات.

هذا الأمر هو القاعدة التي أكدها القرآن في عدة مواضع، وهي أن: الأمر بالمعروف قبل النهي عن المنكر.

فالنهي عن المنكر قبل الأمر بالمعروف قد يؤدي إلى نتائج عكسية؛ لغلبة الهوى، وتمكن سلطان النفس من القلب.

فإذا ما أردنا أن نجعل أنفسنا، ومن حولنا من الناس يترك ما يفعله من آثام، فلا يكن جل اهتمامنا بيان حرمة ما يفعلونه، بل علينا أيضاً العمل على زيادة الإيمان في القلوب.

إن النفوس لها عورات، كما أن للبدن عورات.. وخير لباس لعورات النفس هو الإيمان

والتقوى، وعندما يقل مستوى الإيمان فى القلوب تنكشف العورات كالنهر الذى يجف ماؤه، تظهر فيه النتوءات والحفر.

يقول تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ولقد ضرب لنا القرآن مثالاً لذلك بالصلاة، فعندما تقام بالهيئة التى أمر الله بها عباده – ظاهراً وباطناً – فإنها تزيد الإيمان فى القلب بالدرجة التى يستطيع المؤمن من خلالها أن يقهر الهوى فلا يأتى بفاحشة، ولا يرتكب منكراً.

يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال أبو بكر بن عياش: من قام الليل لم يأت فاحشة، ألا تسمع إلى قول الله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾(١).

وعن جابر قال: قيل يا رسول الله إن فلاناً يقوم الليل فإذا أصبح سرق، فقال رسول الله ﷺ: «ستنهاه صلاته»(٢).

تطبيقات عملية من السيرة:

إن المشاكل ليست ببعيدة عن أى مجتمع، ولكن يختلف الناس فى كيفية التعامل معها، ولقد واجه المجتمع المسلم فى عهد الرسول ﷺ بعضاً منها فكان حلها يبدأ دائماً بالتذكير بقضية الإيمان ومقتضياته.

فعندما انتصر المسلمون على المشركين فى غزوة بدر، كانت هناك غنائم كثيرة، كانت سبباً فى اختلاف البعض حول كيفية توزيعها، وظن بعض الشباب أنهم أحق من غيرهم من الشيوخ بها، فكيف تمت معالجة هذه المشكلة؟

نزلت سورة الأنفال وبدأت بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، فخرجت الغنائم من أيديهم تماماً، وأصبحت لله ورسوله، فليس لأحد فيها شىء.

---

(١) كتاب التهجد وقيام الليل، لابن أبى الدنيا، ص: ٤١٩.

(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢/٢٥٨، وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

ثم بدأت الآيات تذكرهم بالإيمان وعلاماته، وأوردت صفات المؤمنين ليعرض كل منهم نفسه عليها وأول هذه الصفات ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، أى اهتزت، واضطربت، وخافت قلوبهم عند ذكر الله، وهى صفة مادية يسهل قياسها، فمن لم يشعر بذلك فليعمل على زيادة إيمانه، ليكون مؤمناً حقاً.

واستمرت الآيات فى سرد صفات المؤمنين ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ -٤]، فهل يفكر أحد بعد هذه الآيات فى الغنائم، أم أنه سيفكر فى نفسه، وأين هو من هذه الصفات، وهل هو مؤمن حقاً أم لا؟.

ثم تمضى السورة فتذكرهم بما منَّ الله عليهم من نصر عظيم فى هذه الغزوة المباركة، وأن هذا النصر من عند الله لا من عند أنفسهم، فلقد غشاهم بالنعاس، وأنزل عليهم الغيث، وأمدهم بالملائكة، وسدد رميهم، وثبتهم، وأوهن كيد الكافرين.

ثم تذكرهم السورة بضرورة الاستجابة لله والرسول، وتخوفهم بأن الله يحول بين المرء وقلبه.

وتعود الآيات بذاكرتهم إلى أيام مكة حين كانوا مستضعفين، يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وبعد ذلك بكثير من الآيات، وفى الآية الواحدة والأربعين من السورة، وبعد أن تجردت القلوب لله، وراجع كل واحد منهم إيمانه، ونسى أمر الغنائم، تحدثت الآية عن كيفية تقسيمها ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وفى غزوة حنين، بعد الفتح العظيم لمكة، وفيها كان عدد الجيش الإسلامى كبيراً لدرجة أن العُجب بهذا العدد قد دخل إلى بعض النفوس، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وبينما هم ينحدرون فى وادى حنين، وهم لا يدرون بوجود كمائن العدو فى مضايق هذا

الوادى، إذ بكتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد، فانشمر المسلمون راجعين، لا يلوى أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة، حتى قال أبو سفيان بن حرب وهو حديث عهد بالإسلام: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر – أى البحر الأحمر –.

وانحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول: «هلموا إلى أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله»، ولم يبق معه فى موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين وبعض أهل بيته)(١).

فماذا فعل رسول الله ﷺ؟

فى صحيح مسلم أنه ﷺ قال للعباس: «ناد: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرة – أى شجرة الرضوان التى بايعوا تحتها على أن لا يفروا حتى يموتوا بين يديه أو ينتصروا على المشركين – يا أصحاب سورة البقرة» وكان العباس – رضى الله عنه – رجلاً صيتاً، جهير الصوت، قوى الصرخة، فنادى بما أمره به رسول الله ﷺ، وبلغ نداؤه مسامع المسلمين، وهم على مسافات بعيدة، فأقبلوا سراعاً، كأنهم الإبل إذا حنّت على أولادها، وهم يقولون: لبيك، يا لبيك، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، انحدر عنه، وأرسله، وأخذ درعه يقذفها فى عنقه، وأخذ سيفه وترسه، يؤم الصوت، وازدحموا على رسول الله ﷺ ازدحاماً شديداً، حتى كانه ﷺ فى حرجة، فقال العباس – رضى الله عنه –: فلَرماح الأنصار كانت أخوف عندى على رسول الله ﷺ من رماح الكفار، لشدة ما أحاط الأنصار برسول الله ﷺ، وهم يقاتلون عنه، ويحمون ما كان من هفوتهم فى التولى عنه ﷺ.

فأمرهم ﷺ أن يصدقوا الحملة على أعدائهم المشركين، فقاتلوهم قتالاً شديداً، جعل رسول الله ﷺ يشرف عليهم مبتهجاً بشجاعتهم وبطولتهم، وقال: «الآن حمى الوطيس»، وتناول حفنة من الحصباء بيده الشريفة، أو ناولها له عمه العباس، أو غيره من أصحابه رضى الله عنهم، ورمى بها فى وجوه الأعداء المشركين وهو يقول: «شاهت الوجوه»، فهزمهم الله تعالى هزيمة منكرة، فرقت جموعهم، وأرسلوا أرجلهم بالفرار لا يلوون على شىء(٢).

وبعد أن انتهت غزوتى حنين والطائف، والتى غنم المسلمون منها غنائم كثيرة، أعطى رسول الله ﷺ النصيب الأكبر منها لرؤساء القبائل، والمؤلفة قلوبهم الحديثى عهد بالإسلام، ولم يعط الأنصار منها شيئاً.

---

(١) الرحيق المختوم ص: ٤٦٧، ٤٦٨ بتصرف يسير.

(٢) محمد رسول الله، لصادق عرجون، ٤/ ٣٧٤.

وهذه السياسة لم تُفْهم أول الأمر، فأطلقت ألسنة شتى بالاعتراض[1]، (وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة، لقد حُرموا جميعاً أعطية حنين، وهم الذين نُودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع الرسول ﷺ حتى تبدل الفرار انتصارا، وها هم أولاء يرون أيدى الفارين ملأى، وأما هم فلم يُمنحوا شيئاً قط.

روى ابن إسحاق عن أبى سعيد الخدرى قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وفى قبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم لقى والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفئ الذى أصبت، قسمت فى قومك، وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء، قال «فأين أنت من ذلك يا سعد؟»، قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومى، قال: «فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة» فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا معشر الأنصار مقالة بلغتنى عنكم، وجدة وجدتموها على فى أنفسكم، ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟»، قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال: «ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل، قال: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مُكَذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك.

أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذى نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا)[2].

---

(١) فقه السيرة، لمحمد الغزالى، ص: ٢٩٥.

(٢) الرحيق المختوم، ص: ٤٧٣، ٤٧٤ نقلاً عن ابن هشام ٢/٤٩٩، ٥٠٠، وروى مثل ذلك البخارى ٢/٦٢٠، ٦٢١

ألا ترى كيف عالج رسول الله ﷺ هذه المشكلة الطارئة؟

إن العمل على زيادة الإيمان فى القلوب هو الحل لكثير من المشكلات، ففى ظل الأجواء الإيمانية تذعن القلوب لداعى العفو والتسامح، والتغاضى عن الهفوات، فالإيمان يصنع المعجزات، ويروض النفوس المستأسدة، لذلك فإنه ليس من المناسب أن نحكم على شخص ما حكماً نهائياً من خلال سلوكياته التى قد تبدو منه فى حالة ضعف إيمانه وليس من المناسب كذلك أن تجرنا تلك التصرفات إلى مواجهته، واتخاذ موقف مضاد منه؛ لأن ذلك سيؤدى به إلى العمل على الانتصار لنفسه، وإثبات صحة موقفه، فتزداد الأمور تعقيداً، بل إن المقترح فى مثل هذه الحالات أن تكون البداية بالعمل على إيقاظ الإيمان فى القلوب، وتحويل الأجواء المحيطة إلى أجواء صحية، يسعى فيها الجميع إلى مرضاة الله – عز وجل –.

ففى مثل هذه الأجواء الإيمانية تصبح نفس كل واحد منا وراءه وليست أمامه، وفارق كبير بين الموقفين، عند ذلك ستتغير الدوافع، وتنتهى الكثير من المشاكل تلقائياً دون مواجهات.

ليتأمل كل منا حال الصحابة قبل الإسلام وبعده، وليتفكر فى الأسباب التى غيرتهم هذا التغيير الجذرى، لقد كانوا يقولون عن عمر بن الخطاب فى الجاهلية: لن يؤمن عمر حتى يؤمن حمار الخطاب، فعلى أى أساس كان هذا التقييم؟ كان – بلا شك – من واقع الحالة التى كان عليها وقتذاك، لكن عندما دخل الإيمان قلبه، تحولت الدفة، وأصبح عمر أحد رموز الإسلام الشامخة.

خطورة طغيان النفس:

إن النفس هى النفس، خلق الله فيها الاستعداد للتقوى، والاستعداد للفجور، قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس: ٧ – ١٠].

وعندما تُترك النفس دون أن تُلجم بلجام الإيمان والتقوى، فإن طغيانها لا حدود له، تأمل ماذا فعلت النفس بثمود قوم صالح، لقد كذبوا نبوته، وأبوا أن يؤمنوا بالله، وطلبوا منه آية تدل على صدقه، فأخرج لهم الله – عز وجل – ناقة من بين الصخر، آيةً مبصرة، تدل دلالة واضحة على صدق هذا النبى، يقول تعالى على لسان نبيه صالح – عليه السلام –: ﴿ **وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ** ﴾ [هود: ٦٤].

فماذا فعلوا؟ هل استسلموا لربهم وآمنوا بنبيهم؟ ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

فماذا حدث لهم؟ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨ – ٧٩].

كيف وصل طغيانهم إلى هذا الحد؟.

يجيب القرآن على هذا التساؤل، ويشخص حالتهم بأنهم تركوا نفوسهم دون تزكية، حتى وصلت إلى درجة من الطغيان، دفعتهم إلى عقر الناقة، يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧ – ١١].

وتأمل ماذا فعلت النفس بإخوة يوسف ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وكذلك فعلت فعلتها مع السامرى ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٥، ٩٦].

وليس أدل على ذلك من حال ابنى آدم، فهما أخوان شقيقان تربيا فى نفس البيئة، لكن أحدهما ألجم نفسه بلجام الخوف من الله – عز وجل –، والآخر تركها دون هذا اللجام، فألجمته وأسرته، ثم أرغمته على قتل أخيه – انتصاراً لها وتحقيقاً لرغباتها – فأطاعها، يقول تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣٠، ٣١].

لقد خلق الله – عز وجل – فى النفوس القابلية للهداية والقابلية للفجور، فلا يُولد شخص على ظهر الأرض إلا وفى نفسه هذه الخاصية، بل وتظل معه، وليس معنى أن أغلب الناس قد سار وراء هوى نفسه ورغبتها فى الفجور أن تنعدم قابليتهم للهداية.. نعم، قد تضعف بمرور الوقت وطول الأمد؛ نتيجة لقسوة القلب، إلا أن هذا لا يعنى استحالة تزكية نفوسهم، فالله – عز وجل – كما أنه يحيى الأرض بعد موتها، فإنه – سبحانه – يحيى

القلوب كذلك، قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

لا تكن كالشمعة:

إن الانشغال بالعمل والحركة وسط الناس لحل مشاكلهم، والسعى فى خدمتهم أمر عظيم، ومطلوب من الجميع، ولكن عندما تكون هذه الحركة بلا دافع إيمانى، بل بدافع العادة، أو الحياء، أو غير ذلك من الدوافع فإن من شأنها أن تحدث أثراً سلبياً فى نفس صاحبها.

ولقد حذرنا رسول الله ﷺ من هذا الأمر بقوله: «مثل الذى يعلم الناس الخير، وينسى نفسه، مثل الفتيلة، تضىء للناس وتحرق نفسها»(١).

ويقول الرافعى: إن الخطأ أكبر الخطأ أن تنظم الحياة من حولك وتترك الفوضى فى قلبك(٢).

الإيمان مفتاح كل خير:

عندما نقول إن الإيمان هو مفتاح النجاح، وبداية الحل لأى مشكلة، فإننا لا نأتى بجديد، فالقرآن ملئ بالآيات التى تحثنا على الإيمان والتقوى، وترغبنا فى النتائج المترتبة على ذلك.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فمن أراد التحلى بحسن الخلق فليبدأ بالإيمان يقول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»(٣)، ومن أراد ترك الآثام فليلتحق بمدرسة الإيمان، قال ﷺ: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد»(٤).

---

(١) صحيح، أخرجه الطبرانى فى الكبير عن أبى برزة، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع، ح (٥٨٣٧).
(٢) وحى القلم، للرافعى، ٢/ ٤٢.
(٣) صحيح، أخرجه الإمام أحمد وغيره عن أبى هريرة، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (١٢٣).
(٤) صحيح، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده وغيره عن بلال، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٤٠٧٩).

فالمواظبة على فعل الخيرات لا تكون إلا من مؤمن، يقول ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»(١).

الإيمان يصنع المعجزات:

إن نور الإيمان عندما يدخل القلب يبدد جميع الظلمات، ويحرق جميع الشهوات، ولم لا وهو نور مالك الملك؟ يقول تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

لقد جاء سحرة فرعون من أجل المال والرفعة ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١]، وعندما دخل الإيمان قلوبهم حولهم إلى ربانيين، تسمو نفوسهم نحو السماء، فيستهينون بالدنيا ومن عليها، ويندمون على ما فعلوه في حق الله، ويتطلعون إلى ما عنده من نعيم مقيم ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٣].

إن الإيمان يصنع المعجزات، ويتخطى كل الحدود.. حدود السن، والإمكانيات، والقدرات، والمقاييس الأرضية.

انظر إلى قصة أصحاب الأخدود، ما الذى جعل المؤمنين لا يبالون بالموت بهذه الطريقة البشعة؟

وتأمل حال الصحابة رضوان الله عليهم.. ما الذى دفعهم إلى ترك أوطانهم، وأموالهم، وعشائرهم، وهاجروا إلى وطن جديد لا يعرفون فيه أحداً ولا يملكون فيه مالاً؟

تأمل حال صهيب الرومى عندما أراد الهجرة، فأرادت قريش أن تمنعه، فقالوا له: يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج ومالك، والله لا يكون ذلك أبداً، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن دفعت إليكم مالى تخلون عنى؟ قالوا: نعم، يقول صهيب: فدفعت إليهم مالى فخلوا عنى فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: ربح صهيب، ربح صهيب، مرتين وفيه وأمثاله نزلت الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧](٢).

---

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذى وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه والنسائى والبيهقى فى السنن عن ابى سعيد، وصححه السيوطى فى الجامع الصغير ح (٦٣٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٢١٦.

وانظر كيف استطاع الإيمان أن يغير من شخصية الخنساء (المرأة التى فقدت فى جاهليتها أخاها لأبيها: صخراً، فملأت الآفاق عليه بكاءً وعويلاً، وشعراً حزيناً، فكان مما قالت:

يذكرنى طلوع الشمس صخراً ... وأذكره بكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولى ... على إخوانهم لقتلت نفسى

ولكننا بعد إسلامها نراها امرأة أخرى.. نراها تقدم فلذات الأكباد إلى الموت راضية مطمئنة، بل محرضة دافعة.

روى المؤرخون أنها شهدت حرب القادسية بين المسلمين والفرس، تحت راية القائد سعد بن أبى وقاص، وكان معها بنوها الأربعة، فجلست إليهم فى ليلة من الليالى الحاسمة تعظهم وتحثهم على القتال والثبات، وكان من قولها لهم: أى بنى، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، والله تعالى يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال فى سبيل الله مستبصرين وبالله على أعدائكم مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، تظفروا بالغنم فى دار الخلد...

فلما أصبحوا باشروا القتال بقلوب فتية، حتى استشهدوا واحداً بعد واحد، وبلغ الأم نعى الأربعة فى يوم واحد، فلم تلطم خداً، ولم تشق جيباً، ولكنها استقبلت النبأ بإيمان الصابرين، وصبر المؤمنين، وقالت: الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته(١).

وفى القصة القصيرة التى رواها مسلم فى صحيحه برهان مبين على مبلغ أثر الإيمان... ذلك أن رجلاً كان ضيفاً على النبى فأمر له بشاة فحُلبت، فشرب حلابها، ثم أمر له بثانية فشرب حلابها، ثم بثالثة، ثم برابعة... حتى شرب حلاب سبع شياة، وبات الرجل، وتفتح

---

(١) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوى، ٢٦٨، ٢٦٩.

قلبه للإسلام، فأصبح مسلماً، معلناً إيمانه بالله ورسوله، وأمر الرسول له فى الصباح بشاة فشرب حلابها ثم أخرى فلم يستتمه، وهنا قال الرسول ﷺ كلمته المأثورة: «إن المؤمن ليشرب فى معى واحد، والكافر ليشرب فى سبعة أمعاء» فما بين يوم وليلة استحال الرجل من شره ممعن فى التشبع، حريص على ملء بطنه، إلى رجل قاصد عفيف قنوع، ماذا تغير فيه؟.. تغير فيه قلبه، كان كافراً فأصبح مؤمناً، وهل هناك أسرع أثراً من الإيمان؟(١).

دور الإيمان فى تقويم السلوك وحل المشاكل:

إن بداية الحل لأى سلوك خاطئ يقوم به الفرد إنما يكون بالإيمان، سواء كان هذا الفرد صغيراً أو كبيراً، وسواء كان هذا السلوك عارضاً أو متأصلاً.

فالسلوكيات الخاطئة التى يمكن أن تصدر من المسلم على ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول:**

سلوكيات عارضة، وجديدة عليه لم تكن ملازمة له من قبل، مثل التكاسل عن أداء الصلوات فى المسجد، والنوم عن صلاة الفجر، والاهتمام الزائد بالمظهر الخارجى، والحرص الشديد على اقتناء الكماليات، وعدم تحرى الدقة فى الكلام، وكثرة اللغو والغيبة، وعدم تحرى الحلال والحرام فى سائر الأمور، والفتور فى أداء الواجبات الدينية، واستثقال قراءة القرآن وأداء النوافل، وضعف روابط الأخوة، وعدم القيام بحقوقها، والتقصير فى القيام بحقوق الآخرين كبر الوالدين وصلة الأرحام.

- **القسم الثانى:**

سلوكيات تعكس صفات متأصلة فى نفس الإنسان، إما أنها انتقلت إليه بالوراثة، أو أنه اكتسبها بكثرة تكرارها على مدار الأيام والسنين، حتى انتقلت إلى منطقة اللاشعور فى عقله، فاكتسبت القدرة على الفعل التلقائى، وذلك مثل البخل، والجبن، والأنانية، والحدة، وسرعة الانفعال، والحساسية، والتهور، والاندفاع السريع تجاه أى مؤثر، وقلة الصبر والتحمل، وعدم حب القيام بخدمة الآخرين.

- **القسم الثالث:**

سلوكيات تعكس أمراضاً أصابت القلب، مثل الكبر، والعجب، والغرور، والرياء، والنفاق، واتباع الشهوات.

---

(١) الإيمان والحياة د. يوسف القرضاوى ص: ٢٦٧.

فهذه هى الأقسام الثلاثة، التى يمكن أن تندرج تحتها جميع السلوكيات الخاطئة، التى قد تصدر من المسلم.

فما هو دور الإيمان معها؟

بالنسبة للقسم الأول فإن التشخيص المفترض لهذه الحالة عندما توجد أنها حالة عارضة من حالات الضعف النفسى.. والمراد بالضعف النفسى هو الضعف أمام رغبات النفس، والانهزام الدائم أمامها.

أو بعبارة أخرى فإن هذه الحالة تعكس ضعفاً فى إرادة الشخص، يجعله دائم التراجع أمام نفسه.

وعلاج مثل هذه الحالة هو تقوية الإرادة، إلى الحد الذى يجعلها تقاوم رغبات النفس، وتنتصر عليها.

ولكى تقوى إرادة الإنسان لابد له من وجود هدف واضح، يضعه نصب عينيه، ويسعى إليه ، وقضية يؤمن بها، وأمر يستشعر حاجته إليه فيسعى إلى تحقيقه.

فعندما يؤمن الإنسان بقضية ما فإنه يضحى فى سبيلها بكثير مما يحب، فما بالك لو كانت هذه القضية هى الإيمان: إيمان بالله، وطلب لمرضاته، وطمع فى جنته، وخوف من ناره، ماذا سيكون حال صاحبه؟

لذلك فإن العلاج الناجع لمثل هذه الحالات هو إيقاظ الإيمان بالله، والعمل على زيادته فى القلوب.

فإذا ما استيقظ الإيمان فإن الكثير والكثير من هذه السلوكيات تزول تلقائياً، دون الحاجة إلى وضع خطط لمعالجتها، ودون الحاجة إلى مواجهة صاحبها، ودوام ذمه، وتقريع سمعه بالكلام اللاذع، الذى قد يؤدى إلى نتيجة عكسية، بأن يتمادى فى أخطائه، ولا يبالى بالآخرين، ويفر من كل من يواجهه بهذه الأخطاء.

ويمكن أن نشبه صاحب هذه الحالة بشخص سليم، أصابته جرثومة سببت له مرضاً حاداً، غير مزاجه وتصرفاته، وظهرت عليه الكثير من الأعراض المصاحبة له.

هذا الشخص يحتاج إلى دواء يقوى جهاز المناعة لديه ليصل إلى الحد الذى يستطيع عنده أن يهزم هذه الجرثومة، ويقضى عليها، و بالقضاء عليها تختفى تلقائياً أعراض المرض.

يقول الحليمى – رحمة الله – تعليقاً على حديث رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً.....»[1]: فدل هذا القول على أن حسن الخلق إيمان، وأن عدمه نقصان إيمان[2].

إن صلاح الجوارح وماتظهره من أفعال يرتبط بصلاح القلب، كما قال معلم البشرية: «ألا إن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»[3].

كيفية تغيير الصفات:

فى الحالة الثانية من حالات السلوكيات المعوجة نجد صاحبها شخص قد ترك نفسه دون تهذيب، ولا تزكية مما ورثه عن أبويه، أو اكتسبه من البيئة المحيطة به، فنمت داخله هذه السلوكيات المعوجة، حتى رسخت فى نفسه، وانطلقت بصورة تلقائية دون أدنى مقاومة منه.

هذا الشخص غالباً ما يعترف بينه وبين نفسه – بل وأمام الآخرين فى بعض الأحيان – بما فيه، فهو قد يرى – على سبيل المثال – أنه جبان، ويتمنى أن يكون شجاعاً، وقد يرى أنه كسول، ويحلم بأن يصبح نشيطاً، وقد يشخص نفسه على أنه حسَّاس سريع التأثر بالكلمات والمواقف، ويتمنى أن يصبح طبيعياً فى تعامله مع الناس، وقد يرى أنه حاد الطباع سريع الغضب، ويتمنى أن يكون حليماً.

هذا الشخص لن يكتسب ما يريد من صفات حميدة، ولن يتخلى عما رسخ بداخله من صفات ذميمة إلا إذا تكلف فعل الصفة التى يريدها فترة طويلة، حتى تصير خلقاً راسخاً فيه، وتدخل منطقة اللاشعور.

يقول جودت سعيد: الإنسان الذى يحاول تعلم ركوب الدراجة الهوائية يعانى كثيراً فى بداية تعلمه، والمشكلة التى يعانى منها هى الكيفية اتى تحفظ له توازنه، ولكن بعد أن تترسخ لديه هذه المهارة «بطولة التدريب»، يستطيع أن يثق بلا شعوره، ويمكنه أن يتحدث دون أن يكون قلقاً من مشكلة توازنه.

---

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح، ح (١١٦٢).

(٢) شعب الإيمان، للبيهقى، ١/٦١..

(٣) متفق عليه.

هذا الذى يحدث عند ركوب الدراجة الهوائية، هو الذى يحدث عند تعلم قيادة السيارة، أو الكتابة على الآلة الكاتبة، وهو الذى يحدث معنا فى موضوع اللغة، ففى كل هذه الأحوال يتحول الأمر من الشعور إلى آلية فوق الشعور، أى إلى اللاشعور(١).

والمتدبر لآيات الله فى كتابه العزيز يجد أن تكرار المعانى بأساليب مختلفة سمة من سمات القرآن، حتى يترسخ المعنى فى اللاشعور، فيصبح علماً يقينيا عند متدبره.

فلابد من تكرار الفعل المراد اكتسابه فترة طويلة، حتى يصبح من الصفات الراسخة فى النفس، فمهما اقتنع الإنسان بأهمية النظام والترتيب فى جميع شئونه فإنه لن يتخلق بهذه الصفة إلا إذا تكلف ذلك فترة طويلة، حتى تصير عنده عادة.

يقول رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يُعطه، ومن يتق الشر يُوقَ»(٢).

ويقول رسول الله ﷺ: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله...»(٣).

فالنفس وما عودتها تتعود..

فالأمر – كما يقول جودت سعيد – لا يقتصر على وجود الفكرة فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تحويل الفكرة إلى إيمان يتدخل فى سلوك الإنسان.. والناس كثيراً ما يتحدثون عن العدل والمساواة، ولكنهم عند التطبيق يظهرون بالقيم العشائرية الأكثر عمقاً فى داخلهم(٤).

ويقول أبو حامد الغزالى: الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة، وهى تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداءً؛ لتصير طبعاً انتهاء، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح...

ويعرف ذلك بمثال: وهو أن من أراد أن يصير الحذق فى الكتابة له صفة نفسية – حتى

---

(١) كن كابن آدم، لجودت سعيد، ص: ٣٣، ٣٤.

(٢) حسن، انظر السلسلة الصحيحة ح (٣٤٢)، صحيح الجامع ح (٢٣٢٨).

(٣) جزء من حديث متفق عليه، البخارى ح (٦٤٧٠)، مسلم ح (١٠٥٣).

(٤) كن كابن آدم.

يصير كاتباً بالطبع – فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق، ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن.. فيتشبه بالكاتب تكلفاً، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً، كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً.

وكذلك من أراد أن يصير سخياً عفيف النفس، حليماً متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفاً، حتى يصير ذلك طبعاً له، فلا علاج له إلا ذلك(١).

إن المشكلة الحقيقة التي يعاني منها المسلمون هي انفصال العلم عن العمل، فترى الواحد منا عالماً بالحلال والحرام، والحقوق والواجبات، بل وبكثير من الفضائل والمستحبات، حافظاً للعديد من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، التي كثيراً ما يذكرها لغيره كلما سنحت الفرصة لذلك، فإذا ما نظرنا إلى واقعه، نجد أنه يختلف عما ينادي به؛ لأنه لم يروض نفسه ويعودها على ذلك، فالتربية تختلف عن التعليم، ولن يكتسب شخص صفة ما إلا بممارستها فترة طويلة حتى تصير طبعاً فيه.

دور الإيمان في التربية السلوكية:

إن إلزام النفس بالقيام بأفعال لم تتعود عليها من قبل فيه الكثير من المعاناة لها، وستحاول أن تتنصل من الالتزام بها بأية طريقة، من هنا تأتي أهمية وجود دافع ذاتي، وغاية تجعلها تتحمل هذه المعاناة.

هذا الدافع الذاتي هو الإيمان بالله.. فعندما يوجد في القلب وتزداد مساحته فيه، فإنه من شأنه أن يوجه صاحبه إلى كل خير.

ألا ترى أن رسول الله ﷺ في كثير من توجيهاته يسبقها بقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر...».

فالحبيب المصطفى ﷺ يريد أن يلفت انتباهنا إلى أن فعل الخيرات وترك المنكرات يحتاج إلى قوة دافعة، هي الإيمان والتقوى، وبدونهما تصعب علينا تلك الأعمال.

ومثال ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله

---

(١) إحياء علوم الدين، ٣/٩٦، ٩٧.

واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت »(١).

والقرآن كذلك ينبه على أن الإيمان هو القوة الدافعة لفعل الخيرات.

يقول تعالى: ﴿ ذلك يُوعَظُ به مَن كانَ منكُمْ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ويقول تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ورَسُولَهُ ولَوْ كانُوا آباءَهُمْ أوْ أبْناءَهُمْ أوْ إخْوانَهُمْ أوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمانَ وأيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الإيمان وأمراض القلوب:

فى القسم الثالث من أقسام السلوكيات الخاطئة نجد أن هناك مرضاً أو أمراضاً أصابت القلب، وتمكنت من النفس، وانعكس أثرها على السلوك، وهى حالات ليست بالكثيرة، وإن كانت لا يخلو منها أى مجتمع.

وعلاج مثل هذه الحالات ليس بالأمر الهين؛ لأن الأمراض قد تمكنت من القلب، واستولت عليه، ورسخت فى العقل، وانتقلت إلى منطقة اللاشعور، والعلم اليقينى الراسخ.

وأهم هذه الأمراض الكبر، والإعجاب بالنفس، واستشعار صاحبها أفضليته على من حوله.

هذا المرض العضال قد يكون من أسبابه طبيعة نشأة صاحبه فى أسرة تعتز بنسبها، أو جاهها وتراثها، أو قد يكون تميزه على أقرانه وكثرة مدح الناس له، مع كثرة إنجازاته، ونجاحاته المستمرة فى محيط عمله، من أسبابه كذلك، مما رسَّخ فى عقله تميزه عن الآخرين، فانطلقت تصرفاته بصورة تلقائية لتعكس هذه العقيدة، لذلك كان الكبر أكبر عائق يعوق العبد عن دخول الجنة، ففى الحديث « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر »(٢).

يقول الإمام أبو حامد الغزالى: وإنما صار الكبر حجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هى أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك

---

(١) صحيح، رواه الإمام فى مسنده وغيره، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح(٦٥٠١).
(٢) رواه مسلم.

الأبواب كلها، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الخلق وفيه العز، ولا يقدر على أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم وفيه العز... فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه(١).

إن الكبر مرض عضال، وأخطر ما فيه هو رفض صاحبه للحق، طالما أنه لم يكن هو مصدره، كما قال ﷺ: «الكبر مَن بطر الحق وغمط الناس»(٢).

إنه «الإدمان المستعصي الذي يمسك بخناق الناس، ويسد عليهم منافذ الفهم.. هو رفعهم لأنفسهم فوق مستواهم البشري، مما يجعلهم يعتقدون أنهم ليسوا مثل الناس، وأنهم مخلوقات أخرى، وهذا هو مذهب إبليس.. وهو أن ترى نفسك وعشيرتك وقومك ومذهبك... فوق الناس وأنكم أحباء الله وعياله المفضلون، سواء عملتم الصالحات أم لم تعملوها.. وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان منكم، وأن الآخرين ليسوا على شيء، الكبر هو الذي يجعلك تحتقر الآخرين وتحتفظ لنفسك بالامتيازات، وترفض أن يطبق عليك القانون الذي يطبق على البشر...»(٣).

أمثلة للمتكبرين:

وإذا ما أردت أن تعرف كيف يمكن أن يصنع الكبر بصاحبه، فانظر ماذا فعل بفرعون وحاشيته، لقد جاءتهم آيات واضحة من الله - عز وجل - لا تقبل الشك، فلماذا رفضوها وكذبوا موسى - عليه السلام - وحاربوه؟ يقول تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [النمل: ١٣-١٤].

لقد منعهم الكبر، وطلب العلو في الأرض من الإيمان، وكذلك كان شأن المكذبين، أمثال عاد قوم هود ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾ [فصلت: ١٥].

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٣٤٤، ٣٤٥.

(٢) صحيح، رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة، وأورده الألباني في صحيح الجامع ح (٤٦٠٨).

(٣) كن كابن آدم، ص: ٢٥.

والرجل الذى رآه الرسول ﷺ يأكل بشماله، فطلب منه أن يأكل بيمينه، لعلمه ﷺ أنه يقدر على ذلك، فرفض الرجل الانصياع لأمر الرسول ﷺ مدَّعياً أنه لا يستطيع، فقال له رسول الله ﷺ: «لا استطعت» ما منعه إلا الكبر(١).

هذا المرض عندما يتمثل فى شخص ما فإن علاجه غاية فى الصعوبة... هذه الصعوبة تكمن فى أن هذا الشخص عنده قناعة يقينية بأفضليته على غيره، فهو يقدس ذاته، ويعتقد فى إمكانياته، لذلك لا يتقبل النصح من أحد، ولا يعترف بمرضه مهما واجهه الآخرون به، فما أسهل تبرير دوافعهم لنصحه فى الاتجاه الذى يحافظ على قدسية ذاته.

ولكى تعالج مثل هذه الحالة لابد أن يحدث زلزال شديد فى تصورات هذا الشخص عن نفسه، فيهز الثوابت ويجعل سقف عزته وعلوه عن الناس يخر إلى القواعد.

لا بديل عن صدمة عنيفة، تشككه فى علمه الراسخ عن نفسه وإمكاناته، وتخرج عقيدته تجاه نفسه من اللاشعور... لابد من قوة خارجية تكسر كبرياءه.

يقول ابن القيم – رحمه الله –: فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه فى ذنب يكسره به، ويعرفه قدره، ويكفى به عباده شره، وينكس به رأسه، ويستخرج منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده، فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة، ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال(٢).

وإلى أن يحدث هذا يبقى وجوده فى جو إيمانى يخفف من آثار المرض، ويهيئه لمواجهة نفسه من الأهمية بمكان.

علاج الرياء:

علاج الرياء – وهو نوع آخر من الأمراض التى تصيب القلب – أخف بكثير من علاج الكبر، لأن سببه الرئيسى هو حب الدنيا والشهرة والرفعة فى أعين الناس.

وبقوة الإيمان، وشدة الخوف من الله يتم علاج مثل هذه الحالة.

يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ [البقرة: ٢٦٤].

---

(١) صحيح، أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع.

(٢) تهذيب مدارج السالكين، ص: ١٧٠.

فضعف الإيمان بالله، وعدم الخوف منه – سبحانه –، جعلت الشخص المصاب بهذا المرض يرائى الناس لتعلو منزلته عندهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٣٨].

فعلاجه إذن يكون بزيادة الإيمان والخوف من الله.

فالطريق إلى إخلاص العمل لله، وعدم انتظار أى جزاء دنيوى مقابل له هو شدة الخوف منه – سبحانه –، يقول تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٨ – ١٠].

فهؤلاء الأطهار عندما خافوا ربهم هذا الخوف الشديد، أطعموا الطعام مع حبهم له، دون انتظار أى مقابل لهذا الإطعام، ولو كان كلمة شكر أو ثناء.

وخلاصة القول أن السلوكيات المنحرفة عن الإسلام قد يكفى الإيمان لعلاجها تماماً مع بعض التوجيه البسيط، وهذا النوع يشكل الغالبية العظمى منها، أو تحتاج إلى الإيمان كقوة دافعة تعين صاحبها على تغيير ما بنفسه، وتحمل مرارة ترك المألوف وتغيير العادات.

ويبقى القسم الأخير حيث يشكل الإيمان بالنسبة إليه الجو الصحى الذى فيه تقل حدة المرض، ويتيح الفرصة لصاحبه، بمواجهة نفسه والاعتراف بمرضه، والعزم على علاجه.

خطورة عدم البدء بالإيمان:

رأينا فيما سبق أن الإيمان إما أن يكون هو العلاج لكثير من السلوكيات الخاطئة، وإما أن يكون هو الخطوة الأولى لعلاج الحالات المستعصية.

وكلنا يعلم أن الطبيب الناجح هو الذى يشخص المرض من خلال أعراضه، ولا يتعامل مع كل عرض على حدة، بل يصف الدواء الذى يقضى على السبب فتختفى الأعراض نتيجة لذلك وليس العكس.

فقد تختفى الأعراض، وتخف حدتها بالمسكنات، ويبقى المرض كامناً، ومزمناً، ينتظر اللحظة المناسبة للظهور مرة أخرى.

وكذلك القلب عندما يمرض بالهوى، فإن الأعراض تظهر على الجوارح، فإذا ما أردنا أن نعالج هذه الآثار فعلينا أن نعالج السبب، ونخرج الشهوة من القلب.

معنى هذا أننا إذا ما رأينا سلوكاً معوجاً، أو تصرفاً خاطئاً من شخص ما، فلا ينبغى أن نسارع بنقده، ومطالبته بتغييره، لأن هذا قد يؤدى به إلى العناد، ومحاولة إثبات صحة موقفه، وقد تأخذه العزة بالإثم، وبدلاً من أن يراجع نفسه، فإنه يعمل على تشويه صورة من حوله، كل هذا لأننا بدأنا بالفرع وتركنا الأصل.. تركنا المنكر الأكبر – وهو غلبة الهوى – وتعاملنا مع المنكر الأصغر.

وقد يقول البعض أنه لا يستطيع رؤية المنكر دون أن ينهى عنه... هذا صحيح فالنهى عن المنكر واجب شرعى، وله درجاته فى الإنكار، ولكن ما نود أن نلفت الانتباه إليه هو تغيير طريقة الإنكار، والتركيز على علاج السبب الذى أدى إلى ظهور هذا المنكر.

فلنبدأ بالمعروف، ولنعمل على إصلاح القلب لتنصلح الأعمال.

الباب الثانى

كيف نبدأ بالإيمان؟

تمهيد : شروط البداية

الفصل الأول : شدة الخوف من الله .

الفل الثانى : تدبر القرآن .

الفصل الثالث : قيام الليل والتضرع بالأسحار

الفصل الرابع : مداومة الإنفاق فى سبيل الله .

الفصل الخامس : الفكر والذكر

الفصل السادس : التعلق بالمساجد .

الفصل السابع : اغتنام مواسم الخيرات .

الفصل الثامن : الصيام .

الفصل التاسع : اصطحاب كتاب من كتب علم السلوك .

الفصل العاشر : الالتحاق بالمحاضن التربوية .

تمهيد

حول شروط البداية

تبين لنا أن الدافع الذى يدفع الإنسان إلى القيام بعمل ما إما الإيمان أو الهوى، وأن سلوك الفرد وتصرفات تعكس حجم كل منهما فى قلبه... وتبين لنا كذلك أنه فى حالة وجود مظاهر لضعف الإيمان عند شخص ما، فإن الأولى أن يتجه المصلحون إلى أصل الداء ليعالجوه، مصداقًا لقول الرسول ﷺ: «ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»(١).

فلقد دل هذا الحديث العظيم على أن صلاح الجوارح ناتج عن صلاح القلب، وفسادها كذلك ناتج عن فساده.

والمراد بصلاح القلب هو تحرره من الشهوات والشبهات، فيصبح قلبًا سليمًا.

وبداية إصلاح القلب إنما تكون بزيادة مساحة الإيمان بالله فيه، وارتفاع مستوى هذا الإيمان إلى الدرجة التى يعلو فيها على حجم الهوى داخله، ليتسلم منه مركز القيادة والإرادة فتنطلق الأعمال بسهولة ويسر، مستجيبة لأوامر قائدها.

أثر الجواذب الأرضية فى غفلة الإنسان:

لكى ندرك حجم الشحنة الإيمانية التى تحتاجها قلوبنا، علينا أن نتفكر فى خلق الإنسان، وأنه مركب من روح وطين... الروح نفخة من روح الله، والطين جزء من الأرض، يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١- ٧٢].

والمطلوب من الإنسان أن يتصل بالله وأن يستمسك بالعروة الوثقى التى تربطه بالسماء قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢] فإن فعل ذلك أصبح عبدًا ربانيًا منسوبًا إلى الله، متصلاً به... أما إذا ترك نفسه للأرض جذبته إليها.

وكلما ازداد ارتباطًا بالأرض، ضعفت صلته بالسماء.

---

(١) متفق عليه، سبق تخريجه.

وجواذب الأرض كثيرة، ذكرها القرآن فى أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]

فالمال، والبنون، والنساء، والذهب، والأراضى، والعقارات، والسيارات... كلها جواذب تجذب الإنسان إلى الأرض، وتعلق قلبه بها، فيفرح بحصوله عليها، ويحزن على فواتها منه.

وكلما زاد حبه لها قل حبه لنصيبه فى الآخرة، واشتدت غفلته عنها.

قال ﷺ: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على مايفنى»(١).

إن جواذب الأرض كثيرة من استسلم لها أضعفت صلته بالله- عز وجل- حتى يصل إلى مرحلة ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ومن تخلص منها كان العبد الربانى الموصول به- سبحانه- المنسوب إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]

إيقاظ القلب هو البداية:

إن البداية الصحيحة لسير القلب إلى الله إنما تكون باليقظة، لينتبه الغافل، ويفيق السكران، ويستيقظ الراقد، فيستشعر الجميع حاجتهم إلى الله، وإلى النجاة من حسابه.

يقول ابن القيم: فأول مناذل العبودية: اليقظة، وهى انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين... والله ما أنفع هذه الروعة وما أعظم قدرها وخطرها وما أشد إعانتها على السلوك فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو فى سكرات الغفلة، فإذا انتبه شمر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى، وأوطانه التى سبى منها، واعلم أن العبد قبل وصول الداعى إليه فى نوم الغفلة، قلبه نائم وطرفه يقظان...فأول مراتب هذا النائم: اليقظة والانتباه من النوم... وكأنها هى القومة لله المذكورة فى قوله: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ [سبأ: ٤٦]، فالقومة لله هى اليقظة من سِنَة الغفلة والنهوض عن ورطة الفترة... (٢).

---

(١) أخرجه أحمد والبزار والطبرانى وابن حبان والحاكم وصححه عن أبى موسى الأشعرى، وأورده الألبانى فى ضعيف الجامع.

(٢) تهذيب مدارج السالكين، ص: ١٠١.

فبدون هذه اليقظة يظل الراقد راقداً، والغافل غافلاً عما يحدث حوله، وعن المصير الذى ينتظره.

وبدونها تؤدى الطاعات بلا روح، فلا تُحدث فى القلب الأثر المطلوب، وإن تأثر بها فتأثر لحظى سرعان ما يزول.

وهذا يفسر ما نلحظه على أنفسنا، وعلى من حولنا، بأننا نكثر من الصلاة، ومن قراءة القرآن، ولكن لا نجد أثراً لذلك فى قلوبنا، وعلى سلوكياتنا.

وليختبر كل منا نفسه ليتأكد لديه هذا المعنى، ولينظر إلى الصلاة، وإلى الذكر، وقراءة القرآن... هل يكون حاله بعد القيام بها أحسن من حاله قبلها؟

إن المفترض أن تقوم هذه العبادات وغيرها بزيادة الإيمان فى القلب، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢].

فلكى تحدث الطاعات فى القلب الأثر المطلوب لابد من توافر الحياة فيه أولاً لتنطلق منه ثم تعود أثرها إليه بمزيد من الحياة والخشية.

فالبداية إذن ليست بمزيد من طاعات وأوراد تؤدى بالجوارح فقط، بل بعودة الحياة إلى القلب، وهذا يحتاج إلى شحنة إيمانية كبيرة تقهر الهوى وتحرر الإرادة من أسره.

من علامات حياة القلب:

لدخول نور الإيمان فى القلب علامات، يستطيع الفرد أن يفتش عنها، فإن لم يجدها فليعلم أنه مثلنا، يحتاج إلى بداية قوية تعيد الحياة لقلبه مرة أخرى.

- فعن ابن مسعود قال: قلنا يا رسول الله قوله تعالى: ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ** ﴾ [الزمر: ٢٢] كيف انشرح الصدر؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح»، قلنا: يا رسول الله وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله»(١).

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقى فى الزهد.

- ويبين الرسول ﷺ بعضًا من هذه العلامات فيقول: «أوثق عرى الإيمان: الموالاة فى الله والمعاداة فى الله، والحب فى الله، والبغض فى الله»(١).

- ومن علاماته: أن يكون الله ورسوله أحب إلى المرء مما سواهما، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]

- ومن علاماته أيضًا: كراهية الكفر بكل صوره، والخوف الشديد من الوقوع فيه، يقول الرسول ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلقى فى النار»(٢).

- ومن علامات حياة القلب أيضًا: عدم الخوف من أحد من المخلوقين، يقول تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

فالإيمان الصادق من شأنه أن يجعل صاحبه لا يخشى سوى الله، قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، ولا يتوكل إلا على الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

- ومن علاماته: الإذعان التام لحكم الشرع فى كل الأمور، يقول تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]

فالإيمان العميق هو الذى يحجز صاحبه عن ارتكاب المعاصى، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وليس معنى هذا أن المؤمن لا يخطئ ولا يرتكب إثمًا، بل هو بشر فيه ما يجذبه إلى الطين، ولكن يختلف عن غيره فى سرعة عودته، وتوبته إلى الله... فلا يتمادى فى الخطأ،

---

(١) صحيح، أخرجه الطيالسى، والحاكم، والطبرانى فى الكبير والأوسط عن ابن مسعود، وأورده الألبانى فى السلسلة الصحيحة ح (١٧٢٨)، وصحيح الجامع ح (٢٥٣٩).

(٢) صحيح، رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٣٠٤٤).

ولا يتعمد تكرار الذنب، يقول تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ١٧]

فهذه وغيرها علامات مادية فى ممارسات الإنسان وسلوكياته، وهى بجانب العلامة القلبية- التى أشرنا إلى بعض منها فى بداية هذا الكتاب- تُشكل مقياسًا دقيقًا، يستطيع الواحد منا أن يقيس نفسه عليه، ليدرك مدى حاجته لإيقاظ قلبه، وتقوية إيمانه.

شروط البداية:

لكى نبدأ فى هذا الطريق، لابد من توافر شرط هام فى أنفسنا، وعند من نريد له الخروج من دائرة ضعف الإيمان.

هذا الشرط هو: وجود رغبة أكيدة، وعزيمة صادقة لتغيير حاله، وصلاح قلبه، وعودة الحياة إليه، فهى التى ستدفعه بقوة إلى سلوك هذا الطريق بعد أن يتبين له ملامحه.

ومنطلق هذه الرغبة إنما يكون من قناعته بأنه لا يحمل قلبًا حيًا حياة حقيقية، فلا يغره كثرة أعماله بالجوارح دون حضور القلب فيها.

يقول ابن القيم: ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح، من غير حضور ولا مراقبة، ولا إقبال على الله: قليل المنفعة، دنيا وأخرى، كثير المؤنة، فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود، فإنه- وإن كثر- متعب غير مفيد، فهكذا العمل الخارجى القشورى بمنزلة النخالة، كثيرة المنظر، قليلة الفائدة، فإن الله لايكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها، وهكذا ينبغى أن تكون سائر الأعمال التى يؤمر بالحضور فيها والخشوع، كالطواف، وأعمال المناسك، ونحوها (١).

والقرآن يحوى العديد من الآيات التى تؤكد على أن الرغبة الأكيدة هى مفتاح البداية، يقول تعالى: ﴿ إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ [النساء ٣٥].

ويذكرنا القرآن أن الكون وإن كان مليئًا بالآيات التى تُذكر الناس بالله - عز وجل- وبأسمائه وصفاته، فإن هذا كله لن ينتفع به إلا من يريد الهداية، أما المستغنى عنها فلن تُحرك له ساكنًا، مهما كان عددها وإعجازها، يقول تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص: ١٥٣.

فالبداية: رغبة أكيدة، فعن أنس أن رسول الله ﷺ كان يعظ أصحابه فإذا ثلاثة نفر يمرون، فجاء أحدهم فجلس إلى النبى ﷺ، ومضى الثانى قليلاً ثم جلس، ومضى الثالث على وجهه، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بهؤلاء الثلاثة، أما الذى جاء فجلس فإنه تاب فتاب الله عليه، وأما الذى مضى قليلاً ثم جلس فإنه استحيا فاستحيا الله منه، وأما الذى مضى على وجهه فإنه استغنى فاستغنى الله عنه»(١).

مظاهر قوة الرغبة:

لقد بين القرآن مظاهر قوة الرغبة فى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ٨-١٠]، وهى:

- جاءك: بنفسه.
- يسعى متلهفًا من شدة الحاجة.
- وهو يخشى: يريد طوق النجاة الذى يقوده إلى بر الأمان.

ويمكن - كما أشرنا فى الفصل الأول- إنشاء وتوليد الرغبة فى النفوس، بدوام التذكير بمعني الربانية، والقلب الحى، وحاجاتنا الماسة إليه، وإمكانية تحقق ذلك الأمر، والوصول إلى الكنز، شريطة الاقتناع بذلك أولاً، والرغبة الصادقة ثانيًا، مع الاستعانة الدائمة بالله- عز وجل-.

وسائل إحياء القلوب:

سيلاحظ القارئ للصفحات التالية أن الوسائل المذكورة لإحياء القلوب ليست بجديدة عليه، فهى موافقة للكتاب والسنة... وكل ما حدث هو إعادة طرحها بشكل يغلب عليه الطابع العملى.

والمطلوب من الواحد منا السير المتوازى فى هذه الوسائل، وبقدر همته فى الأخذ بها تكون سرعته فى الوصول إلى كنزه بإذن العليم الخبير.

ومع أهمية السير المتوازى فى هذه الوسائل، تبقى ضرورة الاهتمام بالوسائل الثلاث الأولى، وهى: شدة الخوف من الله، وتدبر القرآن، وقيام الليل.

فهذه الوسائل الثلاث هى حجر الزاوية فى هذه المرحلة، وبدونها لن يكون هناك سير، فهى شكل الحد الأدنى المطلوب من العبد فى يومه، بجوار ما يؤدى من فرائض وطاعات.

---

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠ / ٢٣١، وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

الفصل الأول

شدة الخوف من الله - عزوجل -

لكى يستيقظ الراقد، ويفيق من سكرة الهوى، وتنقطع صلة قلبه بالأرض، لا بد من وجود مؤثر ضخم يزعجه وينبهه.

هذا المؤثر، وهذه الشحنة، هى الخوف من الله – عز وجل – خوفًا يصل بنا إلى درجة الانزعاج والفزع، فتتصدع به القلوب، وتشيب له الرؤوس، كما شيبت سورة هود وأخواتها الرسول ﷺ.

خوف يدفع إلى العمل والانتباه، لا خوف يهز المشاعر، ويرسل العبرات، ثم يمضى إلى حال سبيله، فنعود بعد رحيله إلى ما كنا عليه من نوم وغفلة، وهذا هو حال الكثير منا عندما يستمع إلى موعظة من المواعظ، أو يقرأ فى كتاب الرقائق، أو يسير فى جنازة، أو يرى حادثًا أمامه، وتفسير ذلك أن الخوف القادر على أن يصبح دافعًا للعمل لا بد له من مستوى ودرجة يصل إليها، فإن لم يصل إلى هذه الدرجة، يصبح التأثر به وقتيًا، ويزول أثره بعد فراق سببه.

الخوف هو بداية الدعوات:

و المتأمل لسير الأنبياء والمرسلين، وأصحاب الدعوات، يجدهم جميعًا قد بدءوا دعوتهم بتحذير قومهم من المآل الذى ينتظرهم إن استمروا على ما هم عليه، فهذا نوح – عليه السلام – ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ١، ٢].

وهذا إبراهيم – عليه السلام – ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٣ – ٨٧].

وانظر ماذا قال هود – عليه السلام – لقومه ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وكذلك فعل موسى – عليه السلام – مع فرعون ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٤١].

ولنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعد النبى ﷺ على الصفا، فجعل ينادى: «يا بنى فهر، يا بنى عدى» – لبطون قريش – حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ»، قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: «فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد»(١).

وفى رواية أخرى قال عليه الصلاة والسلام: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم من الله ضرًا ولا نفعًا، يا معشر بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم من الله ضرًا ولا نفعًا، يا معشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم من الله ضرًا ولا نفعًا، يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار، فإنى لا أملك لكِ من الله ضرًا ولا نفعًا، إن لكِ رحمًا، وسأبُلُّهَا ببلالها»(٢).

ولقد كانت هذه الوسيلة هى بداية دعوة إمام الدعاة فى هذا القرن – حسن البنا – عندما بدأ دعوته بالإسماعيلية – إحدى محافظات شمال شرق مصر – فوجد أن المساجد بها – على ندرتها – لا يؤمها إلا الشيوخ الفانون، وذوو العاهات، أما آلاف الشباب فلا مقر لهم بعد الخروج من عملهم إلا المقاهى... ولما كانت الدعوة محتاجة إلى الشباب، فلا بد إذن من الاتجاه إلى المقاهى.

دخل أحد المقاهى المكتظة، وعلى حين فجأة تناول جذوة من إحدى النراجيل، وألقى بها وهى ملتهبة من أعلى، فنزلت على إحدى المناضد وسط الجالسين، وتناثرت، فارتاع الحاضرون، وغادروا أماكنهم مذعورين، وتلفتوا يبحثوا عن مصدرها، فرأوا شابًا واقفًا على كرسى يقول لهم: إذا كانت هذه الجذوة الصغيرة قد بعثت فيكم الذعر إلى هذا الحد، فكيف تفعلون إذا أحاطت بكم النار من كل جانب، ومن فوقكم، ومن تحت أرجلكم، وحاصرتكم فلا تستطيعون ردها؟... وأنتم اليوم استطعتم الهرب من الجذوة الصغيرة،

---

(١) أخرجه البخارى ح (٤٧٧٠).

(٢) صحيح، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٧٩٨٣).

فماذا أنتم فاعلون فى نار جهنم ولا مهرب منها؟... وهكذا استمر فى موعظته، يضرب على أسماع مرهفة، وقلوب متفتحة، وأحاسيس فى أشد حالات اليقظة من أثر المفاجأة، فكان لها أعمق الأثر فى نفوس الحاضرين، واتجهوا إليه يسألونه عن نفسه، وعن عمله، وعن مقره، وبدأوا يلتفون حوله، ويغرمون بالاستماع إليه، وقد حببهم فيه أنه شاب، وأنه متطوع لا يتقاضى أجرًا، ولا يبغى لنفسه نفعًا، وتوالت كلماته فى المقاهى، حتى كثر الملتفون حوله، فبدأوا فى تنظيم اجتماعاتهم به، ولما ضاقت بهم المقاهى قرروا تكوين جمعية، واتفقوا على تسميتها: الإخوان المسلمون(١).

إن الخوف من الله هو الوسيلة الأكيدة لإيقاظ الراقدين، وتنبيه الغافلين، استخدمها الرسل أجمعون، والدعاة الصادقون، ففتح الله على أيديهم قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صمًا.

وهو الدواء الناجح لمن أسر الهوى قلبه، وغلب عليه حب الدنيا.

وهو البداية الحقيقية لسير القلب إلى الله - عز وجل - يقول ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»(٢).

عن إبراهيم بن شيبان قال: «الخوف إذا سكن القلب أحرق مواضع الشهوات فيه، وطرد منه رغبة الدنيا، وأسكت اللسان عن ذكر الدنيا»(٣).

وقال ذو النون: «الناس على الطريق ما لم يزُل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق»(٤).

ولم لا يكون على هذه الدرجة من الأهمية؟ وقد مدح الله أنبياءه عليهم السلام وأولياءه بمثل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال - سبحانه -: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

---

(١) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ لمحمود عبد الحليم ١/٦٦.

(٢) صحيح، صححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة ح (٢٣٣٥).

(٣) شعب الإيمان ١/٥١٣.

(٤) تهذيب مدارج السالكين ص: ٢٧.

وأثنى على ملائكته لخوفهم منه فقال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

ووبخ الكفار على غفلتهم فقال على لسان نبيه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]، قيل في التفسير: ما لكم لا تخافون عظمة الله(١).

إن الخوف من الله هو الذي منع ابن آدم أن يقتل أخاه، عندما همَّ بقتله ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

وهو الذي دفع الرجلين من بني إسرائيل إلى حث قومهما على الدخول على الجبارين، وقتالهم ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وهو الذي أعان القلة الباقية مع طالوت على الثبات، بل وهزيمة جالوت وجنوده ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وهو الذي يدفع العباد إلى إخلاص العمل لله، فلا يبتغون به جزاءً دنيويًا، ولا شكوراً ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، لماذا؟ ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠].

وهو من أهم صفات جيل التمكين ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وهو وصية الله – عز وجل – لنا ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وهو سبيل الفوز يوم القيامة ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وهو رأس الحكمة كما كان يقول عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –: خير الزاد

---

(١) شعب الإيمان ١/٤٦٣.

التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله(١).

ولقد بين القرآن أن التشخيص الصحيح لحال الكثير من المعرضين هو عدم الخوف من الآخرة، فليست القضية فى آية يرونها، أو معجزة يقتنعون بها، يقول تعالى: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ [المدثر: ٥٣].

فلو خافوها ما طلبوا هذه الطلبات ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ [المدثر: ٤٩ – ٥٣].

الخوف من الله مستهدف الطاعات:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالعباد يقتربون ويبتعدون عن ربهم بمقدار التقوى فى قلوبهم.

لذلك كان مستهدف الطاعات هو زيادة التقوى والخوف من الله – عز وجل – فى القلوب، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فليس المطلوب من العباد أن يؤدوا الطاعات بجوارحهم دون أن تتأثر بها قلوبهم، يقول تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، فالمراد من إراقة دماء الهدى فى الحج زيادة التقوى فى القلوب.

وكذلك الحال فى سائر العبادات، فعلى سبيل المثال فى الصيام يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وتلاوة القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

والسجود: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

فالتقوى هى مقصود العبادات، يقول تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾

---

(١) شعب الإيمان ١ / ٤٧٠.

[البقرة:١٩٧]، وفى ظلها يسهل قيادة القلوب، والإذعان إلى أوامر الله، يقول - سبحانه وتعالى -: ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

الخوف من الله أصل كل خير:

يقول أبو سليمان: أصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله(١).

ويقول أحمد بن عاصم الأنطاكى: قلة الخوف من قلة الحزن فى القلب، وإذا قل الحزن فى القلب خرب كما يخرب البيت، إذا لم يُسكن خرب(٢).

وقال مالك بن دينار: الحزن تلقيح العمل الصالح(٣).

وعن إبراهيم التيمى قال: ينبغى لمن لم يحزن أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة؛ لأنهم قالوا ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ [فاطر: ٣٤]، وينبغى لمن لم يشفق أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة؛ لأنهم قالوا ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ [الطور: ٢٦](٤).

من أحوال الخائفين:

لقد كان الخوف الشديد من الله - عز وجل - هو سمة الأنبياء والصالحين، يقول الرسول ﷺ: « إنى أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئط؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُعُدات تجأرون إلى الله تعالى »(٥).

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال أبو بكر - رضى الله عنه -: يا رسول الله، أراك شبت؟ فقال: « شيبتنى هود والواقعة والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت »(٦).

---

(١) شعب الإيمان ١/١١٥.

(٢) المصدر السابق ١/٥١٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) شعب الإيمان ١/٥١٧.

(٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن ح (٢٣١٢).

(٦) صحيح رواه الترمذى والحاكم، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٣٧٢٣).

ويقول عبد الله بن الشخير بن عوف – رضى الله عنه –: رأيت رسول الله ﷺ يصلى، وفى صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء(١).

ومر عليه الصلاة والسلام بإخوانه وهم حول قبر يدفنون رجلاً، فبدر من بين أيديهم، ثم واجه القبر حتى بل الثرى من دموعه، وقال: «أى إخوانى، لمثل هذا اليوم فأعدوا»(٢).

وهذا أبو الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – يقول عنه القرآن: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

يقول ابن القيم: ومن تأمل أحوال الصحابة – رضى الله عنهم – وجدهم فى غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن، فهذا الصديق – رضى الله عنه – يقول: وددت أنى شعرة فى جنب مؤمن، وذُكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذى أوردنى الموارد، وكان يبكى كثيراً ويقول: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، وقال قتادة: بلغنى أن أبا بكر قال: ليتنى خضرة تأكلنى الدواب(٣).

وهذا عمر – رضى الله عنه – قرأ سورة الطور، حتى إذا بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧] بكى واشتد بكاؤه، حتى مرض وعادوه.

وقال لابنه وهو فى الموت: ويحك ضع خدى على الأرض؛ عساه أن يرحمنى، ثم قال: بل ويل أمى إن لم يغفر لى – ثلاثًا – ثم قضى.

وكان – رضى الله عنه – يمر بالآية فى ورده بالليلة فتخيفه، فيبقى فى البيت أياماً يُعاد، يحسبونه مريضًا، وكان فى وجهه – رضى الله عنه – خطان أسودان من البكاء، وقال له ابن عباس – رضى الله عنهما –: مصر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل وفعل، فقال: وددت أنى أنجو، ولا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان – رضى الله عنه – كان إذا وقف على قبر يبكى حتى يبل لحيته، وقال: لو أننى بين الجنة والنار لا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى، لاخترت أن أكون رماداً، قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

---

(١) إسناده حسن، أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان وابن المبارك فى الزهد والحاكم وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبى.

(٢) حسن أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن البراء، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٢٦٥٩).

(٣) الداء والدواء لابن القيم ص: ٨٠.

وهذا أبو الدرداء – رضى الله عنه – كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسى يوم القيامة أن يقال لى: يا أبا الدرداء، قد علمت، فكيف عملت فيما علمت؟ وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم، ولوددت أنى شجرة تعضد ثم تؤكل.

وقرأ تميم الدارى ليلة سورة الجاثية، فلما أتى على هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١] جعل يرددها ويبكى حتى أصبح.

وقال رجل عند عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه –: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أكون من المقربين أحب إلى، فقال عبد الله: لكن ههنا رجل ود لو أنه إذا مات لم يبعث – يعنى نفسه –[١].

وبكى أبو هريرة – رضى الله عنه – فى مرضه، فقيل له: ما يبكيك يا أبا هريرة؟ قال: أما إنى لا أبكى على دنياكم هذه، ولكن أبكى لبعد سفرى، وقلة زادى، أصبحت فى صعود مهبطة على جنة ونار، فلا أدرى إلى أيهما يسلك بى[٢].

وقالت فاطمة بنت عبد الملك – امرأة عمر بن عبد العزيز – لمغيرة بن حكيم: يا مغيرة، إنه يكون فى الناس من هو أكثر صلاة وصيامًا من عمر، وما رأيت أحدًا قط أشد فرقًا من ربه من عمر، كان إذا صلى العشاء قعد فى المسجد ثم يرفع يديه، فلم يزل يبكى حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه، فلم يزل رافعًا يديه يبكى حتى تغلبه عيناه[٣].

وبكى يومًا فبكت فاطمة، فبكى أهل الدار، لا يدرى هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلى عنهم العبر، قالت له فاطمة: «بأبى أنت يا أمير المؤمنين، مم بكيت؟ قال: ذكرت يا فاطمة منصرف القوم بين يدى الله – عز وجل – فريق فى الجنة وفريق فى السعير، ثم صرخ وغشى عليه[٤].

---

(١) حياة الصحابة ٢ / ٣٧٢.

(٢) المصدر السابق ٢ / ٣٧٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥ / ١٣٧.

(٤) صلاح الأمة ٤ / ٢١٣.

وقال المروزى: كان أبو عبد الله – يعنى الإمام أحمد بن حنبل – إذا ذكر الموت خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعنى أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت هان على كل أمر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل، ما أعدل بالفقر شيئاً، ولو وجدت السبيل لخرجت حتى لا يكون لى ذكر(١).

لماذا الخوف من الله؟

قد يسأل سائل: لماذا كان خوف هؤلاء الصالحين، وهم على ما هم عليه من تقوى وصلاح؟

إن للخوف من الله – عز وجل – أسبابًا كثيرة، ومجالات متعددة، ينبغى أن نتفكر فيها بصورة مستمرة، ليستمر حزننا وخوفنا منه – سبحانه وتعالى –.

فمن الأمور التى تدفع إلى الخوف من الله – عز وجل –:

أولاً: الخوف من مغبة التقصير فى حق العبودية:

لقد خلقنا الله – عز وجل – وفضلنا على جميع خلقه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وأسجد الملائكة لأبينا آدم، وطرد إبليس وأخرجه من رحمته عندما رفض السجود له، وخلقنا فى أحسن صورة، وأمدنا بأسباب الحياة، وجعل علينا حفظة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، وتكفل لنا بالرزق ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وسخر لنا ما فى السماوات والأرض من شمس وقمر وجبال، وأنهار وبحار ودواب وأشجار ومعادن... ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، إنها نعم لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

فلماذا كل هذا؟

هل يمكن أن يكون الله قد خلقنا بلا غاية ولا هدف...؟ أخلقنا لنلهو ونلعب ونعبث ثم نموت؟

يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٥، ٢١٦.

هل خلق – سبحانه – هذه السماوات العظيمة البالغة الدقة والإبداع، والأرض وما فيها من شتى أنواع النعم... هل هذا كله بلا سبب؟ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤].

فلينظر وليتأمل ما فيه من عجائب، وكم من الأمور المعقدة التى ترتب بعضها على بعض كى يصل إليه هذا الطعام.

ولينظر إلى جسده وما فيه من إبداع... لينظر إلى القلب وكيف يضخ الدم المحمل بالأكسجين إلى جميع أنحاء الجسم لتستمر الخلايا فى أداء وظيفتها، ولو توقف عن الضخ لتوقفت الحياة.

ولينظر إلى العقل وما فيه من مراكز الإدراك والتفكير واتخاذ القرار... ولينظر إلى العين، وما فيها من دلائل الإبداع، وليسأل نفسه: كيف ينظر؟ كيف يسمع؟ كيف يتكلم؟ بل كيف يشم الروائح ويميز بينها؟

لينظر إلى جهاز المناعة وكيف يحميه من الأمراض، وليتفكر فى سائر أجهزة الجسم التى خلقها الله بهذه الدقة وهذا الإبداع...

لينظر إلى هذا كله ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ولينظر إلى الكون حوله... إلى الماء الذى ينزل من السماء، ولولا وجوده ما استمرت الحياة على ظهر الأرض ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

لينظر الإنسان إلى الشمس والقمر، ودقة دورانهما ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

الكل يسير وفق نظام محدد ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

لم تتأخر الشمس يومًا عن الإشراق، ولم يأت صيف قبل شتاء، ولم يستمر ليل ويحتجب نهار.

لينظر الواحد منا إلى هذا كله وغيره من النعم التى لا تعد ولا تحصى، ثم ليجب على هذا السؤال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

فالله هو الخالق وهو الرازق ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١١].

ولكن... لماذا خلقنا، وهيأ لنا هذا كله؟

ما المهمة التى من أجلها سخر لنا كل شيء، وتكفل بإمدادنا بأسباب الحياة؟

يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالغاية العظمى من خلقنا هى عبادته – سبحانه وتعالى – بإرادتنا واختيارنا.

إنها الأمانة التى أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وحملها الإنسان، أمانة الاستسلام الاختيارى لطاعة الله تعالى وعبوديته، فى ظل وجود النفس ونوازعها، والشيطان ووساوسه.

أخذ علينا جميعًا العهد بذلك ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ووضع فى فطرة كل مولود يخرج إلى الأرض ميلاً كبيراً إلى توحيده ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠].

جعل الكون كله يدل عليه – سبحانه وتعالى – ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

أرسل الرسل وأنزل الكتب لتذكر الناس بهذه الغاية ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

فما ظنكم برب العالمين:

يقول تعالى ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٧].

ما ظنكم أيها الناس به وقد ابتعدتم عنه، وتركتم عبادته، وانشغلتم بما ليس مطلوبًا منكم؟

ما ظنكم أن يفعل بكم وقد أعطاكم ما أعطاكم من نعم، فلم تقابلوا ذلك بالطاعة والشكر.

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نُصح لك جسدك، ونرويك من الماء البارد؟»(١).

إن الأمر جد خطير ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

يستدعى البكاء والنحيب ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩ – ٦١].

يقول ﷺ: «لو أن رجلاً يُجرُّ على وجهه من يوم وُلد إلى يوم يموت هرمًا فى مرضاة الله تعالى لَحقَرهُ يوم القيامة»(٢).

ومن منا يستطيع أن يفعل ذلك؟

يقول ﷺ: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم...»(٣).

إن الغاية من وجودنا فى هذا الكون هو عبادته وإقامة دينه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فإذا ما أعرضنا عن عبادته وتركنا طاعته فسيحق علينا العقاب ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧].

فهل بعد تقصيرنا فى شكر نعمه، وعدم قيامنا بحقوق عبوديته لا نخاف من نقمته؟

---

(١) صحيح، رواه الترمذى والحاكم، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٢٠٢٢).

(٢) حسن، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده، وغيره عن عتبة بن عبد، وأورده الألبانى فى السلسلة الصحيحة ح (٤٤٧)، وصحيح الجامع ح (٥٢٤٩).

(٣) صحيح أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن زيد بن ثابت، وأبو داود والطبرانى فى الكبير وغيرهم وأورده الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٤٤).

ثانيًا: الخوف مهابة لله - عز وجل -:

يقول تعالى على لسان نوح - عليه السلام -: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣].

فكلما اقترب العبد من مولاه، وتعرف على أسمائه وصفاته، ونعوت كماله، ازدادت هيبته وإجلاله وخوفه منه.

فهو سبحانه يداول الأيام بين الناس ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

يقلب الدول، فيذهب بدولة، ويأتى بأخرى، والرسل من الملائكة - عليهم السلام - بين صاعد إليه بالأمر، ونازل من عنده به، وأوامره متعاقبة على تعاقب الآيات، نافذة بحسب إرادته، فما شاء كان كما يشاء فى الوقت الذى يشاء، على الوجه الذى يشاء، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدم ولا تأخر، وأمره وسلطانه نافذ فى السماوات وأقطارها، وفى الأرض وما عليها، وفى البحار، وفى الجو، وفى سائر أجزاء العالم وذراته، يقلبها، ويصرفها، ويحدث فيها ما يشاء[١].

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

فهو سبحانه لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماوات، ولا فى قرار البحار، ولا تحت أطباق الجبال، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

يقول ابن القيم:

وهو العليم أحاط علمًا بالذى ... فى الكون من سر ومن إعلان

وكذاك يعلم ما يكون غدًا وما ... قد كان والموجود فى ذا الآن

---

(١) الوابل الصيب ص: ١٢٦.

وكـــــذلك علـم مـــــا لـم يكـن لو كـــان كـــيف يكون ذا إمكان

أحاط بكل شيءٍ علمًا، وأحصى كل شيءٍ عددًا، ووسع كل شيءٍ رحمة وحكمة، وسع سمعه الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، لا تختلف عليه ولا تشتبه عليه، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها، على كثرة حاجاتها، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ذوى الحاجات[1]، وسواء عنده من أسر القول ومن جهر به، لا يشغله جهر من جهر عن سمعه لصوت من أسر[2].

يقول تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

وتقول الصديقة عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها -: تبارك الذى سمع الأصوات كلها: إن امرأة تناجى رسول الله ﷺ أسمع بعض كلامها، ويخفى علىَّ بعض، إذ أنزل الله -عز وجل -: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١].

ولله در ابن القيم حين يقول:

وهو السـميع يرى ويسـمع كل مـا فى الكون من سـر ومن إعـلان
ولكل صـوت منه سـمع حـاضـر فـالسـر والإعـلان مسـتـويان
والسـمع منه واسع الأصـوات لا يخـفى عليـه بعـيـدها والدان[3]

الغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية.

أحاط بصره جميع المرئيات، فيرى دبيب النملة السوداء، فى الليلة الظلماء، يرى خلقها... تكوينها وأعضاءها وحركتها، يرى من البعوض جناحها فى ظلمة الليل.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

لو أن أهل سماواته وأهل أرضه وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم كانوا على قلب أتقى رجل منهم ما زاد ذلك فى ملكه شيئًا، ولو أن خلقه أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على قلب أفجر رجل منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئًا[4].

---

(١) الوابل الصيب.
(٢) موارد الظمآن ص: ٥٣.
(٣) النونية لابن القيم.
(٤) الوابل الصيب ص: ١٢٨.

ما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده، فلا توارى عنه سماء سماء، ولا أرض أرضا، ولا يحجب عنه ظاهر باطناً.

﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٣، ٤].

كل شيء هالك إلا وجهه، وكل ملك زائل إلا ملكه، وكل فضل منقطع إلا فضله، لن يُطاع إلا بإذنه ورحمته، ولن يُعصى إلا بعلمه وحكمته، يُطاع فيشكر، ويُعصى فيتجاوز ويغفر، كل نقمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل، أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وسجل الآثار، وكتب الآجال، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢، ٨٣][1].

أحق من ذُكر، وأحق من عُبد، وأحق من حُمد، وأولى من شُكر، وأنصر من ابتُغي، وأرأف من ملك، وأجود من سُئل، وأعفى من قدر، وأكرم من قُصد، وأعدل من انتقم، حلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن عزته، ومنعه عن حكمته، وموالاته عن إحسانه ورحمته.

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعى لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ... فبفضله، وهو الكريم الواسع[2]

أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأعز من كل شيء، وأقدر من كل شيء، وأعلم من كل شيء، وأحكم من كل شيء.

لا يعجزه أحد من خلقه، ولا يفوته، بل هو في قبضته أين كان[3].

تمت كلماته صدقًا وعدلاً... وجلّت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهًا ومثلاً، وتعالت ذاته أن تشبه شيئًا من الذوات أصلاً، ووسعت الخليقة أفعالهُ عدلاً، وحكمةً، ورحمةً، وإحسانًا، وفضلاً.

---

(١) الوابل الصيب ص: ١٢٩.

(٢) الوابل الصيب ص: ١٢٨.

(٣) موارد الظمآن ص: ٦١ - ٦٢.

صفاته كلها صفات كمال، ونعوته كلها نعوت جلال.

تعرف إلى عباده بأنواع التعرفات، وصرف لهم الآيات، ونوع لهم الدلالات.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

فإن كان هذا كله شيء يسيرٌ من صفاته، فما هو واجبنا نحوه سبحانه؟

يقول تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

يقول رسول الله ﷺ: «إن الله أذن لى أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض وعنقه مثنية تحت العرش، وهو يقول: سبحانك، ما أعظمك، فيرد عليه: لا يعلم ذلك من حلف بى كاذبًا»(١).

فاستشعار عظمة الله وجلاله، ومعرفة أسمائه وصفاته، تولد عند العبد خشية وخوفًا ومهابة من هذا الإله العظيم الذى خضع له كل شيء ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

ثالثًا: الخوف من عاقبة الذنوب:

وهذا مجال عظيم من مجالات الخوف من الله - عز وجل -.

فمن منا لم يذنب؟

من منا لم تقع عينه على ما حرم الله فى يوم من الأيام؟

ومن منا لم يسقط فى مستنقع الغيبة أو النميمة، أو السخرية أو الاستهزاء، أو الهمز أو اللمز؟

ومن منا لم يسيء الظن بمسلم طوال حياته؟

---

(١) حديث صحيح أورده الألبانى فى صحيح الجامع الصغير ح (١٧١٤) والسلسلة الصحيحة ح (١٥٠).

ومن منا لم يترك واجبًا من الواجبات تهاونًا وكسلاً؟

ومن منا لم يقصر فى حق والديه أو أقاربه أو جيرانه بل وفى حق زوجته وأولاده؟

ومن منا تحرى الحلال فى كل ما طعم طوال حياته؟

ومن منا لم يقصر فى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصح لكل مسلم؟

ومن منا لم يظلم أحداً ولو مرة فى حياته؟

ومن منا لم يتبع هواه على حساب شرع الله فى يوم من الأيام؟

ومن منا لم يقصر فى واجب نصرة المسلمين المضطهدين فى كل مكان؟

ومن منا لم يخلف وعداً ولم يكذب أبداً.

ومن منا لم يُعجب فى يوم من الأيام بعمله أو قوله أو إمكانياته أو طاعته؟

ومن منا لم يحسد غيره ولم يفرح بانحسار نعمة من النعم عنه؟

ومن منا لم يحتقر مسلماً أو يزدره؟

ومن منا ذبَّ عن عرض أخيه، ودافع عنه فى غيابه؟

ومن منا أدى جميع الأمانات، ووفى جميع الحقوق؟

ومن منا لم يغتر بعلمه أو طاعاته أو حسبه أو نسبه، وظن أن له عند الله منزلة بذلك؟

ومن منا لم يستشعر فى نفسه أنه أفضل من غيره عند الله فى يوم من الأيام؟

ومن منا لم يُمنَّ على غيره بخدماته أو إحسانه؟

ومن منا لم يفعل ذلك كله أو بعضه فى يوم من أيام حياته؟

فإن كنا لا نذكر شيئًا من الماضى فالله لم ينسَ ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

فأنا وأنت من ذنوبنا على يقين، ومن حسناتنا فى شك.

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجئ بالعود، والرجل يجئ بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها» (١).

وكيف لا نخاف من ذنوبنا، ورسول الله ﷺ يقول: «عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض» (٢).

أم كيف لا نخاف من ذنوبنا والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وكان من دعاء الرسول ﷺ: «أعوذ بك من شر ما صنعت» ويقول ﷺ: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا».

إن كلمة واحدة قد تهوى بقائلها فى النار سبعين خريفاً، يقول ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا فى النار» (٣).

فكم من هفوات وأعمال قمنا بها لا تساوى شيئاً فى أعيننا لكنها قد تكون عند الله عظيمة ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

يقول أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر، وإن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات (٤).

وعن بلال بن سعد قال: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر من عصيت(٥).

يقول ابن القيم: وها هنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس فى أمر الذنب، وهى أنهم لا يرون تأثيره فى الحال، وقد يتأخر تأثيره فيُنسى، وسبحان الله كم أهلكت هذه النكتة من الخلق؟ وكم أزالت من نعمة؟ وكم جلبت من نقمة؟ وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء،

---

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند والطبرانى فى الأوسط.

(٢) متفق عليه.

(٣) صحيح رواه الترمذى وغيره عن أبى هريرة، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (١٦١٨).

(٤) رواه البخارى.

(٥) الداء والدواء ص ١٠٠.

فضلا عن الجهال ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين، كما ينقض السم، وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل، وقد ذكر الإمام أحمد عن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ : اعبدوا الله كأنكم ترونه ، وعدوا أنفسكم فى الموتى ، واعلموا أن قليلا يغنيكم خير من كثير يطغيكم ، واعلموا أن البر لا يبلى ، وأن الإثم لا يُنسى .

هذا مع أن للذنب نقداً معجلاً لا يتأخر عنه ، قال سليمان التيمى : إن الرجل ليصيب الذنب فى السر فيصبح وعليه مذلته .

وقال ذو النون : من خان الله فى السر هتك الله ستره فى العلانية(١).

يقول تعالى : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ [العنكبوت : ٤٠]

ويقول عز وجل : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾

[النساء : ١٢٣]

والقرآن ملئ بالآيات التى تقرر هذه الحقيقة، يقول تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

[النحل : ٣٣ ، ٣٤]

فعندما تحل بالعبد أى مصيبة فعليه أن يوجه تفكيره إلى ذنوبه وكيف يتطهر منها، يقول تعالى : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]

ويقول عز وجل : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]

يقول ابن القيم : فما الذى أخرج الأبوين من الجنة ، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذى أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع ، وبُدِّل بالقرب بعدا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحا، وبالجنة ناراً تلظى، وبالإيمان كفراً، وبموالاة الولى الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش،

---

(١) الداء والدواء ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان ، فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينيه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه، ومقته أكبر المقت فأرداه، فصار قوّاداً لكل فاسق ومجرم ، رضى لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة .

وما الذى غرّق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟ وما الذى سلط الريح على قوم عاد، حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية...؟

وما الذى أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟

وما الذى رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعاً ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليها، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم؟

وما الذى أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظى؟

وما الذى أغرق فرعون وقومه فى البحر؟

وما الذى خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذى أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟ (١) .

يقول تعالى : ﴿ **فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٠]

عن جبير بن نفير قال: لما فُتحت قبرص فَرّق أهلها فبكى بعضهم إلى بعض ، رأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكى، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ قال: ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله ـ عز وجل ـ إذا أضاعوا أمره، بينما هى أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى (٢) .

---

(١) الداء والدواء ص ٨٤ – ٨٦ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ص ٨٦ .

وفى المسند من حديث ثوبان ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الرجل ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه» (١) .

ويقول بعض السلف : إنى لأعصى الله فأرى ذلك فى خُلُق دابتى وامرأتى (٢) .

والخوف من عاقبة الذنوب ينبغى أن يلازم المسلم فيدفعه إلى الفرار الدائم إليه سبحانه مردداً : «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك ، وبك منك...» .

هذا الخوف لا ينقطع أبداً حتى الموت، وسماع البشرى من الملائكة ﴿ **أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [فصلت : ٣٠]

فنحن لا ندرى ماذا تم مع الذنوب الماضية؟ هل غفرها لنا سبحانه أم لا؟ فلم يصل إلى أحد منا منشور من السماء بالغفران ، ولا توقيع بالأمان يقول تعالى :

﴿ **أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ** ﴾ [القلم : ٣٩ ، ٤٠]

فلتكن إذن وصية أويس القرنى نصب أعيننا قال ـ رحمه الله ـ : كن فى أمر الله كأنك قتلت الناس كلهم (٣) .

رابعاً : الخوف من غضب الله ـ عز وجل :

يقول تعالى : ﴿ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ٩٧ ـ ٩٩]

فحلم الله ـ عز وجل ـ سبق غضبه ، ومغفرته سبحانه وتعالى سبقت عقوبته ، ولكن هناك أفعال من شأنها أن تستدعى غضب الجبار .

يقول تعالى : ﴿ **فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [الزخرف : ٥٥]

فهؤلاء لما أغضبوا الله ـ عز وجل ـ بعصيانه وتكذيب موسى وما جاء به من الآيات انتقم

---

(١) رواه ابن ماجه ٤٠٢٢ وصححه الحاكم ١ / ٤٩٣ ووافقه الذهبى .

(٢) الداء والدواء .

(٣) صلاح الأمة فى علو الهمة ٤ / ١٩٠ .

منهم بعاجل العذاب ، فأغرقهم أجمعين (١) .

لقد وصلت معاصيهم إلى الدرجة التى استدعت غضبه ـ سبحانه ـ عليهم فانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ويقول تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢]

ولقد كان من دعاء الرسول ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك » (٢) .

وليس معنى ابتعاد الإنسان عن ارتكاب المعاصى أنه فى أمان من غضب الله ـ عز وجل ـ فقد يكون هذا الطائع صالحاً فى نفسه منعزلاً فى خلوته تاركاً المنكرات تشيع فى المجتمع دون أن يحاول إصلاحها .

يقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : ٢٥]

ذكر ابن أبى الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعانى ، قال : أوحى الله إلى يوشع بن نون ، إنى مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم ، قال : يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ قال : إنهم لم يغضبوا لغضبى ، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم (٣) .

وعن مسعر قال : إن ملكاً أمر أن يخسف بقرية فقال : يا رب إن فيها فلاناً العابد ، فأوحى الله ـ عز وجل ـ إليه أن به فابدأ فإنه لم يتمعر وجهه فىَّ ساعة قط (٤) .

وفى حديث زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ فقلت : يا رسول الله أنَهلك وفينا الصالحون؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » (٥) .

فترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الأسباب الرئيسية التى تستدعى غضب الله ـ عز وجل .

عن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ،

---

(١) التفسير الميسر ص ٤٩٣ .

(٢) صحيح رواه مسلم عن ابن عمر .

(٣) الداء والدواء ص ٩٠ .

(٤) الداء والدواء ص ٩١ .

(٥) متفق عليه .

ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» (١) .

وقال العمرى الزاهد : إن من غفلتك عن نفسك ، وإعراضك عن الله، أن ترى ما يسخط الله فتتجاوزه ولا تأمر فيه، ولا تنهى عنه خوفاً ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً(٢) .

ويحذركم الله نفسه :

عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد فى سبيل الله أنزل الله بهم بلاء لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم» (٣) .

وقد حدث زلزال بالمدينة على عهد عمر ـ رضى الله عنه ـ فقال: يا أيها الناس ما هذا؟ ما أسرع ما أحدثتم لئن عادت لا أساكنكم فيها .

وقال كعب: إنما تزلزل الأرض إذا عُمِل فيها بالمعاصى، فترعدُ فرقا من الرب ـ جل جلاله ـ أن يطلع عليها .

وكتب عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ إلى الأمصار . أما بعد، فإن هذا الرجف شىء يعاتب الله ـ عز وجل ـ به العباد، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا فى يوم كذا وكذا، فى شهر كذا وكذا، فمن كان عنده شىء فليتصدق به ، فإن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ** ﴾ [الأعلى : ١٤ ، ١٥] .

وقولوا كما قال آدم ـ عليه السلام : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

وقولوا كما قال يونس ـ عليه السلام ـ : ﴿ **لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٨٧](٤) .

وكان رسول الله ﷺ إذا كان يوم ذو ريح وغيم عُرف ذلك فى وجهه ﷺ فأقبل وأدبر،

---

(١) حديث حسن أخرجه الترمذى انظر صحيح الجامع ح (٧٠٧٠).

(٢) الداء والدواء ص ٩٦ .

(٣) رواه أبو داود بإسناد حسن (٣٤٦٢) .

(٤) الداء والدواء ص ٩٢ ، ٩٣ .

فإذا مُطرت سُرِّى عنه وذهب عنه ذلك ، فسألته عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى ذلك فقال: «إنى خشيت أن يكون عذاباً سُلِّط على أمتى» (١) .

وعن عبيد الله بن أبى النضر قال: حدثنى أبى أنها كانت ظلمة على عهد أنس، حتى كأن النهار مثل الليل، قال: فأتيته بعدما انجلت، فقلت : يا أبا حمزة هل كان يصيبكم مثل هذا على عهد رسول الله ﷺ ؟ قال: معاذ الله إن كانت الريح لتشتد ، فنبتدر إلى المسجد أينا يدخله أولا (٢) .

وعن أبى زكريا الخلقانى قال: كنا عند على بن بكار، فمرت سحابة فسألته عن شىء فقال لى: اسكت حتى تجوز هذه السحابة أما تخشى أن يكون فيها حجارة نُرمى به؟ (٣) .

خامساً : الخوف من الاستدراج :

يقول تعالى : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦]

فالله ـ عز وجل ـ ينذر عباده مرةً تلو مرة ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف : ١٦٨]

فإن لم يعودوا إليه فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد يفتح عليهم أبواب الدنيا ليزداد غرورهم وغفلتهم استدراجاً لهم ليظنوا أنهم على خير فيستمروا فيما هم عليه حتى تحين منيتهم وهم على هذه الحال .

يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام : ٤٢ ـ ٤٥] .

فأبواب الاستدراج كثيرة، ولا يستطيع أحد أن يجزم بأنه غير مستدرج .

يقول تعالى على لسان نبيه ﷺ : ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء : ١١١]

---

(١) متفق عليه .

(٢) شعب الإيمان ١/٥٤٧ .

(٣) المصدر السابق .

يقول ابن القيم: فعلى العبد أن يفرق بين النعمة التى يرى بها الإحسان واللطف، ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية، وبين النعمة التى يرى بها الاستدراج، فكم من مُستدرج بالنعم وهو لا يشعر، مفتون بثناء الجهال عليه مغرور بقضاء الله حوائجه، وستره عليه وأكثر الخلق عندهم أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح.. ذلك مبلغهم من العلم .

فليعلم العبد أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه مع الله فهو نعمة حقيقية، وما فرق عنه وأخذه منه فهو البلاء فى صورة النعمة، والمحنة فى صورة المنحة ، فليحذر إنما هو مستدرج ويميز بذلك أيضا بين المنة والحجة، فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى .

فإن العبد بين منة من الله عليه، وحجة منه عليه، ولا ينفك عنهما ، وذلك قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]

وقوله : ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : ١٧]

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهى منة، وإلا فهى حجة وكل حال صحبه تأثير فى نصرة دينه، والدعوة إليه فهو منَّة منه ، وإلا فهو حجة ، وكل قبول فى الناس وتعظيم ومحبة له اتصل به خضوع للرب ، وذل وانكسار ، ومعرفة بعيب النفس والعمل ، وبذل النصيحة للخلق فهو منَّة ، وإلا فهو حجة .

وكل حال مع الله تعالى ، أو مقام اتصل به السير إلى الله وإيثار مراده على مراد العبد فهو منَّة من الله ، وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به وإيثار مقتضاه، من لذة النفس به، وطمأنينتها إليه وركونها إليه فهو حجة من الله عليه .

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر، ويميز بين مواقع المنن والمحن، والحجج والنعم فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك (١) .

سادسًا : الخوف من محبطات العمل :

من مجالات الخوف أيضاً خَوْف العبد من أن يُحبط عمله وهو لا يشعر .

والأسباب التى تؤدى إلى إحباط العمل كثيرة ، منها :

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ١١٦ ، ١١٧ .

١- الرياء : يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ [البقرة :٢٦٤]

ولقد دخل عمر - رضى الله عنه - المسجد فرأى معاذ بن جبل - رضى الله عنه - يبكى عند قبر رسول الله ﷺ فقال : ما يبكيك؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة » (١) .

ولقد ضرب القرآن مثلاً للمرائى ، وحسرته عندما يجد أن ثمرة تعبه وسهره، وكده وإنفاقه للمال قد ذهبت هباءً منثوراً برجلٍ كانت له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار .. هذه الجنة الجميلة كانت - بلاشك - نتاج تعب منه وشقاء ، وسهر حتى وصلت إلى ما وصلت إليه .. وعندما جاء وقت التمتع بها بعد كبر سنه، ووجود الأولاد الصغار الذين لا يزالون بحاجة إلى النفقة والرعاية .. عندما جاء وقت جنى الثمار أصاب هذا البستان نار فاحترق عن آخره .

فأى حسرة تلك التى ستصيب صاحبه؟ وأى مرارة تلك التى سيشعر بها؟

كذلك المرائى .. فهو ينفق من ماله ووقته وصحته، ويبذل الجهد والعرق من أعمال ينتظر ثمرتها فى الآخرة .. هذا الشخص سيفاجأ يوم القيامة - يوم جنى الثمار - بالسراب بل وبالعذاب .. كل ذلك لأنه كان يقوم بهذه الأعمال طلباً للمنزلة عند الناس، وكى يقال عنه : عالم .. جواد .. منفق .. مجاهد .. متواضع .. إلخ .

يقول تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦٦]

٢- ومن محبطات الأعمال الإعجاب بالعمل

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث مهلكات وثلاث منجيات ، وثلاث كفارات ، وثلاث درجات » وذكر المهلكات فقال : « فأما المهلكات فشح

---

(١) أخرجه الطبرانى والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد .

مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » (١) .

وقيل لعائشة ـ رضى الله عنها ـ : متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت : إذا ظن أنه محسن.

(فذنب تذل به لديه خير من طاعة تُدل بها عليه، وإنك إن تبت نائماً وتصبح نادماً، خير من أن تبيت قائماً، وتصبح معجباً ، فإن المعجب لا يصعد له عمل ، وإنك إن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكى وأنت مدل ، وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين) (٢) .

٣- ومن محبطات الأعمال الشرك بالله :

فصور الشرك كثيرة قد يقع بعضنا فى واحدة منها فيحبط عمله ـ والعياذ بالله ـ يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨]

إنه أمر رهيب أن يسعى العبد ويسعى ويجمع حسنات كثيرة ، ثم يشرك بالله فيمحو به ما سبق من حسنات ليبدأ من جديد، كرجل صام طوال يومه وقبل غروب الشمس بدقائق أدخل جوفه قطرات من الماء .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥] .

٤- ومن محبطات الأعمال أيضاً المن بالعطايا :

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٦٤]

يقول السعدى ـ رحمه الله فى تفسير هذه الآية ينهى عباده ـ تعالى ـ لطفاً بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى، ويُستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة كما قال تعالى :

﴿ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ٢]

فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات، وفى هذه

---

(١) حسن رواه الطبرانى فى الأوسط، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٣٠٤٥) والسلسلة الصحيحة ح(١٨٠٢).

(٢) تهذيب مدارج السالكين ص ١٢٠ .

الآية مع قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٣] حثٌّ على تكميل الأعمال، وحفظها من كل ما يفسدها؛ لئلا يضيع العمل سدى (١) .

وسمع ابن سيرين رجلاً يقول لرجل : فعلت إليك وفعلت فقال له : اسكت فلا خير فى معروف إذا أحصى (٢) .

سابعاً : الخوف من عدم قبول الأعمال :

فالخوف من عدم قبول الأعمال بعد الاجتهاد التام فيها ينبغى أن يلزمنا ، فالواحد منا لا يدرى هل لاقى عمله القبول من الله - عز وجل - أم رُدَّ عليه .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾

[المؤمنون : ٦٠]

أى يعطون العطاء، وهم خائفون وجلون ألا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط (٣) .

ولقد سألت السيدة عائشة - رضى الله عنها - رسول الله ﷺ حول هذه الآية فقالت : يا رسول الله يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر وهو يخاف الله - عز وجل ؟ قال : « لا ، يا بنت أبى بكر يا بنت الصديق ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله - عز وجل » (٤) .

ولقد كان هذا هو حال الصحابة والصالحين فهذا أبو الدرداء - رضى الله عنه - يقول : لأن أستيقن أن الله قد تقبل لى صلاة واحدة أحب إلى من الدنيا وما فيها إن الله يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

ولقد دفعهم هذا الخوف إلى اتهام أنفسهم بالنفاق .

قال ابن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبى ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدى ص ١١٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣ / ١٠٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٣٤ .

(٤) رواه أحمد والترمذى .

وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول لحذيفة ـ رضى الله عنه ـ : أنشدك الله هل سمانى لك رسول الله ﷺ ـ يعنى من المنافقين؟ فيقول: لا، ولا أزكى بعدك أحداً.

وقال إبراهيم التيمى: ما عرضت قولى على عملى إلا خشيت أن أكون مكذب (١) .

ويقول يحيى بن معاذ : كيف يفرح المؤمن فى دار الدنيا؟ إن عمل سيئة خاف أن يؤخذ بها ، وإن عمل حسنة خاف ألا تقبل منه وهو إما مسىء أو محسن (٢) .

وقال ابن عون : لا تثق بكثرة العمل فإنك لا تدرى يقبل منك أم لا، ولا تأمن ذنوبك فإنك لا تدرى هل كُفِّرت عنك أم لا؟ لأن عملك عنك مغيب لا تدرى ما الله صانع به؟(٣) .

ثامناً : الخوف من الخذلان :

يقول تعالى : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة : ٤٦]

فالمسلم بحاجة إلى توفيق الله ـ عز وجل ـ فى كل أموره وأحواله فالبديل هو الخذلان، وهو أن يترك الله ـ عز وجل ـ الواحد منا لنفسه ولا يعينه عليها .. يتركه لجهلها وظلمها ، وحبها للراحة والشهوات .

فما من عبد يوكل إلى نفسه إلا خُذل .

يقول ﷺ فى دعائه : « .. وإنك إن تكلنى إلى نفسى تكلنى إلى ضعف ، وعورة ، وذنب وخطيئة وإنى لا أثق إلا برحمتك.. » (٤) .

وفى ليلة بدر كان من دعائه ﷺ : « اللهم لا تخذلنا » ..

وقال لفاطمة ـ رضى الله عنها ـ : « ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى إذا أصبحت وأمسيت: يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » (٥) .

---

(١) الداء والدواء ص ٨٣ .
(٢) شعب الإيمان ١ / ٥٠٤ .
(٣) الحجة فى سير الدلجة ص ٩٨ .
(٤) حسن، رواه أحمد والطبرانى والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ح (٦٥٧) .
(٥) صحيح، رواه النسائى والبزار بإسناد صحيح والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ح (٦٥٤) .

ويقول ابن القيم : من تفكر فى التوفيق والخذلان، وجد أنه محتاج إلى توفيق ربه فى كل نفس وكل لحظة، وطرفة عين وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى، ولو تخلى عنه طرفة عين لئل عرش توحيده ولخرت سماء إيمانه على الأرض فحينئذ يسأل الله توفيقه مسألة المضطر ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف ويلقى بنفسه بين يديه طريحاً ببابه، مستسلماً له ناكس الرأس بين يديه خاضعاً ذليلاً مستكيناً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا (١) .

(ولقد كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم، وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له، فإن النعم كلها منه.. وكان عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ شديد العناية بذلك، وكتب مرة إلى أهل الموسم كتابا يُقرأ عليهم، وفيه الأمر بالإحسان إليهم ، وإزالة المظالم التى كانت عليهم وفى الكتاب: ولا تحمدوا على ذلك كله إلا الله فإنه إن وكلنى إلى نفسى كنت كغيرى) (٢) .

فينبغى أن يلزمنا خوف دائم من الخذلان مع العمل على استجلاب التوفيق علنا ندخل فى رحمته ـ سبحانه ـ كما قال تعالى : ﴿ **وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾

[الأنبياء : ٧٥]

فكم من المرات أحسن الواحد منا استعداده للقيام بعمل ما، ونسى فى خضمّ اعتماده على نفسه وإمكاناته وحسن استعدادته .. نسى التوكل على الله ـ سبحانه وتعالى ـ والعمل على استجلاب توفيقه واستمطار رحمته.. فتكون النتيجة هى الخذلان .

تاسعاً : الخوف من سلب الإيمان :

وهل يأمن أحد مكر الله ؟ ﴿ **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾

[الأعراف : ٩٩]

ولو أمن أحد مكر الله لأمنه أبو الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ تأمل دعاءه ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٥]

ولأمنه نبى الله يوسف ـ عليه السلام ـ فقد كان يدعو ربه فيقول: ﴿ **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠١] .

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ٢١٨ .

(٢) شرح حديث « ما ذئبان جائعان » لابن رجب ص ٤٢ .

ولأمنه كذلك سيد المرسلين ﷺ فما أكثر ما كان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك»(١).

وكان من دعائه ﷺ: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت اللهم إنى أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلنى أنت الحى الذى لا يموت، والجن والإنس يموتون»(٢).

وكان أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ يقول فى آخر عمره: اللهم إنى أعوذ بك أن أزنى، أو أعمل بكبيرة فى الإسلام يقول بعض أصحابه: يا أبا هريرة ومثلك يقول هذا، أو يخافه، وقد بلغت من السن ما بلغت وانقطعت عنك الشهوات، وقد شافهت النبى ﷺ وبايعته، وأخذت عنه؟ قال: ويحك وما يؤمننى وإبليس حى؟

ودخل جبير بن نفير على أبى الدرداء بمنزله بحمص فإذا هو قائم يصلى فى مسجده، فلما جلس يتشهد جعل يتعوذ بالله من النفاق، فلما انصرف، قلت: غفر الله لك يا أبا الدرداء ما أنت والنفاق؟ قال: اللهم غفراً ـ ثلاثاً ـ من يأمن البلاء؟ من يأمن البلاء؟ والله إن الرجل ليفتن فى ساعة فينقلب عن دينه.

وكان يقول: ما لى لا أرى حلاوة الإيمان تظهر عليكم؟ والذى نفسى بيده لو أن دُبَّ الغابة وجد طعم الإيمان لظهر عليه حلاوته، ما خاف عبدٌ على إيمانه إلا منحه وما أمن عبدٌ على إيمانه إلا سُلبه.

وكان الحسن يقول: والله ما أصبح على وجه الأرض ولا أمسى على وجه الأرض مؤمن إلا وهو يتخوف النفاق على نفسه، وما أمن النفاق إلا منافق.

وقال ابن المبارك: إن البصراء لا يأمنون من أربع خصال: ذنب قد مضى لا يُدرى ما يصنع الرب فيه، وعمر قد بقى لا يُدرى ماذا فيه من الهلكات وفضل قد أعطى لعله مكر واستدراج، وضلالة وقد زينت له فيراها هدى، ومن زيغ القلب ساعةً ساعةً أسرع من طرفة عين قد يُسلب دينه وهو لا يشعر(٣).

لذلك كان من دعاء الراسخين فى العلم: ﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾ [آل عمران: ٨]

---

(١) صحيح أخرجه الترمذى والحاكم عن أنس وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٧٩٨٧).

(٢) صحيح أخرجه الإمام مسلم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (١٣٠٩).

(٣) شعب الإيمان للبيهقى ١/٥٠٦، ٥٠٧.

عاشراً : الخوف من سوء الخاتمة :

فلا يدرى أحد بماذا يُختم له فالأعمال بالخواتيم ، وحسبنا فى ذلك ما قاله رسول الله ﷺ : « ... فوالله الذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » (١) .

يقول ابن رجب : ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم.. بكى بعض الصحابة عند موته ، فسُئل عن ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين ، فقال: هؤلاء فى الجنة، وهؤلاء فى النار » ولا أدرى فى أى القبضتين كنت؟ وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق والخواتيم فكان يبكى ويقول: أخاف أن أكون فى أم الكتاب شقيا، ويبكى ويقول: أخاف أن أُسلب الإيمان عند الموت .

وقال سهل التسترى: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر، ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر ، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر (٢) .

وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار ، والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام لأنى لا أدرى ما يعرض لقلبى بين باب الحجرة وباب الدار .

وكان سهل يقول: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة ، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال: ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] (٣) .

حادى عشر : الخوف من لقاء الموت :

فالموت مصيبة ، قال تعالى : ﴿ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ [المائدة : ١٠٦] .

ولا سبيل لدفعه أو الفرار منه ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨]

---

(١) رواه البخارى ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه .

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٧٠ ، ٧١ .

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٥٥ ، ٢٥٦.

فينبغي على العاقل أن يتوقع قدوم الموت في أي لحظة كيلا يفاجأ به.

إن هذا الترقب الدائم لقدومه من شأنه أن يجعل الواحد منا دائم الحزن كثير الخوف مستعداً للرحيل في أي وقت، فنحن لا ندري متى سيتم اللقاء وأين سيكون مكانه وبأي حال سنكون عليها؟

ثاني عشر: الخوف من سكرات الموت وقبض الروح ومعرفة المصير:

يقول الإمام أبو حامد الغزالي: اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب، ولا هول، ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً أن ينغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده، لاسيما وهو في كل نفس بصدده، كما قال بعض الحكماء: كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك.. والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات، وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته، وفسد عليه عيشه، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل.

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح، فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم.. فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه، ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً، فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم؟ لا من عرق واحد، بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً فتبرد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، وكل عضو سكرة بعد سكرة، وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق عنه باب التوبة، وتحيط به الحسرة والندامة (١).

فكيف لا نخاف من سكرات الموت، ورسولنا ﷺ كان يقول: «اللهم هوِّن على سكرات الموت» (٢).

روى عن بعض الصالحين أنه كان يسأل كثيراً من المرضى: كيف تجدون الموت؟ فلما مرض قيل له: فأنت كيف تجده؟ فقال: كأن السماوات مطبقة على الأرض، وكأن نَفَسي يخرج من ثقب إبرة.

---

(١) إحياء علوم الدين ٥/٦١، ٦٢.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

وقال عمر ـ رضى الله عنه ـ لكعب الأحبار : يا كعب حدثنا عن الموت فقال: نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل فى جوف رجل ، وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب، فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى.

ومع الخوف من سكرات الموت يكون أيضاً الخوف من صورة ملك الموت ، ودخول الروع والخوف منه على القلب .

يقول القرطبى : وأما مشاهدة ملك الموت ـ عليه السلام ـ وما يدخل على القلب منه من الروع والفزع، فهو أمر لا يُعبر عنه لعظم هوله ، وفظاعة رؤيته ، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الذى يتبدى له ، ويطلع عليه (١) .

روى عن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ أنه قال لملك الموت: هل تستطيع أن ترينى صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر؟ قال: لا تطيق ذلك ، قال: بلى، قال: فأعرض عنى فأعرض عنه، ثم التفت فإذا هو برجل أسود، قاتم الشعر، منتن الريح، أسود الثياب، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان فغشى على إبراهيم ـ عليه السلام ـ ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى ، فقال: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه (٢) .

ومع الخوف الذى ينبغى أن يلازمنا من سكرات الموت وصرة ملكه فإن الأمر الخطير الذى من شأنه أن يزيدنا خوفاً على خوفنا هو: ظهور نتيجة امتحان الدنيا فى ذلك الوقت فهل سنكون ممن تقول لهم الملائكة : ﴿ **أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [فصلت : ٣٠]

أم سنكون...؟ ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾ [الأنفال: ٥٠]

قال النبى ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » فقالت عائشة: إنَّا لنكره الموت ، فقال: « ليس ذاك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان من الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله ، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضره الموت بُشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء

---

(١) التذكرة ١/١١٣ .

(٢) إحياء علوم الدين ٥/٦٥ .

الله وكره الله لقاءه »(١) .

فيا ترى هل سيكون الواحد منا ممن يقال له : أبشر يا ولى الله برضا الله وثوابه، أو أبشر يا عدو الله بغضبه وعقابه؟(٢) .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها - فذكر من طيب ريحها - ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك، وعلى جسد كنت تعمرينه فيُنطلق به إلى ربه ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل، وإن الكافر إذا خرجت روحه - فذكر من نتنها - ويقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل »(٣) .

ثالث عشر : الخوف من ضمة القبر ، وسؤال الملكين :

للقبر ضمة وضغطة لا ينجو منها أحد كما يقول رسول الله ﷺ : « إن للقبر ضغطة لو نجا أحد منها لنجا سعد بن معاذ »(٤) .

ولابد فيه من سؤال الملكين للعبد .

عن عطاء بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : « يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك ، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجران أشعارهما ويبحثان القبر بأنيابهما فتلتلاك (٥) وترتراك، كيف بك عند ذلك يا عمر؟ فقال عمر: ويكون معى مثل عقلى الآن؟ قال: « نعم » قال: إذن أكفيكهما (٦) .

والقبر - كما قال ﷺ - حفرة من حفر جهنم أو روضة من رياض الجنة (٧) ، ويعرض فيه على العبد مقعده فى الجنة أو فى النار، بالغداة والعشى .

---

(١) صحيح البخارى ١١ /٣٥٧ ، مسلم ٩ /١٧ .

(٢) التوهم للمحاسبى .

(٣) صحيح أخرجه مسلم ، انظر صحيح الجامع ح (٥٠٤) .

(٤) أخرجه أحمد ٦ /٥٥ ، ورجاله رجال الصحيح .

(٥) التلتلة : التحريك بعنف وشدة .

(٦) صحيح ابن حبان ح (٧٨٠) .

(٧) أخرجه الترمذى ٢٥٧٨ وقال حديث غريب .

عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار من أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه»(١).

رابع عشر: الخوف من أهوال يوم القيامة:

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]

إنه يوم عصيب: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]

فالجميع سيحشر بداية من أبى البشر حتى آخر إنسان تقوم عليه الساعة ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]

يقول المحاسبى: حتى إذا تكاملت عدة الموتى وخلت من سكانها الأرض والسماء، فصاروا خامدين بعد حركتهم فلا حس يسمع، ولا شخص يرى، وقد بقى الجبار الأعلى كما لم يزل أزلياً منفرداً بعظمته وجلاله، ثم لم يفجأ روحك إلا نداء المنادى لكل الخلائق.. فتوهم كيف وقوع الصوت فى مسامعك وعقلك، وتفهم بعقلك بأنك تُدعى إلى العرض على الملك الأعلى فطار فؤادك، وشاب رأسك للنداء.. فبينما أنت فزع للصوت، إذ سمعت بانفراج الأرض عن رأسك فوثبت مغبراً من قرنك إلى قدميك بغبار قبرك، قائما على قدميك شاخصاً ببصرك نحو النداء، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة، وهم مغبورون بغبار الأرض التى طال بها بلاؤهم، فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع.. فتوهم نفسك بعريك ومذلتك.. وغمومك وهمومك فى زحمة الخلائق، عراة حفاة صموتاً أجمعين، بالذلة والمسكنة، والخافة والرهبة فلا تسمع إلا همس أقدامهم.. قد نُزع الملك من ملوك الأرض، ولازمتهم الذلة والصغار، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً بعد عتوهم وتجبرهم على عباد الله ـ عز وجل ـ فى أرضه حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها، وجنها، وشياطينها، ووحشها، وسباعها، وأنعامها، وهوامها، واستووا جميعاً فى موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم، وطمست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها، وإطفاء نورها، فبينما أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم وأنت بعينك تنظر إلى هول ذلك، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام فيا هول انشقاقها فى سمعك، ثم تمزقت

---

(١) صحيح البخارى ٢/١١٢٤، مسلم ٨/١٦٠.

وانفطرت.. والملائكة قيام على أرجائها.. فأذابها ربها حتى صارت كالفضة المذابة، تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة ، كما قال الجليل الكبير :

﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن : ٣٧]

ويمضى قائلاً : ثم تطايرت الكتب فى الأيمان والشمائل، ونصبت الموازين فتوهم الميزان بعظمه منصوباً.. وقلبك واقف متوقع أين يقع كتابك فى يمينك أو شمالك.. فبينما أنت واقف مع الخلائق إذ نظرت إلى الملك وقد أمر أن يحضر الزبانية، فأقبلوا بأيديهم مقامع من حديد، فلما رأيتهم .. طار قلبك فزعاً ورعباً، فبينما أنت كذلك إذ نودى باسمك فنوديت على رؤوس الخلائق الأولين والآخرين: أين فلان بن فلان؟ .. فتوهم حين وقفت بالاضطراب والارتعاد.. وتوهم مباشرة أيديهم على عضديك، وغلظ أكفهم حين أخذوك، فتوهم نفسك محثوثة فى أيديهم.. حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فقذفوا بك بأيديهم، وناداك الله ـ عز وجل ـ بعظيم كلامه : ادن منى يا ابن آدم، فغيبك فى نوره فوقفت بين يدى رب عظيم، جليل ، كبير، كريم، بقلب خافق محزون.. كالحمل الصغير حين تلده أمه.. فكم لك من خجل وجبن من المولى الذى لم يزل إليك محسناً وعليك ساتراً؟ فبأى لسان تجيبه حين يسألك عن قبيح فعلك وعظيم جرمك؟ (١) .

خامس عشر : الخوف من الحبس فى النار :

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم : ٦]

فهل يا ترى سنمر على الصراط السوى ونتجاوزه أم سنقع فى النار .

يقول تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام : ٧٠] .

فياله من سجن، شر دار، وعذابها شر عذاب حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها من حديد، يهوى بها الحجر سبعين خريفاً وما يدرك قعرها، مسالكها ضيقة، وموارداها مهلكة يوقد فيها السعير ويعلو فيها الشهيق والزفير أبوابها موصدة، وعمدها ممدة فيها غضب الجبار

---

(١) التفكر من المشاهدة إلى الشهود ص ٨٠ ـ ٨٢ نقلاً عن التوهم للحارث المحاسبى بتصرف .

وسخطه ونقمته .

جثت الأمم على الركب، وتبين للظالم سوء المنقلب.

انطلق المكذبون إلى ظل ذى ثلاث شعب، وأحاطت بهم نار ذات لهب، سمعوا فيها الزفير والجرجرة، وعاينوا التغيظ والزمجرة، ونادتهم الزبانية ﴿ **ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ [الزمر : ٧٢] الهاوية تجمعهم ، والزبانية تقمعهم ﴿ **وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ** ﴾ [إبراهيم: ٤٩ ، ٥٠] والأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون بها، وبالنواصى والأقدام يؤخذون ، وبالحميم ثم بالنار يسجرون، يصب فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما فى بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد ، تكوى بها الجباه والجنوب والظهور، ذوقوا مس سقر طعامهم الزقوم والضريع، لا يسمن ولا يغنى من جوع شرابهم الغساق والحميم والماء الصديد، وهم فيها يصطرخون : ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** ﴾ [فاطر: ٣٧]

فيها يتمنون الهلاك والموت ولكن أين الفكاك والمفر ﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ** ﴾ [الزخرف : ٧٧] ثم يعلو شهيقهم ، ويزداد زفيرهم وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، فيعظم يأسهم ويرجعون إلى أنفسهم ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ** ﴾ [إبراهيم: ٢١]

إنها نار السعير.. لا ينام هاربها .

الخوف من النار فلذ أكباد الصالحين ﴿ **إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ** ﴾ [المدثر : ٣٥ - ٣٧]

يقول موسى بن سعد : كنا إذا جلسنا إلى سفيان رحمه الله كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه (١) .

وكان الحسن البصرى إذا تكلم كأنه يعاين الآخرة ، فيخبر عن مشاهدتها وكان إذا بكى فكأن النار لم تخلق إلا له، وإذا قدم فكأنما قدم من دفن حميم له، وإذا جلس فكأنما هو أسير يستعد لضرب عنقه (٢) .

---

(١) مجلة النور الكويتية ، العدد ١٨٠ نقلا عن خطبة للدكتور صالح بن حميد فى المسجد الحرام .

(٢) صلاح الأمة فى علو الهمة ٤/١٩٧ .

الوسائل العملية لاستجلاب الخوف من الله – عز وجل –

تأكد لدينا مما سبق أن سير القلب إلى الله – عز وجل– لن يبدأ إلا إذا استيقظ من نومه وأفاق من غفلته، وأن الوسيلة الأساسية لذلك هى استخدام سياط الخوف من الله – عز وجل – .. فإذا ما تم انتباهه، ودبت الحياة فى جنباته، وبدأ فى سفره، يصبح استخدام تلك الوسيلة بالقدر الذى يحافظ على استمرار صاحبه فى حالة دوام التذكر والإنابة.

معنى هذا أنه من المناسب التركيز على هذه الوسيلة فى البداية، إلى أن يتم الوصول للمستوى الذى أشرنا إليه.

فالقلب الخائف الوجل هو المؤهل للانتفاع ببقية الوسائل الأخرى، بل إنه مفتاحها. فالانتفاع بالقرآن يحتاج إلى هذا القلب، يقول تعالى : ﴿ **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** ﴾ [ق : ٤٥].

والصلاة كذلك : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾ [البقرة: ٤٥].

والمداومة على الصدقة تحتاج إلى هذا القلب، يقول تعالى : ﴿ **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ** ﴾ [التوبة: ٩٩].

والانتفاع بالآيات لا يكون إلا لقلب منيب، يقول تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ** ﴾ [هود: ١٠٢].

فجميع الوسائل التالية لهذه الوسيلة على قدر كبير من الأهمية، إلا أن الانتفاع بها مرهون بوجود هذا القلب.. نعم قد يتأثر الواحد منا بوسيلة من تلك الوسائل، إلا أنه تأثر لحظى، يزول بزوال المؤثر.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن تأثره هذا لن يغير حاله بالصورة المطلوبة.

لماذا؟

لأن الخائف رجل مرهف الحس تجاه كل ما من شأنه أن يزيل خوفه أو يخففه؛ لذلك فهو يستقبل أى موعظة أو نصيحة استقبال من يريد النجاة، فيحسن استخدامها، والتعامل

معها، ولا يتركها إلا إذا أخذ منها كل ما يمكنه أخذه لتأمين خوفه، كما قال تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٢]، أما الآمن فهو على عكس ذلك، لأنه لا يستشعر أن هناك خطرا قريبا منه.

تأمل قول الله – عز وجل –: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فالآيات واحدة لكن تأثيرها يختلف باختلاف أحوال المستمعين.

فلابد من التركيز على هذه الوسيلة فى البداية، وبصورة متواصلة، ولمدة معتبرة، وبعد ذلك ينتقى طرف منها للحفاظ على مستوى الخوف فى القلب.

يقول ابن القيم – رحمه الله –: يشتد افتقار العبد إلى العظة – وهى الترغيب الترهيب – إذا ضعفت إنابته وتذكره، وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره، لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب، ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهى، فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلى الأمر والنهى، والمعترض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب(١).

الوسائل العملية لاستجلاب الخوف:

تنقسم الوسائل العملية لاستجلاب الخوف من الله – عز وجل – إلى أربعة أقسام:

١– كثرة ذكر الموت.

٢– الاستماع إلى المواعظ والقراءة فى كتب الرقائق.

٣– إحصاء الذنوب.

٤– التفكر فى أسباب الخوف.

القسم الأول: كثرة ذكر الموت:

إن من أسباب الأمن الذى يلازمنا هو استشعارنا بأن يوم القيامة بعيد عنا، وأن العمر ما زال فيه بقية، فالكل ينظر إلى من هو أكبر منه سنا، ويمنى نفسه بالاستمرار فى الحياة حتى يبلغ ما بلغ غيره.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص: ٢٣٩، ٢٤٠.

عن أنس – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ «يهرم ابن آدم، ويشب فيه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر»(١).

لذلك فإن بداية الخروج من دائرة الأمن إلى الخوف يستلزم استشعار النفس أنها فى خطر من شيء يحتمل وقوعه فى أى لحظة هذا الشيء هو الموت قال ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت، فإنه لم يذكره أحد فى ضيق من العيش إلا وسعه عليه ولا ذكره فى سعة إلا ضيقها عليه»(٢).

فالموت يهدم اللذات لأنه (ينغصها بذكره حتى ينقطع ركون العبد إليها فيقبل على الله تعالى)(٣).

قال ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ أتيت النبى ﷺ عاشر عشرة، فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس، وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأشدهم استعداداً له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»(٤).

وكان عمر بن عبدالعزيز يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقالت صفية ـ رضى الله تعالى عنها ـ: إن امرأة اشتكت إلى عائشة ـ رضى الله عنها ـ قساوة قلبها فقالت: اكثرى ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها.

وروى أن رجلا سألها: ما دواء قسوة القلب؟ فأمرته بعيادة المرضى، وتشييع الجنائز وتوقع الموت(٥).

إن المستهدف من كثرة ذكر الموت هو انتقال هذه الحقيقة من منطقة الشعور إلى منطقة اللاشعور، أو منطقة العلم اليقينى عند الإنسان فتنطلق أفكاره وخواطره، وتصرفاته من هذا اليقين بتلقائية ودون تكلف.

---

(١) صحيح أخرجه الإمام مسلم وغيره وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٨١٧٤) والسلسلة الصحيحة ح (١٩٠٦).

(٢) إحياء علوم الدين ٥ / ٤٤ بتصرف.

(٣) حسن أخرجه البيهقى فى الشُعب عن أبى هريرة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع ح (١٢١١).

(٤) أخرجه ابن ماجه مختصرا وابن أبى الدنيا بكامله بإسناد جيد.

(٥) ذم الهوى لابن الجوزى ص ٦٢.

قال ابن حبان : العاقل لا ينسى ذكر شيء هو مترقب له، ومنتظر وقوعه من قدم إلى قدم ومن لحظة إلى شزرة ، فكم من مكرم من أهله معظم فى قومه مبجل فى جيرته لا يخاف الضيق من المعيشة ، ولا الضنك فى المصيبة ، إذ ورد عليه مذلل الملوك ، وقاهر الجبابرة ، وقاصم الطغاة ، فألقاه صريعا بين الأحبة مفارقا لأهل بيته وإخوانه لا يملكون له نفعا، ولا يستطيعون عنه دفعا، فكم من أمة قد أبادها الموت وبلدة قد عطلها ، وذات بعل قد أرملها ، وذى أب أيتمه، وذى إخوة أفرده .

فالعاقل لا يغتر بحالة نهايتها تؤدى إلى ما قلنا ، ولا يركن إلى عيش مغبته ما ذكرنا، ولا ينسى حالة لا محالة هو مواقعها، وما لاشك يأتيه إذ الموت طالب لا يعجزه المقيم ، ولا ينفلت منه الهارب .

يقول أبو جعفر البغدادى : قرأت على باب قصر بالسند :

نـــزل المـــوت مـــنـــزلا سـلـب الـقـــــوم وارتحـل

فقلت : ما هذا؟ فقالوا: مات أهل القصر كلهم فأصبحوا وهذا الكتاب على الباب لا يدرى من كتبه (١) .

وقال ابن السماك : بينما صياد فى الدهر الأول يصطاد السمك ، إذ رمى بشبكة فى البحر فخرج فيها جمجمة إنسان فجعل الصياد ينظر إليها ويبكى، ويقول: عزيز؟ فلم تترك لعزك، غنى؟ فلم تترك لغناك ، فقير؟ فلم تترك لفقرك ، جواد؟ فلم تترك لجودك شديد؟ فلم تترك لشدتك ، عالم؟ فلم تترك لعلمك يردد هذا الكلام ويبكى (٢) .

وأنشد الكريزى :

أمـوالنا لذوى الميـراث نجـمـعـهـا ودورنا لخـــراب الدهر نبنيـــهـــا
والنفس تكلف بالدنيـا وقـد علمت أن السـلامـة فـيـهـا ترك مـا فـيـهـا
فـلا الإقـامـة تنجى النفس من تلف ولا الفـرار من الأحـداث ينجـيـهـا
وكل نفس لا زور يصـبـحـهـا من المنيـة يومـا أو يمسـيـهـا(٣)

---

(١) روضة العقلاء ص ٢٨٥ .

(٢، ٣) روضة العقلاء ص ٢٨٦ .

فمن الحماقة أن يُذكر الموت ويستبعد الواحد منا نفسه أن يكون واحداً من الموتى فى أى لحظة (١) .

قال أبو الدرداء - رضى الله عنه - : إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم (٢) .

وكان عمر - رضى الله عنه - يقول : كل يوم يقال : مات فلان وفلان ولابد من يوم يقال فيه : مات عمر .

وكان على - رضى الله عنه - يقول : إذا كنت فى إدبار والموت فى إقبال، فما أسرع الملتقى (٣) .

(فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ، ومشاهدة المرضى هو الذى يجدد ذكر الموت فى القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يستعد، ويتجافى عن دار الغرور، وإلا فالذكر بظاهر القلب، وعذبة اللسان، قليل الجدوى فى التحذير والتنبيه، ومهما طاب قلبه بشىء من الدنيا فينبغى أن يتذكر فى الحال أنه لابد من مفارقته ، نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره، فأعجبه حسنها ثم بكى فقال : « والله لولا الموت لكنت بك مسروراً، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا » ثم بكى بكاء شديداً حتى ارتفع صوته) (٤) .

أثر تذكر الموت فى إصلاح النفوس :

يقول د. عمر الأشقر : إن لتذكر الموت أثر كبير فى إصلاح النفوس وتهذيبها، ذلك أن النفوس تؤثر الدنيا وملذاتها، وتطمع فى البقاء المديد فى هذه الحياة، وقد تهفو إلى الذنوب والمعاصى، وقد تقصر فى الطاعات فإذا كان الموت دائماً على بال العبد، فإنه يصغر الدنيا فى عينيه ، ويجعله يسعى فى إصلاح نفسه وتقويم المعوج من أمره (٥) .

قال الدقاق : من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة ، ومن نسى الموت عوجل بثلاثة : تسويف التوبة ، وترك الرضا بالكفاف ، والتكاسل فى العبادة (٦) .

---

(١) التوبة إلى الله للقرضاوى ص ٢٧٠ .
(٢) إحياء علوم الدين ص ٢٧٠ .
(٣) شرح رسالة المسترشدين ص ١١١ .
(٤) إحياء علوم الدين ٥ / ٤٨ .
(٥) القيامة الصغرى ص ٨١ .
(٦) التذكرة للقرطبى ١ / ٢٧ .

الوسائل العملية للتذكر الدائم للموت :

١- زيارة القبور :

فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة » (١) .

فليس للقلوب أنفع من زيارة القبور ، وخاصة إن كانت قاسية (٢) .

فبين القبور يتذكر الزائر أقرانه وأقاربه، ممن سبقوه إليها... (فيتذكر موتهم، ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم فى مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم، وأيتموا أولادهم ، وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم فمهما تذكر رجل رجلاً ، وفصل فى قلبه حاله وكيفية موته ، وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وتردده، وتأمله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت ، وانخداعه بمواتاة الأسباب ، وركونه إلى القوة والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع، وأنه كيف كان يتردد، والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه، وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين فى وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر، وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت فى وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملك ، وقرع سمعه النداء ، إما بالجنة وإما بالنار فعند ذلك ينظر فى نفسه أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم ، وستكون عاقبته كعاقبتهم) (٣) .

يقول ابن الجوزى : يا أخى إذا أردت أن تدرى كيف حالك من بعدك فاخرج إلى القبور، وانظرها وقد عَفَت ، ومثِّل قبرك بينها ثم انظر ماذا تحتاج إليه فى قبرك؟ فأكثر منه لطول مدتك فيه، وهو العمل الصالح . فأما ما سوى ذلك فما لك حاجة فى شىء من أمور الدنيا، فإنه يصير عليك وبالا فى قبرك وحسرة ، وانظر حالك الذى أنت عليه إن كان يصلح للموت والقبر فتمادى عليه ، وإن كان لا يصلح لهذين فتب إلى الله تعالى منها وارجع إلى ما يصلح (٤) .

---

(١) صحيح أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه وأبو داود وأحمد والنسائى والبيهقى وابن ماجه .

(٢) التذكرة ١ / ٣٢ .

(٣) إحياء علوم الدين ٥ / ٤٧ ، ٤٨ .

(٤) بستان الواعظين ص ٢٦٨ .

٢- تغسيل الموتى واتباع الجنائز :

عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال لى رسول الله ﷺ : «زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاوٍ موعظة بليغة، وصل على الجنائز ؛ لعل ذلك يحزنك ؛ فإن الحزين فى ظل الله يوم القيامة» (١) .

فلنتحين الفرصة لتغسيل الموتى ، والصلاة عليهم وحملهم إلى قبورهم وتلحيدهم فيها ، وحثو التراب عليهم فإن تكرار هذا من شأنه أن يجعل المرء على ذكر دائم للموت .

٣- خاطرة الموت :

وذلك بأن نجعل لنا كل يوم - أو كل بضعة أيام - وقتا نخلو فيه بأنفسنا ونجلس فى مكان هادئ بعيداً عن الضوضاء نتخيل فيه أن ملك الموت قد حضر لنزع الروح، ونتخيل كذلك أثر وقع هذا الخبر على الزوجة والأولاد، والأهل والأصدقاء وكيف سيكون رد فعلهم تجاه ذلك ، ونتخيل المغسل وهو يغسل الرأس والأطراف، والجسم كله ، ونحن مستسلمون ليديه حتى إذا ما انتهى من عمله حملنا الأهل والأصدقاء ، فصلّوا علينا ، وسارعوا بنا إلى المقابر فألحدونا ثم حثوا التراب، وانصرفوا.. ونتخيل كذلك مجئ منكر ونكير فى صورتهما الشديدة وكيف سيكون ردنا على أسئلتهما؟

يقول القرطبى : مثل نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات .. والأنين والغمرات، فمن قائل يقول : إن فلان قد أوصى، وإن فلان قد أحصى، ومن قائل يقول : إن فلان ثقل لسانه ، فلا يعرف جيرانه ولا يكلم إخوانه فكأنى أنظر إليك تسمع الخطاب ، ولا تقدر على رد الجواب، ثم تبكى ابنتك وهى كالأسيرة ، وتتضرع وتقول: حبيبى أبى من ليُتمى من بعدك؟ ومن لحاجتى؟ وأنت والله تسمع الكلام ولا تقدر على رد الجواب، فخيل لنفسك يا ابن آدم، إذا أخذت من فراشك إلى لوح مغسلك ، فغسلك الغاسل وألبست الأكفان، وأوحش منك الأهل والجيران ، وبكت عليك الأصحاب والإخوان ، وقال الغاسل : أين زوجة فلان تحالله؟ وأين اليتامى تركككم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبدا؟ (٢) .

٤- الاستعداد الفعلى لاستقبال الموت :

فالموت مصيبة هكذا سماه الله ـ عز وجل ـ فى كتابه العزيز : ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة : ١٠٦]

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبى .

(٢) التذكرة للقرطبى ص ٤٧ .

والعاقل من لا يتغافل عن هذه المصيبة الأكيدة، فقد يكون الاستعداد للمصيبة سبب نجاة وفوز، فالميت مصاب بمصيبة الموت كما أن أهله مصابون ، الميت مصيبته أن انقطع عمله، وضاعت فرصة استدراك ما فاته ، وأهله مصيبتهم فى ألم الفراق، وفى انقطاع منافع كان الميت سبباً فيها .

ولكن إذا استعد الإنسان لموته لم يعد موته مصيبة، بل قد يكون هو راحته وفوزه، وإذا استعد الإنسان لموت أحبابه هدى إلى الصبر والثبات وفاز من المصيبة بالأجر (١) .

والاستعداد الفعلى للموت يكون بالأمور الآتية :

(أ) كتابة الوصية ودوام مطالعتها لحذف أو إضافة :

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « ما حق امرئ مسلم له شىء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » (٢) ، قال ابن عمر : ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندى وصيتى .

وفى هذه الوصية يكتب الواحد منا ما يريده من أهله وأولاده، وكيف ينظمون حياتهم بعده وكيف يتصرفون فى أمواله .

(ب) التفكير فى صدقة جارية يعود نفعها إليه بعد موته .

(جـ) شراء الكفن ومشاهدته كل فترة .

(د) الجلوس مع الزوجة وترتيب أمر بيته بعد موته .

(هـ) المسارعة إلى تسديد الديون .

(و) دوام مطالعة الوصية لحذف أو إضافة جديد .

ولقد كان السلف الصالح - رضوان الله عليهم - يحرصون على الاستعداد الفعلى للموت فهذا حبيب أبى محمد الفارسى يقول لامرأته : إن مت اليوم فأرسلى إلى فلان يغسلنى، وافعلى كذا وكذا ، فقيل لامرأته : أرأى رؤيا؟ قالت : هذا يقوله كل يوم (٣) .

---

(١) فى رياض الجنة ١/١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) متفق عليه وهذا لفظ البخارى .

(٣) صفة الصفوة .

٥- كتابة الأمنيات :

فيتخيل الواحد منا أن ملك الموت قد أتاه ، وبدأ فى نزع الروح ، وأنه قد دخل إلى القبر وواجه الملكين بأسئلتهما ، وأنه قد فوجئ بأن تجهيز القبر يكون بالأعمال الصالحة ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** ﴾ [الروم : ٤٤].

فعلى قدرها يكون مستوى التجهيز فإما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النيران .

ويتخيل حسرته على ما فاته من أعمال البر، ويتخيل كذلك تمنيه العودة إلى الدنيا ليعمل صالحاً فيما ترك ، كما قال تعالى :

﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ** ﴾ [المؤمنون : ٩٩]

فيدون أمنياته التي يود العودة إلى الدنيا للقيام بها فى عباداته من صلاة وصيام، وذكر وإنفاق، وحج وعمرة ، وفى أمواله وعقاراته ، ومع أولاده ، وزوجته ، ووالديه ومع جيرانه ومع أرحامه ، ومع العمل للإسلام ، والدعوة إليه ، ويتذكر كذلك المظالم التى عليه ، والتي يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليتحلل منها ، وبعد أن يحصى أمنياته إحصاءً دقيقاً، عليه أن يتذكر أنه لازال فى الأمنية التى يتمناها جميع الموتى، فيبدأ بجدولة تلك الأمنيات ويضع خطة لتنفيذها ، ويراجعها أولاً بأول، ويتذكر دائماً أنه بالموت تنقطع صلته بالعمل .

كان يزيد الرقاشى يقول لنفسه : ويحك يا يزيد ، من ذا يصلى عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يترضَّى عنك ربك بعد الموت؟ (١) .

٦- تذكر ساعة الاحتضار ومشاهدة المحتضرين :

يقول ابن الجوزى عندما يفيق المحتضر عند موته فإنه ينتبه انتباها لا يوصف ويقلق قلقا لا يحد، ويتلهف على زمانه الماضي، ويود لو تُرِك كى يتدارك ما فاته، ويصدق فى توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف .

ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال فى أوان العافية حصل كل مقصود من العمل بالتقوى، فالعاقل من مثَّل تلك الساعة، وعمل بمقتضى ذلك فإن لم يتهيأ تصوير ذلك على حقيقته، تخايله على قدر يقظته فإنه يكف كفَّ الهوى، ويبعث على الجد، فأما من كانت تلك الساعة نصب عينيه كان كالأسير لها (٢) .

---

(١) التذكرة ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) صيد الخاطر ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

ويروى أن الحسن البصرى دخل على مريض يعوده، فوجده فى سكرات الموت، فنظر إلى كربه، وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذى خرج به من عندهم ، فقالوا له : الطعام يرحمك الله ، فقال: يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتى ألقاه (١) .

يقول القرطبى: فإن النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته ، وتأمل صورته بعد مماته مما يقطع عن النفوس لذاتها ، ويطرد عن القلوب مسراتها ، ويمسح الأجفان من النوم ، والأبدان من الراحة ويبعث على العمل، ويزيد فى الاجتهاد (٢).

٧- تذكر ساعة المرض ومشاهدة المرضى :

نادراً ما تجد إنساناً لم يمرض فى حياته قط فلو تذكر كل منا أحواله ساعة مرضه، من تغير طعم الحياة فى فمه ، وفتور همته ، وضعف عزيمته ، وتثاقله عن أداء الطاعات والواجبات، وعدم قدرته على القيام بأمور كثيرة كان يؤديها بسهولة ويسر وقت صحته وعافيته ثم يتذكر ساعة الاحتضار وهى أشد بكثير من ساعة المرض، ويتذكر أنه كما جاءه المرض بلا مقدمات فستأتيه ساعة الاحتضار كذلك ، وكما أنه كان يحمل فى مرضه بالساعة التى يسترد فيها عافيته فإنه سيتمنى ساعة الاحتضار العودة للدنيا للاجتهاد فى أعمال الآخرة .

ومع تذكره لساعة مرضه عليه أن يداوم على زيارة المرضى، ورؤية أصحاب العاهات ، وهذه وسيلة نافعة وميسرة فالمستشفيات مليئة بالمرضى، وبها الكثير من الحالات الحرجة والتى تنغص رؤيتها على الإنسان حياته وتريه الدنيا على حقيقتها .

٨- مجالس تقصير الأمل :

على كل منا أن يجلس مع نفسه جلسة هادئة ، وفيها ينظر إلى حياته نظرة موضوعية وليتتبع طموحاته وآماله وليسر وراءها ليعرف أين ستقف وأين ستنتهى؟

فمهما كانت طموحات المرء من زواج وأولاد وجاه وثراء وشهرة، ومهما نجح فى تحقيقها فلن يستطيع الحفاظ عليها ؛ لأن الموت قد يأتيه فى أى لحظة فيفرق بينه وبين ما أفنى حياته فى جمعه وتحصيله .

ثم إن هذه الأمانى وتلك الآمال والطموحات الدنيوية التى يسعى المرء وراء تحقيقها ماذا ستقدم له؟ المجد الشخصى والفخر فى الدنيا؟ كل هذا سينتهى بالموت، فكما قالوا: لا فخر لميت، فالكل فى التراب الغنى والفقير ، الرئيس والمرؤوس .

(١ ، ٢) التذكرة ١ / ٣٢ .

تأمل قول الرسول ﷺ : « أتانى جبريل ، فقال : يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس » (١) .

فما الفائدة إذن؟ ولم الركض وراء الدنيا بغية تحصيل أكبر قدر منها، ونحن بين لحظة وأخرى قد نفارقها، فلا المال الذى تعبنا من أجل تحصيله استمتعنا به ، ولا المنصب الذى حاربنا من أجل الوصول إليه ذقنا حلاوته، ولا الأولاد الذين ضحينا كثيراً من أجلهم نفعونا بشىء.

ألا ترى أنه لا يكاد يمر يوم إلا ونودع فيه أناسا كانوا بين أظهرنا، وكانت لهم آمال وطموحات مستقبلية مثلنا ، وفجأة جاءهم الموت وحال بينهم وبين أحلامهم .

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ، وكان ابن عمر - رضى الله عنهما - يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك (٢) .

وقال معروف لرجل : صل بنا الظهر، فقال : إن صليت بكم الظهر لم أصل بكم العصر، فقال : وكأنك تؤمل أن تعيش إلى العصر نعوذ بالله من طول الأمل (٣) .

عن عبدالله بن عمرو قال : مر النبى ﷺ وأنا أبنى خصا ، فقال لى : « يا عبدالله بن عمرو ما هذا؟ إن الأمر أسرع من ذلك » (٤) .

وعن رجاء بن حيوة عن أبى الدرداء قال : يا أهل دمشق استمعوا إلى قول أخ لكم ناصح قال : فاجتمعوا إليه ، فقال : مالى أراكم تبنون ما لا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون؟ فإنه كان قبلكم بنوا شديداً ، وأملوا بعيداً، وجمعوا كثيراً فأصبح أملهم غروراً ، ومجمعهم بوراً ، ومساكنهم قبوراً (٥) .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/٥٠٥ ، رقم الحديث ٨٣١ .

(٢) رواه البخارى .

(٣) صيد الخاطر ص ٢١٣ .

(٤) رواه البخارى فى الأدب المفرد ، والترمذى فى سننه ٢٣٣٥ ، وقال حديث حسن صحيح .

(٥) قصر الأمل لابن أبى الدنيا ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

وعن عبيد الله بن شميط قال : سمعت أبى يقول :

أيها المغتر بطول صحتهٔ ، أما رأيت ميتا قط من غير سقم؟

أيها المغتر بطول المهلة ، أما رأيت مأخوذاً قط من غير عدة؟

إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ما تقدم من لذاتك، أبالصحة تغترون؟ أم بطول العافية تمرحون؟ أم للموت تأمنون؟ أم على ملك الموت تجترئون؟

إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك ، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط؟» (١) .

وقال الحسن : إذا سرك أن تنظر إلى الدنيا بعدك ، فانظر إليها بعد غيرك (٢) .

القسم الثانى : من وسائل استجلاب الخوف :

الاستماع إلى المواعظ والقراءة فى كتب الرقائق :

عن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون .

(فالمواعظ سياط تُضرب بها القلوب ، فتؤثر فيها كتأثير السوط على البدن، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره حال وجوده . . لكن يبقى أثر التألم بحسب قوته وضعفه فكلما قوى الضرب كانت مدة بقاء الألم أكثر .

كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجالس سماع الذكر خرجوا عليهم السكينة والوقار .

وكان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها وكانوا إذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدون الدنيا شيئاً) (٣) .

تأثير المواعظ على الناس يختلف من شخص لآخر، فمنهم من يتأثر بها تأثيرا وقتياً ، فإذا ما انقضت الموعظة رجع إلى ما كان عليه من الغفلة، ومنهم من استعمل هذه الوسيلة مع غيرها من وسائل استجلاب الخوف فكانت كالسوط توقظ قلبه ، وتريه الدنيا على حقيقتها وهذا هو المراد .

---

(١) قصر الأمل لابن أبى الدنيا ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٢ .

(٣) لطائف المعارف ص ١٩ ، ٢٠ .

ولا ينبغى لأحد أن يتعلل بضيق الوقت فلا يواظب على حضور مجالس الذكر والوعظ، فهناك البدائل ومنها المواد المسجلة : السمعية منها والمرئية، والتى تتوافر فى كل مكان .

ومن هذه البدائل أيضاً : كتب الرقائق مثل : التذكرة للقرطبى، والتوهم للحارث المحاسبى، والداء والدواء لابن القيم ، والتبصرة لابن الجوزى، وبحر الدموع لابن الجوزى .

القسم الثالث : إحصاء الذنوب (كتابة) :

وهذا القسم يحسن القيام به بعد استخدام الوسائل السابقة، فالنفس لن تلين وتذل وتعترف بذنوبها إلا إذا كانت فى جو يذكرها بالآخرة .

والمجالات التى ينبغى للعبد أن يحصى من خلالها ذنوبه كثيرة ، فعلى الواحد منا أن يتفكر فى كل مجال منها ، ويحصى ذنوبه فيها ويسجل ذلك فى ورقة ، ويجعلها دائماً نصب عينيه .

يقول أحد الصالحين : متى تهت عن الطريق ، فارجع إلى ذنبك تجد الطريق .

فبالرجوع إلى الأوراق التى أُحصيت فيها الذنوب، تذل النفس وتنكسر ، ويتملكها شعور بالخوف الشديد من الله ـ عز وجل ـ مما يدفعها إلى حسن التوبة إليه .

مجالات الذنوب :

١- **معاصى الجوارح** : كمعاصى اللسان من غيبة، ونميمة، وكذب ، وسخرية، واستهزاء بالآخرين، ومعاصى العين كالنظر إلى ما حرم الله ، ومعاصى الأذنين، ومعاصى اليدين، ومعاصى القدمين، ومعاصى الفرج .

٢- **معاصى القلوب** : كالتكبر على الآخرين، وحسدهم، وبغيهم، والافتخار عليهم، وكالإعجاب بالنفس ، والزهو، والاختيال، وكالغرور، والنفاق ، والرياء. .

٣- **التقصير فى القيام بالحقوق** : كحق الوالدين ، والزوجة، والأولاد، والأرحام، وكالتقصير فى واجب الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الله ، ونصرة المسلمين المضطهدين فى شتى بقاع العالم .

٤- **التقصير فى حق الطاعات** : كقلة الخشوع فيها .

٥- **التقصير فى حق شكر النعم** : وهذا باب عظيم ينبغى للعبد أن يلجه ، كى يعلم مدى تقصيره فى جنب الله .

ولكى يدرك المرء حجم هذا التقصير لابد له من العمل على إحصاء نعم الله عليه فى شتى مجالات حياته ، ويسجلها ويبذل وسعه فى إحصائها إلى أن يصل إلى درجة العجز عن ذلك لكثرتها، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل: ١٨] .

وبعد أن يحصى ما أحصى من نعم، عليه أن يتذكر المقابل الذى قابل به هذا الكم الهائل من النعم.. ساعتها سيعلم مدى تقصيره فى جنب الله، ويتملكه شعور بالخوف الشديد منه ـ سبحانه ـ فينادى من أعماقه « أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

القسم الرابع : التفكر فى أسباب الخوف من الله ـ عز وجل :

إن الأسباب التي تدفعنا إلى شدة الخوف من الله ـ عز وجل ـ كثيرة ولقد أشرنا إلى خمسة عشر سبباً منها فى الصفحات السابقة علينا أن نتفكر فيها، ويفضل تخصيص وقت لكل مجال على حدة ، ولتكن هذه بمثابة مجالس تفكر يجلس الواحد منا فيها مع نفسه .

مثال ذلك : مجلس تذكر أهوال القيامة والسؤال أمام الله ـ عز وجل .

فيتخيل الإنسان نفسه وهو فى عرصات القيامة وقد نودى على اسمه وجاءت الملائكة لتحضره للعرض أمام الله ـ عز وجل .

ويتخيل حياءه منه سبحانه ، وخوفه الشديد عندما يرى أعماله وذنوبه التى كان قد نسيها . ويتخيل سؤال الله له ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : ٩٢].

ويستحضر قول رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وسيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمره » (١) .

وليجهز إجاباته عن الأسئلة التى سيُسأل عنها بين يدى الله .

فبماذا سيجيب إذا سأله المولى تبارك وتعالى عن صلاته ودرجة خشوعه فيها؟

وبماذا سيجيب إذا ما سأله عن وقته؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن زوجته وأولاده؟ وعن صيامه وزكاته وحجه؟ وعن حقوق الآخرين كالوالدين والأرحام والجيران؟

---

(١) متفق عليه .

وبماذا سيجيب إذا ما سأله عما فعله لرفع الظلم والاضطهاد عن المسلمين فى شتى بقاع العالم؟

وبماذا سيجيب إذا ما سأله عن واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟

وبماذا سيبرر فعله للمعاصى التى ارتكبها؟

وغير ذلك من الأسئلة التى من شأنها أن تُشعر الإنسان بالخجل والتقصير فى حق الله، ومن ثم المبادرة إلى التوبة والاستعداد للقاء الله كما قال تعالى :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾

[الكهف : ١١٠]

بين الخوف والرجاء :

فإن قال قائل: إن هذا القدر من الخوف إذا دخل القلوب فإن من شأنه أن يجعله البعض منا يترك الدنيا ويعتزل الناس، وقد يدفع البعض الآخر إلى اليأس والقنوط من رحمة الله وهذا من الكبائر .. وقد يقول آخر: وأين موقع الرجاء هنا والآيات كثيرة تتحدث عن سعة رحمة الله وعفوه ومغفرته؟

يجيب عن هذا التساؤل الإمام أبو حامد الغزالى فيقول: اعلم أن الأخبار فى فضل الخوف والرجاء قد كثرت، وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك فى أن الأفضل أيهما؟ وقول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد يضاهى قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يقال: الخبز أفضل للجائع، والماء أفضل للعطشان ، فإن اجتمعا نُظر إلى الأغلب، فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما مستويان وهذا لأن كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، والخوف والرجاء دواءان يُداوى بهما القلب ، ففضلهما بحسب الداء الموجود فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل.

وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل ، فنقول: أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصى، فأما التقى الذى ترك ظاهر الإثم وباطنه، وخفيه وجليه، فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه، ولذلك قيل لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا، وروى أن علياً ـ كرم الله وجهه ـ قال لبعض ولده:

يا بنى خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك ، ولذلك قال عمر - رضى الله عنه - : لو نودى ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نودى ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخفت أن أكون أنا ذلك الرجل، وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوى، فمثل عمر - رضى الله عنه - ينبغى أن يستوى خوفه ورجاؤه ، فأما العاصى إذا ظن أنه الرجل الذى استثنى من الذين أُمروا بدخول النار كان ذلك دليلاً على اغتراره (١) .

ويقول ابن القيم : القلب فى سيره إلى الله - عز وجل - بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قُطع الرأس مات الطائر، ومتى فُقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى فى الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف (٢) .

غايـة الخـوف :

إذا ما تبين أن الخوف إنما هو وسيلة لإيقاظ القلوب ، فما هى غايته وحدوده؟"

أما غاية الخوف فهى: طرد الدنيا من القلوب، وحرق مواضع الشهوات فيها تمهيداً لعودة الحياة إليها مرة أخرى .

ومن غايات الخوف أيضاً : تأهيل القلوب لتلقى أعظم موعظة ووسيلة لزيادة الإيمان ألا وهى القرآن الكريم والذى جعل - سبحانه وتعالى - الشرط الأساسى للانتفاع به هو وجود قلب خائف يقظ ، كما قال تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : ٤٥]

فالخوف وسيلة نستخدمها فى البداية لإيقاظ الإيمان وبعد ذلك نعتدل فى التعامل معها بعد حصول المقصود منها :

فالخوف المحمود : (هو الذى يحث على العمل ، ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) تهذيب مدارج السالكين ص ٢٧٢ .

عن الركون إلى الدنيا، ويدعوه إلى التجافى عن دار الغرور ، دون حديث النفس الذى لا يؤثر فى الكف عن المعاصى والحث على فعل الطاعات ، ودون الوصول إلى اليأس الموجب للقنوط) (١) .

خير الهدى هدى محمد ﷺ :

إن خير الهدى هدى الرسول الأمين ـ عليه الصلاة والسلام ـ فما ترك شيئاً يقربنا إلى الله إلا ودلنا عليه يقول تعالى : ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ [النور : ٥٤]

فهو خير الخلق وأكملهم وأعلمهم بربه فهديه هو خير الهدى، وخُلُقه هو أحسن الخُلُق وصحابته هم خير الأصحاب .

فإذا ما نظرنا إليه ﷺ فسنجد أنه أشدنا لله خشية، كما قال ﷺ : « أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له . . . » (٢) الحديث .

وتقول السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ إن رسول الله ﷺ كان إذا تغير الهواء، وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد فى الحجرة ويدخل ويخرج، كل ذلك خوفاً من عذاب الله (٣) .

وكان إذا ذهب ثلث الليل قام فقال : « يا أيها الناس اذكروا الله ، اذكروا الله، جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » (٤) .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين (٥) .

ويصف على بن أبى طالب الصحابة فيقول ـ رضى الله عنه ـ : لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً غُبراً، بين أعينهم أمثال ركب

---

(١) الإحياء ٤ / ٢٥٧ .

(٢) متفق عليه من حديث أنس ، البخارى ٣ / ٤٧٧٦ ، مسلم ١٤٠١ .

(٣) متفق عليه .

(٤) حسن رواه الترمذى وأحمد والحاكم عن أبى بن كعب، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع حـ (٧٨٦٣).

(٥) متفق عليه، البخارى ٨ / ٢١٠ ، ٢١١ ، مسلم ٢٣٥٩، والخنين: هو البكاء مع غُنّة واستنشاق الصوت من الأنف.

المعزى، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله فكأنى بالقوم باتوا غافلين ، فما رُئى بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم (١).

ومع هذا الخوف الشديد الذى لم يفارق قلوبهم كان رجاؤهم بربهم مثله أو أشد .. لقد عاشوا مع قوله تعالى :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩، ٥٠]

فتقلبت قلوبهم بين الخوف والرجاء، كما وصف ربهم من قبلهم بقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠]

ومثال ذلك ما كان يقوله يحيى بن معاذ: كيف أخافك وأنت كريم؟ وكيف لا أرجوك وأنت عزيز؟ فأنا بين خوف يقطعنى ، ورجاء يوصلنى فلا رجائى يدعنى أموت خوفاً ولا خوفى يتركنى فأحيا فرحاً (٢) .

ومع هذا الخوف المزعج ، والرجاء المقلق فإنهم مارسوا حياتهم بصورة طبيعية، فلم يعتزلوا الناس بحجة الانشغال بالنفس، ولم يتركوا الدنيا بل تزوجوا ، وأنجبوا وسعوا فى الأرض، وكان منهم التاجر، والعالم، والصانع.. كيف لا وسيد الخاشعين محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو الأسوة لنا جميعاً يأمرنا بالتوازن والاعتدال، وإعطاء كل ذى حق حقه يقول ﷺ : « ... فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا » (٣) .

لذلك لم يبلغنا عنهم ـ وهم خير جيل ـ أنهم انقطعوا لعبادة الله، وتركوا الانشغال بأمورهم المعيشية فإذا ما وجدوا من بينهم من يحتاج إلى ضبط فهمه، وإعادة ترتيب أولوياته، سارعوا إليه بالنصح والتوجيه، فهذا عبدالله بن مسعود قد بلغه أن رجالاً خرجوا من الكوفة ، ونزلوا قريباً يتعبدون فأتاهم ففرحوا بمجيئه ، فقال لهم : ما حملكم على ما صنعتم؟ قالوا: أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبد ، فقال عبدالله : لو أن الناس فعلوا ما فعلتم، فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتى ترجعوا (٤) .

---

(١) إحياء علوم الدين ٤ / ٢٨٤ .

(٢) صفة الصفوة .

(٣) رواه البخارى من حديث عبدالله بن عمرو .

(٤) الزهد لابن المبارك ص ٣٩٠ .

وبعث الحسن البصرى قوما من أصحابه فى قضاء حاجة لرجل ، وقال لهم : مروا بثابت البنانى فخذوه معكم، فأتوا ثابتاً، فقال: أنا معتكف، فرجعوا إلى الحسن فأخبروه. فقال: قولوا له: يا أعمش أما تعلم أن مشيك فى حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة بعد حجة، فرجعوا إلى ثابت فترك اعتكافه وخرج معهم (١) .

وسُئل عبدالله بن عمر -رضى الله عنهما- : هل كان الصحابة -رضى الله عنهم- يضحكون ، قال : نعم ، وإن الإيمان فى قلوبهم أمثال الجبال (٢) .

لقد كان الواحد منهم (يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه، ويدخل ببدنه فى مصالح دنياه، من اكتساب الحلال، والقيام على العيال، ويخالط الخلق فيما يوصل إليهم به النفع مما هو عبادة فى نفسه ، كتعلم العلم ، والجهاد ، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وهؤلاء خلفاء الرسل وهم الذين قال فيهم على -رضى الله عنه- : صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى.. ولم لا وهم تلاميذ سيد المرسلين، فلقد كان حاله ﷺ عند الذكر يتغير، ثم يرجع بعد انقضائه إلى مخالطة الناس، والقيام بحقوقهم فعن جابر -رضى الله عنه- : أن النبى ﷺ كان إذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم (٣) .

وسُئلت عائشة : كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا مع نسائه؟ قالت: كان كرجل من رجالكم إلا أنه « كان أكرم الناس خلقا، وكان ضحاكاً بساماً » .

فهذه الطبقة خلفاء الرسل عاملوا الله بقلوبهم وعاشروا الخلق بأبدانهم) (٤).

* * *

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٣٦٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٧ .

(٣) أخرجه مسلم .

(٤) لطائف المعارف ١٨ ، ١٩ .

الفصل الثانى

تدبر القرآن الكريم

القرآن الكريم هو أفضل وسيلة لزيادة الإيمان، يقول تعالى : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وهو العلاج الناجح لأمراض القلوب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

إنه موعظة من الله، وهل هناك أبلغ من الموعظة الربانية؟ وأيسر منها؟ وأكثر نفاذا إلى القلب والضمير؟

إن مواعظ البشر مهما سمت فى البلاغة والتأثير عاجزة عن أن تقارب الموعظة القرآنية أو تدانيها، فهى تولد الشفاء للصدور، والقضاء على ما فيها من أمراض وأدناس وأرجاس، ليعود لها نورها، وتعمل فيها فطرتها المؤمنة التى فطر الله الناس عليها، والقرآن قادر – بإذن الله – على أن يشفى الصدور والقلوب من مختلف أمراضها المادية والنفسية، أمراض الشبهات والشهوات، وأمراض الهوى والانحراف، وأمراض الشك والشرك، وأمراض القلوب والنفوس،والجوارح والحواس، وأمراض السياسة والاقتصاد، والأخلاق والاجتماع، والحياة والحضارة.. بهذا المفهوم الموسع الشامل يجب أن ننظر للشفاء القرآنى، وأن نتناوله بهذه السعة.. وصدق الله تعالى فهو القائل : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢][1].

الطريق إلى الله واضح فى القرآن:

فمن أراد السير إلى الله سيرا صحيحا مأمونا فعليه القرآن، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٧، ٢٨]، فهو النور الذى يبدد للسالك ظلمات الشك، وينير له طريق الهدى، يقول تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

---

(١) مفاتيح التعامل مع القرآن ص: ٢٨، ٢٩.

به يبصر العبد طريقه إلى الله ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، ويهتدى من خلاله إلى الرشد: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢].

من سار على نهجه فقد التزم صراط الله المستقيم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

وهو طريق الربانية: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، فهو حبل الله المتين، من استمسك به ارتفع إلى السماء، واقترب من مولاه.

والقرآن هو الدليل الأمين، والسائق الماهر، الذى يقود من يتبعه إلى الله، فى أقصر طريق، وبأقل مجهود، يقول رسول الله ﷺ «اللهم إنى عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى، ونور بصرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى»(١).

إنه النعمة العظمى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

يا حسرة من هجر القرآن:

مساكين هم من تركوا القرآن، وأجهدوا أنفسهم فى البحث عن طريق آخر يوصلهم إلى الله.. يا حسرتهم عندما يجدون أن ما كانوا يبحثون عنه كان فى متناول أيديهم.

لقد اجتهدوا فى وصف الطريق إلى الله دون سند شرعى يستندون إليه، فوضعوا أورادا واشارات وعبارات غامضة، ونسوا القرآن مع أن الطريق إلى الله واضح فيه كوضوح الشمس فى وسط النهار.

ولقد تأثر البعض منا بهؤلاء طمعا فى القرب من مولاه، فسار وراءهم، وتبنى مسلكهم، والتزم بأورادهم، وبعد مدة طويلة نظر تحت قدميه فوجد أنه لم يبرح مكانه.

---

(١) ابن حبان فى صحيحه ٢٣٧٢، والحاكم وصححه وهو فى مجمع الزوائد ١٠/١٣٦.

ويؤكد ابن القيم – رحمه الله – على هذا المعنى فيقول: عليك أولا بنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه فى وطن الآخرة، ثم تقبل به كله على معانى القرآن، واستجلائها، وتدبرها، وفهم ما يراد منه، وما نزل من أجله، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك.

فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة، موصلة إلى الرفيق الأعلى، آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب، ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر الطرق ألبته، وعليها من الله حارس وحافظ، يكلأ السالكين فيها ويحميهم، ويدع عنهم، ولا يعرف قدر هذا الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها(١).

قال خباب بن الأرت: تقرب إلى الله ما استطعت ، فإنك لن تقرب إلى الله بشيء أحب إليه من كلامه(٢).

فالقرآن له تأثير عجيب على القلوب الحية ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢](٣).

ولو أردنا مثالا لما يمكن أن يحدثه القرآن فى القلوب، لوجدنا جيل الصحابة أمامنا، وقد يقول قائل: إن التغير الضخم الذى حدث فى قلوب الصحابة، وانعكس على واقعهم، كان بسبب وجود رسول الله ﷺ بينهم.

يقول سيد قطب فى الرد على مثل هذا القول: لو كان وجود شخص رسول الله ﷺ حتميا لقيام هذه الدعوة، وإيتائها ثمراتها، ما جعلها الله دعوة للناس كافة،وما جعلها آخر رسالة، وما وكل إليها أمر الناس فى هذه الأرض إلى آخر الزمان..

ولكن الله – سبحانه – تكفل بحفظ الذكر، وعلم أن هذه الدعوة يمكن أن تقوم بعد رسول الله ﷺ، ويمكن أن يؤتى ثمارها، فاختاره إلى جواره، بعد ثلاثة وعشرين عاما من الرسالة، وأبقى هذا الدين من بعده إلى آخر الزمان.

إن النبع الأول الذى استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن.. فما كان حديث رسول الله ﷺ وهديه إلا أثراً من آثار ذلك النبع.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص : ٢٩٣ بتصرف

(٢) رهبان الليل ص: ٥٩١.

(٣) مفاتيح للتعامل مع القرآن ص: ٤٣.

فعندما سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن(١).

أما كيفية تعاملهم - رضى الله عنهم - مع القرآن، فيقول - رحمه الله -: إنهم فى الجيل الأول لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع.

لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولا يملأ به جعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله فى خاصة شأنه، وشأن الجماعة التى يعيش فيها، وشأن الحياة التى يحياها هو وجماعته، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقى الجندى فى الميدان (الأمر اليومى) ليعمل به فور تلقيه ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه فى الجلسة الواحدة، لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه، فكان يكتفى بعشر آيات يحفظها ويعمل بها، كما جاء فى حديث ابن مسعود - رضى الله عنه -(٢).

هذا الشعور.. شعور التلقى للتنفيذ.. كان يفتح لهم من القرآن آفاقا من المتاع، وآفاقا من المعرفة، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع، لقد كان ييسر لهم العمل، ويخفف عنهم ثقل التكاليف، ويخلط القرآن بذواتهم، ويحوله فى نفوسهم وفى حياتهم إلى منهج واقعى، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان، ولا فى بطون الصحائف، وإنما تتحول آثارا وأحداثا تحول خط سير الحياة. إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح: روح المعرفة المنشئة للعمل.

إنه لم يجئ ليكون كتاب متاع عقلى، وليس كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتاريخ، - وإن كان هذا كله من محتوياته - إنما جاء ليكون منهاج حياة.. منهاجا إلهيا خالصا(٣).

شروط الانتفاع بالقرآن:

فإن كان القرآن يصنع المعجزات، ويحيى القلوب، فما باله لا يفعل ذلك فى قلوبنا؟ إن القرآن لن يفعل فى قلوبنا كما فعل فى قلوب الصحابة، إلا إذا تعاملنا معه بنفس الشعور الذى تعاملوا به.

---

(١) انظر معالم فى الطريق ص: ١١، ١٢.

(٢) ذكره ابن كثير فى مقدمة التفسير.

(٣) معالم فى الطريق ص: ١٤، ١٥ بتصرف يسير.

(لابد أن نرجع إليه بشعور التلقى للتنفيذ والعمل، لا بشعور الدراسة والمتاع، نرجع إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون لنكون، وفى الطريق سنلتقى بالجمال الفنى فى القرآن، وبالقصص الرائع فى القرآن، وبمشاهد القيامة فى القرآن.. وبالمنطق الوجدانى فى القرآن.. وبسائر ما يطلبه أصحاب الدراسة والمتاع.

ولكننا سنلتقى بهذا كله دون أن يكون هو هدفنا الأول، لأن هدفنا الأول أن نعرف: ماذا يريده القرآن منا أن نعمله؟ التصور الكلى الذى يريدنا أن نتصوره؟ كيف تكون معرفتنا بالله؟ كيف تكون أخلاقنا وأوضاعنا ونظامنا الواقعى فى الحياة؟)(١).

ولكى يمكننا التعامل مع القرآن بهذه الطريقة، لابد من توافر شرط أساسى.. هذا الشرط هو: امتلاء القلوب بخشية الله - عز وجل-.

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

والآيات التى تؤكد هذا المعنى كثيرة، ففى الآيات الأولى من سورة البقرة يتضح هذا الشرط جليا ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].

ويقول تعالى: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١ - ٣].

فالقرآن هو القرآن، لكن العبرة بالقلوب التى تتعامل معه وتستقبله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

فلكى يتحقق المقصود من تلاوة القرآن لابد من وجود قلب حى يستقبله ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

فالقرآن هو أفضل موعظة وأعظم تذكرة، ولكن لمن؟

يقول تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠] ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، فالخائفون هم المنتفعون بالقرآن، فيزدادوا به خشية وخوفا.

---

(١) معالم فى الطريق ص: ١٨.

يقول تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١].

لذلك كان ترتيب هذه الوسيلة – مع أهميتها العظمى – فى المرتبة الثانية.

فالوسيلة الأولى تؤهل القلب لاستقبال كلام رب العالمين، فيقع مواقعه الصحيحة. فإذا ما فارق الخوف القلب، صعب على صاحبه الانتفاع بالقرآن، تأمل قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فالآيات هى الآيات.. ولكنها تكون بمثابة البيان الذى تستقبله العقول عندما تخاطب عموم الناس، وتكون هدى وموعظة تستقبلها القلوب عندما تخاطب المتقين.

فعلينا إذا ما أردنا أن ندخل إلى عالم القرآن – الحقيقى – أن نهيئ قلوبنا لاستقباله بزيادة مستوى الخوف من الله – عز وجل – فيها.

وقد يقول قائل: إنه يقرأ القرآن دون أن يكون متحققا بهذا الشرط على الوجه الذى أشرنا إليه، مع ذلك فقد يرد على خاطره بعض المعانى من الآيات التى يتلوها.

إن التأثر الوقتى بالقرآن شىء، والعمل به شىء آخر.. فالمقصد من تلاوة القرآن هو العمل به.

ولكى تتحول المعانى المستخرجة من الآيات إلى واقع عملى، لابد أن يكون القلب الذى يتعامل معها مستشعرا حاجته إلى العمل بها.

فالخائف شخص مرهف الحس، يعطى سمعه لكل نصيحة من شأنها أن تشعره ببعض الأمان.. أما الآمن فعكس ذلك.

والمثال على ذلك هو الطالب، كيف يكون شعوره فى أول العام الدراسى وفى آخره؟ فهو فى أوله يفكر فى اختبار نهاية العام، ولكن بشعور يغلب عليه الأمان لطول المدة المتبقية على الاختبار.. هذا الطالب غالبا ما تجده فى هذا الوقت قليل المذاكرة، غير عابئ بتوجيهات من حوله، ونصائحهم له؛ لعدم استشعاره حاجته الماسة لذلك.

وكلما اقترب موعد الاختبار يزداد خوفه من الرسوب فيه، فيزداد انتباهه، وتطول فترات مذاكرته، وينصت بسمعه وعقله لكل نصيحة أو توجيه يتلقاه من أى إنسان.. كل ذلك بسبب زيادة خوفه من الاختبار.

نعم.. قد ينتبه في أول العام لنصيحة البعض من حوله، ولكنه لا يحولها إلى عمل؛ لعدم قلقه، وقلة خوفه.

من هنا نقول: أننا إذا أردنا أن نستفيد بالقرآن، ونجعل توجيهاته واقعا عمليا في حياتنا، فلابد أن نقبل عليه بقلوب خائفة وجلة، تتوقع الموت في أي لحظة، يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

يقول ابن القيم: مدار السعادة وقطب رحاها على التصديق بالوعيد، فإذا تعطل من القلب التصديق بالوعيد، خرب خرابا لا يرجى معه فلاحا ألبتة.

والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنذر لمن صدق بالوعيد، وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار والمنتفعون بالآيات دون من عداهم، قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥](١).

كيف نحيا بالقرآن:

فإذا ما استوفينا شرط الانتفاع بالقرآن علينا أن نحسن استقباله، فنعطي له آذاننا وعقولنا وقلوبنا، ونتعامل معه على أننا المخاطبون به.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ويؤكد على هذا سيد قطب – رحمه الله – فيقول: إن هذا القرآن ينبغي أن يقرأ، وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي، وينبغي أن يتدبر على أنه توجيهات حية، تتنزل اليوم، فتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل، لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل، أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود.

ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا، كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شئون حياتها الواقعية.. وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد، وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي سنجد كلماته وعباراته توجيهاته حية، تنبض وتتحرك، وتشير إلى معالم الطريق..

---

(١) تهذيب مدارج السالكين.

وسيظل هناك حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن، طالما نحن نتلوه أو نسمعه كأنه مجرد تراتيل تعبدية مهومة، لا علاقة لها بواقعيات الحياة البشرية اليومية(١).

ويقول – رحمه الله –: إن القرآن حقيقة ذات كينونة مستمرة كهذا الكون ذاته، الكون كتاب الله المنظور، والقرآن كتاب الله المقروء، وكلاهما شهادة ودليل على صاحبه المبدع، كما أن كليهما كائن ليعمل.. والكون بنواميسه ما زال يتحرك، ويؤدى دوره الذى قدره له بارئه، الشمس ما زالت تجرى فى فلكها، وتؤدى دورها والقمر، والأرض، وسائر النجوم والكواكب: لا يمنعها تطاول الزمان من أداء دورها، وجدة هذا الدورفى المحيط الكونى..والقرآن كذلك أدى دوره للبشرية، وما يزال هو هو، فالإنسان ما يزال هو هو كذلك، ما يزال هو هو فى حقيقته وفى أصل فطرته، وهذا القرآن هو خطاب الله لهذا الإنسان فيمن خاطبهم الله به، خطاب لا يتغير لأن الإنسان نفسه لم يتبدل خلقا آخر، مهما تكن الظروف والملابسات قد تبدلت من حوله،ومهما يكن هو قد تأثر وأثر فى هذه الظروف والملابسات..والقرآن يخاطبه فى أصل فطرته وفى أصل حقيقته التى لا تبديل فيها ولا تغيير، ويملك أن يوجه حياته اليوم وغدا لأنه معد لهذا، بما أنه خطاب الله الأخير، وبما أن طبيعته كطبيعةهذا الكون ثابتة متحركة بدون تبديل(٢).

التحذير من ترك التدبر:

يقول ﷺ « .. والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو حجة عليك »(٣).

عن ابن مسعود قال: يجئ القرآن يوم القيامة فيشفع لصاحبه، فيكون قائدا إلى الجنة، أو يشهد عليه فيكون سائقا إلى النار.

وقال أبو موسى الأشعرى: إن هذا القرآن كائن لكم أجراً،وكائن عليكم وزرا، فاتبعوا القرآن، ولا يتبعكم القرآن، فإنه من اتبع القرآن هبط به على رياض الجنة، ومن اتبعه القرآن زج فى قفاه فقذفه فى النار.

---

(١) فى ظلال القرآن ص: ٣٤٨.

(٢) فى ظلال القرآن ص: ٣٤٩.

(٣) رواه مسلم

وقال بعض السلف: ما جالس أحد القرآن فقام عنه سالما، بل إما أن يربح أو أن يخسر، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء ٨٢](١).

من هنا يتبين قول الرسول ﷺ: «والقرآن حجة لك، أو حجة عليك»، فمن يقرأ القرآن وهو غافل عن آياته ومعانيه، فإنه بذلك قد أقام الحجة على نفسه، فما من آية إلا وتحمل توجيها ينبغي اتباعه، ومن لم يلتفت إليه، جاءت تلك الآيات يوم القيامة لتشهد عليه بأنه قد مر عليها ولم ينتفع بها.

فكما يقول ابن عمر أن كل حرف من القرآن ينادى: أنا رسول الله إليك لتعمل بى، وتتعظ بمواعظى(٢).

يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]

ويقول ﷺ: «إن أناسا من أمتى سيماهم التحليق، يقرؤون القرآن، لا يجاوز حلوقهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، هم شر الخلق والخليقة»(٣).

وعندما صف الرسول ﷺ الخوارج لأصحابه كان مما قال عنهم أنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم.. معنى هذا أن القرآن لو جاوز حناجرهم، ودخل إلى قلوبهم لانتفعوا به، والتزموا خط الوسط، ولم يجنحوا إلى ما جنحوا إليه، ولم لا وفى القرآن- كما يقول ابن مسعود - علم الأولين والآخرين(٤).

ويقول - رضى الله عنه - أيضا: إن أقواما يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع(٥).

ويقول الحسن - رضى الله عنه -: قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وما تدبر آياته إلا اتباعه، ما هو بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله فما أسقط منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله، ما ترى القرآن له فى خلق ولا عمل(٦).

---

(١) جامع العلوم الحكم، لابن رجب ص: ٢٦٧.

(٢) مباحث فى علوم القرآن، لمناع القطان ص: ١٨٦.

(٣) صحيح، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ح (٢٢٤٠).

(٤) إحياء علوم الدين ١/ ٤٢٤.

(٥) الذل والانكسار، لابن رجب، والقول رواه مسلم.

(٦) رهبان الليل ١/ ٦٠٤.

وتأمل قول أحمد بن الحوارى: إنى لأقرأ القرآن فأنظر فيه آية آية، فيحار عقلى فيها، فأعجب من حفاظ القرآن، كيف يهنيهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الرحمن؟ أما لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه، وتلذذوا به، واستحلوا المناجاة به لذهب عنهم النوم فرحا بما رزقوا(١).

إن كنت تزعم حبى ... فلم هجرت كتابى؟
أما تأملت ما فيه ... من لذيذ خطابى

وكان مالك بن دينار يقول: يا حملة القرآن، ماذا غرس القرآن فى قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض، وقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحش فيكون فيه الحبة، فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضر.. فيا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن فى قلوبكم؟ أين أصحاب سورة؟ أين أصحاب سورتين؟ وماذا عملتم فيهما؟(٢).

ويقول أبو حامد الغزالى: ورد فى التوراة: يا عبدى أما تستحى منى؟ يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى، فتعدل عن الطريق تقعد لأجله تقرؤه وتتدبره حرفا حرفا؛ حتى لا يفوتك منه شيء، وهذا كتابى أنزلته إليك، انظر كم فصلت لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه، ثم أنت معرض عنه، أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك؟ يا عبدى يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك، وتصغى إلى حديثه بقلبك، فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن كف، وها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عنى، أفجعلتنى أهون عندك من بعض إخوانك؟(٣).

لا عذر لأحد فى ترك التدبر:

قد يقول قائل: أنا لا أستطيع تدبر القرآن لقلة علمى وعدم قدرتى على استخراج المعانى منه، وقد يقول آخر: أما أنا فلا أعرف القراءة والكتابة فكيف أتعلم القرآن وأتدبره؟

---

(١) رهبان الليل ١ / ٥٩٧.
(٢) المصدر السابق ١ / ٥٩٤.
(٣) إحياء علوم الدين ١ / ٤٢٦.

يجيب على هؤلاء الإمام القرطبى فى تفسير قول الله – عز وجل –: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

يقول رحمه الله: حث الله – عز وجل – على تأمل مواعظ القرآن، وبين أنه لا عذر فى ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال، مع تركيب العقل لها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها رزانتها خاشعة متصدعة، أى متشققة من خشية الله، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أى: أنه لو نزل هذا القرآن على جبل لخشع لوعده وتصدع لوعيده، وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون فى وعده ولا ترهبون من وعيده(١).

فمهما كان وضع الإنسان، وحجم ثقافته، فلن يكون حاله مثل حال الجبال، ولقد أخبر الله – عز وجل – أن هذه الجبال الصلبة القاسية تتصدع وتخشع لقرآنه إذا ما أنزل عليها.

فلقد أنزل الله القرآن للناس جميعا، ولم يجعل تدبره خاصا بطائفة دون أخرى، وإلا كان هذا مدعاة لاحتجاج البعض بعدم مقدرته على الانتفاع به.

فكل من له عقل يدبر به أمور حياته، ويميز بين النافع والضار، قادر على تدبر القرآن.

قال أبو عمران الجونى: والله لقد صرف إلينا ربنا فى هذا القرآن ما لو صرفه إلى الجبال لحتها وجباها(٢).

وكان مالك بن دينار يقرأ قوله تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ..﴾ [الحشر: ٢١]، ثم يقول: أقسم لكم، لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه(٣).

إن القرآن كتاب هداية، ومنهج حياة، أنزله الله ليدلنا به على ما ينفعنا فى دنيانا وآخرتنا فإن لم ننتفع به على هذا الوجه فما قيمة حركات اللسان؟

إن التلاوة الحقيقية له لا تعنى قراءة حروفه وترك تدبره، فالتلاوة هى الاتباع.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٠.

(٢) الحت هو السقوط، وتجبى الرجل: إذا أكب على وجهه كهيئة السجود ونحوه.

(٣) الذل والانكسار ص: ٤٩.

يقول ابن القيم: التلاوة الحقيقة هى تلاوة المعنى واتباعه، تصديقا بخبره، وائتمارا بأمره، وانتهاء عن نهيه، وائتماما به، حيثما قادك انقدت معه، فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء فى الدنيا والآخرة ، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقا(١).

لقد وجهنا واهتمامنا إلى النصوص التى تتحدث عن فضل قراءة القرآن، تعاملنا معها على أن المقصود بها هو كثرة القراءة، وإن آل ذلك إلى ترك التدبر، مع أن هناك آيات كثيرة وواضحة تدل على أن المقصد الحقيقى لتلاوة القرآن هو تدبره، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

قال أبو حمزة: قلت لابن عباس – رضى الله عنه –: إنى سريع القراءة، أقرأ القرآن فى مقام، فقال ابن عباس رضى الله عنهما: لأن أقرأ البقرة فأرتلها وأتدبرها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كما تقول(٢).

وقال الحسن: يا ابن آدم، كيف يرق قلبك؟ وإنما همتك آخر سورتك.

وقيل لزيد بن ثابت – رضى الله عنه –: كيف ترى فى قراءة القرآن فى سبع؟ فقال: ذلك حسن، ولأن أقرأه فى نصف شهر، وعشرين يوما أحب إلى، وسلنى لم ذلك؟ قال: فإنى أسألك؟ قال زيد – رضى الله عنه –: لكى أتدبره وأقف عليه.

وكان على بن أبى طالب – رضى الله عنه – يقول: لا خير فى قراءة ليس فيها تدبر(٣).

وقال مجاهد: إن القرآن يقول: إنى معك ما تبعتنى، فإذا لم تعمل بى تبعتك حتى آخذك على أسوأ عملك(٤).

أحوال الصالحين مع القرآن:

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان يوقنون بأن المقصد من تلاوة

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٠٢، ٢٠٣.

(٢) مختصر قيام الليل، لمحمد بن نصر ص: ٦٤.

(٣) المصدر السابق ص: ٦٣، ٦٤.

(٤) المصدر السابق ص: ٧٨.

القرآن هو تدبره والعمل به، وكانت أقوالهم وأعمالهم تدل على ذلك:

يقول عبد الله بن مسعود: إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به.

وكان ابن عمر يقول: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يرزقون القرآن، منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العمل به(١).

ولقد تعلم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورا(٢).

قال الحسن: كان عمر - رضي الله عنه - يمر بالآية من ورده بالليل فيبكي حتى يسقط، ويبقى في البيت حتى يعاد للمرض.

إن حامل القرآن كان يعني عند الصحابة الكثير والكثير، ولقد كان من هؤلاء: سالم مولى أبي حذيفة، يقول - رضي الله عنه - بعد أن أعطاه الصحابة لواء المهاجرين يوم اليمامة: بئس حامل القرآن أنا - يعني إن فررت - فقطعت يمينه، فأخذه بيساره، فقطعت، فاعتنقه إلى أن صرع(٣).

ولقد أتى تميم الداري المقام فاستفتح الجاثية، فلما بلغ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، جعل يرددها ويبكي حتى أصبح.

وعن عباد بن حمزة عن أبيه قال: بعثتني أسماء رضي الله عنها إلى السوق، وافتتحت سورة الطور فانتهت إلى قوله ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾، فذهبت إلى السوق رجعت وهي تكرر ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧].

وهذا الإمام ابن تيمية يحال بينه وبين الكتب في محبسه بالقلعة، فيتفرغ للقرآن، فيقول عن هذه التجربة: قد فتح الله علي في هذا الحصن في هذه المرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء كان الكثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١ / ٣١.

(٢) المصدر السابق ١ / ٣٠.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ٣ / ١٣.

غير معانى القرآن[1].

يحكى شاعر الإسلام – محمد إقبال – قصته مع القرآن فيقول: قد كنت تعمدت أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم، وكان أبى يرانى، فيسألنى ماذا أصنع؟ فأجيبه: أقرأ القرآن، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألنى سؤاله، فأجيبه جوابى، وذات يوم قلت له: ما بالك يا أبى تسألنى نفس السؤال، وأجيبك جوابا واحدا، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد؟ فقال: إنما أردت أن أقول لك: يا ولدى اقرأ القرآن كما نزل إليك.

ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اكتسبت ومن دره ما نظمت[2].

تدبر القرآن يولد الأفكار:

إن المتدبر للقرآن، المعايش لمعانيه، سيفاجأ بالكثير والكثير من المعانى والأفكار، بحيث تغلب على خواطره، وتسيطر على خياله.

يقول ابن القيم: وأما التأمل فى القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملا.

فليس شىء أنفع للعبد فى معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع فيه الفكر على معانى آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتثبت قواعد الإيمان فى قلبه، وتشيد بنيانه وتوطد أركانه وتريح صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار فى قلبه وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها،

---

(١) مقدمة كتاب الإيمان ص: ٢٠، ٢١ (ترجمة عن شيخ الإسلام ابن تيمية لمحقق الكتاب محمد الزبيدى).

(٢) روائع إقبال ص: ٣٩.

ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه فى مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضرورى للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها، فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتميز له بين الحق والباطل فى كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقا، والباطل باطلا، وتعطيه فرقانا ونورا يفرق بين الهدى والضلال، والغى والرشاد، وتعطيه قوة فى قلبه، وحياة وسعة وانشراحا وبهجة وسرورا، فيصير فى شأن والناس فى شأن آخر(١).

أقرب الطرق لفهم القرآن:

يقول الإمام البنا: إن أقرب الطرق لفهم كتاب الله هو قلبك، فقلب المؤمن ولا شك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى.. وأقرب طرائق الفهم: أن يقرأ القارئ بتدبر وخشوع، وأن يستلهم الرشد والسداد، ويجمع شوارد فكره عند التلاوة.. وأن يلم مع ذلك بالسيرة النبوية المطهرة،ويعنى بنوع خاص بأسباب النزول وارتباطها بمواضعها من هذه السيرة، فسيجد فى ذلك أكبر العون على الفهم الصحيح السليم.

وإذا قرأ فى كتب التفسير بعد ذلك فللوقوف على معنى لفظ دق عليه، أو تركيب خفى أمامه معناه، أو استزادة من ثقافة تعينه على الفهم الصحيح لكتاب الله فهى مساعدات للفهم، والفهم بعد ذلك إشراق يقدح ضوءه فى صميم القلب(٢).

ومن قبل البنا يؤكد ابن القيم على هذا المعنى فيقول: ورأس الأمر وعموده فى سفر الهجرة إلى الله، إنما هو دوام التفكر، وتدبر آيات الله، حيث تستولى على الفكر وتشغل القلب، فإذا صارت معانى القرآن مكان الخواطر من قلبه، وجلس على كرسيه، وصار له التصرف، وصار هو الأمير المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره، ويتضح له الطريق، وتراه ساكنا وهو يبارى الريح ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾ [النمل: ٨٨].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص: ٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) مفاتيح للتعامل مع القرآن ص: ١٤٠، ١٤١ نقلا عن مقدمات تفسير القرآن لحسن البنا.

فإن قلت: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لى بابه، واكشف لى حجابه، وكيف تدبر القرآن وتفهمه؟ والإشراف على عجائبه وكنوزه؟ هذه تفاسير الأئمة بأيدينا، فهل فى البيان غير ما ذكروه؟

قلت: سأضرب لك أمثالا تحتذى عليها، وتجعلها إماما لك فى هذا المقصد، قال الله تعالى ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٣٠].

فعهدى بك إذا قرأت هذه الآيات، وتطلعت إلى معناها، وتدبرتها، فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم فى صورة الأضياف يأكلون ويشربون، وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك، فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك، ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما فى هذه الآيات من أنواع الأسرار، وكم تضمنت من الثناء على إبراهيم، وكيف جمعت الضيافة وحقوقها، وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة، وكيف تضمنت علما عظيما من أعلام النبوة، وكيف تضمنت جميع صفات الكمال، التى ردها إلى العلم والحكمة، وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها، ثم أفصحت وقوعه، وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب انتقامه من الأمم المكذبة، وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما، وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله، وعلى اليوم الآخر، وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من فى قلبه خوف من عذاب الآخرة، وهم المؤمنون بها وأما من لا يخاف الآخرة، ولا يؤمن بها، فلا ينتفع بتلك الآيات(١).

ثم بدأ ابن القيم -رحمه الله- ببيان هذه الأسرار فى رسالته المسماة: زاد المهاجر إلى ربه.

الوسائل المعينة على تدبر القرآن:

إن الانتقال من مرحلة قراءة القرآن باللسان فقط إلى مرحلة حضور القلب عند تلاوته، وتدبر معانيه، واستخراج كنوزه، يحتاج إلى جهد وصبر ومثابرة - بخاصة فى البداية - ويحتاج كذلك إلى تدريب، وممارسة عملية، فكما أننا نتدرب على القراءة الصحيحة،

---

(١) زاد المهاجر إلى ربه ص: ٤٩، ٥٠.

وتطبيق أحكام التلاوة، علينا أن نتدرب على كيفية تدبر القرآن، واستخراج المعانى منه، وتحويلها إلى واجبات عملية، وهناك بعض الأمور التى من شأنها - لو التزمناها - أن تعيننا على التدبر وهى:

١- التحقق بشرط الانتفاع بالقرآن.

٢- التأدب بآداب التلاوة.

٣- التعامل الصحيح مع خواطر التدبر.

٤- اتباع نماذج عملية للتدبر.

أولا - التحقق بشرط الانتفاع بالقرآن:

وقد أشرنا إلى هذه النقطة بشىء من التفصيل فى الصفحات السابقة، ونؤكد عليها هنا مرة أخرى، فهى مفتاح التدبر.

فالخائفون هم المؤهلون لاستقبال القرآن استقبالا صحيحا.

يقول رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل..»(١)

نعم.. قد يستطيع أحدنا استخراج بعض الخواطر من الآيات التى يقرؤها أو يسمعها، وقد يتأثر بها ولكنه لن يعمل بمقتضاها إلا إذا استشعر حاجته لذلك، وليس هذا إلا لصاحب القلب الخائف الوجل.

قال تعالى: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١-٣].

ثانيا - التأدب بآداب التلاوة:

فقبل أن نفتتح التلاوة علينا أن نستشعر أن هناك حجبا تحيط بقلوبنا، تمنع بصيرتنا من تلقى الفيوضات والإشراقات الربانية، وأسباب ذلك كثيرة، وأهمها الغفلة والذنوب، وهذا يستلزم منا استغفار الله - عز وجل - قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فحرمان النور الربانى عذاب.. وعدم الفهم عذاب.. كل هذا يحتاج إلى استغفار حقيقى

---

(١) صحيح سبق تخريجه.

من القلب قبل اللسان؛ لعل الطريق يفتح، والنور يدخل.

وبعد الاستغفار علينا بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، علّنا تصيبنا رحمة من رحمات الله- عز وجل - التى وعد بها من يصلى على الحبيب المصطفى - ﷺ-.

ثم نتصدق ولو بشيء يسير - إذا ما تيسر ذلك - فالصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، ثم ندعو الله - عز وجل - أن يمن علينا بحسن الفهم وحضور القلب.

أما بقية آداب التلاوة فنوردها من كتاب مفاتيح التعامل مع القرآن، لصلاح الخالدى، ومنها:

١- اختيار الوقت المناسب لتلاوة القرآن، والذى يتجلى الله فيه لعباده، وتتنزل فيه فيوضات رحمته.

وأفضل الأوقات: ماكان فى الثلث الأخير من الليل وقت السحر، ثم قراءة الليل، ثم قراءة الفجر، ثم قراءة الصبح، ثم قراءة باقى أوقات النهار.

٢- اختيار المكان المناسب، كأن يكون بيتا من بيوت الله، أو ركنا فى بيته يفرغه من الشواغل والتشويش، ويبعد عنه الضجيج والصياح والكلام الدنيوى، ولعب وعبث الأطفال.

إن القرآن كالمطر، فكما أن المطر لا يؤثر فى الجماد والصخر، ولا يتفاعل معه إلا التربة المهيأة، فكذلك القرآن لابد أن ينزل على بيئة صالحة ليتفاعل معها، ويؤثر فيها ويحيا من خلالها، وهذه البيئة هى الحواس والقلوب التى تقبل عليه.

٣- الالتجاء إلى الله والعوذ به، والاحتماء بحماه، والإقبال عليه إقبال المضطر أو الغريق الطالب للنجاة، والتبرؤ من كل حول وقوة، أو علم وعقل، أو فهم وفطنة، والاعتقاد الجازم بأن كل هذا لا نفع له إذا لم يمن الله على صاحبه بالتدبر والفهم والتأثر والالتزام.

٤- الاستعاذة والبسملة، وعليه أن يعيش معنى الاستعاذة، وأن يتدبرها، وأن يكون صادقا بكيانه كله فى نطاقها، لتتحقق الاستعاذة المطلقة بالله سبحانه، وذلك حتى يعيذه الله ويبعد عنه كيد الشيطان.

٥- تفريغ النفس من شواغلها، وقضاء حاجاتها،وتلبية طلباتها قبل الاقبال على القراءة، وذلك لأن الحاجات تبقى تلح على النفس وتخايل لها، وبذلك تحجب القلب عن التدبر

والوعى والتلقى.. فلا يكون قارئ القرآن- أثناء قراءته - جائعا أو عطشا أو مهموما قلقا مضطربا، أو يعيش فى برد شديد أو حر مؤذ، أو جالسا فى مكان عام ينظر فيه للغادين والرائحين وينشغل بهم، أو منتظرا تقديم الطعام ونفسه وأحاسيسه مشغولة باستقباله.

٦- حصر الفكر أثناء التلاوة وجعله مع القرآن فقط، وقصر الخيال على الآيات، ومنعه من الشرود والتجوال مع مظاهر الحياة وظواهرها، وتوظيف كل نوافذ المعرفة ووسائل التدبر، وعوالم التلقى فى النفس والمشاعر والأحاسيس والفكر والخواطر والخيال.. توظيفها للقرآن فقط، وإعادة كل من حاول الخروج عن هذه المهمة، فإذا فعل القارئ هذا فإنه سيخرج بزاد عظيم من التلاوة، وسيحصد نتائج باهرة وثمارا يانعة.

٧- التأثر والانفعال بالآيات حسب موضوعاتها وسياقها، فتجده يفرح إذا قرأ آيات التبشير والرجاء والأمل، ويحزن ويبكى عند آيات الإنذار والتهديد والوعيد، ويسر إذا قرأ آيات النعيم، ويخاف عند آيات العذاب.. ويفتح حواسه على الأمر والتكليفات الربانية ليعمل بها، وعلى المنهيات والمحرمات ليبتعد عنها.

وإذا قرأ آية نعيم سأل الله أن يكون من أهله، وإذا قرأ آية عذاب تعوذ بالله منه، ويجيب على استفهامات القرآن وأسئلته، وينفذ الأوامر والتكاليف، ويتبرأ من الكفار وصفاتهم، ويقبل على المؤمنين يوثق ولاءه لهم.. وهكذا.

٨- الشعور بأن القارئ هو نفسه المخاطب بالآيات، وهو الذى وجهت إليه التكليفات، ثم يعيش هذا الشعور، ويدرك نتائجه وآثاره على نفسه وكيانه كله.. وبذلك يقف طويلا أمام الآية ويعرف ماذا تطلبه منه؟ وماذا تنهاه عنه؟ تستوقفه آيات التكاليف المبدوءة بـ: يا أيها الذين آمنوا، ويا أيها الناس، ويا أيها الإنسان، ويفتح لها كل منافذ التلقى والانفعال والاستجابة، لأن ما بعده إما أمر لتنفيذه، أو نهى عن محظور أو عتاب وتذكير، أو توجيه إلى خير وهدى(١).

ثالثًا - التعامل الصحيح مع خواطر التلاوة:

يقول صلاح الخالدى: عندما يعيش القارئ مع القرآن بكل كيانه، ويتلقاه بكافة أجهزة التلقى والاستجابة عنده، سيأخذ عن القرآن الكثير من المعانى والإيحاءات، وترد على ذهنه وشعوره الخواطر واللطائف واللفتات والدلالات، وسيتذوق مذاقات، وسيجد راحة وسعادة،

---

(١) مفاتيح التعامل مع القرآن ص: ٤٦-٥٠ بتصرف.

وسيتقلب فى أفياء رحمة الله ونعمته عندها سيعرف معنى الحياة، وسيجد طعم السعادة، ويستروح الطمأنينة واليقين..

وهذا الذى يجده ويستشعره ويعيشه قد يزول وينتهى إذا ما أقبل على آيات أخرى؛ لأنه سيجد عندها معانى جديدة، وسيتلقى عنها مذاقات جديدة، وقد يزول وينتهى إذا غادر ظلال القرآن، وأقبل على الدنيا بشواغلها وصوارفها، وقد يزول وينتهى إذا أزله الشيطان إلى المعصية أو الغفلة أو الشهوة.. ولذلك نوجه القارئ إلى أن يسجل ما يعيشه أولا بأول، وأن يقيد خواطره ولفتاته ولطائفه لحظة ورودها، وأن يقتنص هذه المعانى والحقائق قبل أن ينساها أو يصرف عنها.. وعندها سيحصل على سعادتين اثنتين: السعادة الغامرة فى أن يعيشها بكيانه، ويتذوقها بمشاعره، وينفعل لها بأحاسيسه، وترتد عنده إلى مذاقات وحقائق معاشه.. والسعادة الثانية فى أن يحتفظ بها ويحرص عليها ويشعر بغناه بها وثروته منها.. فى أن يجعلها كنزا من كنوزه الثمينة العتيقة، ورصيدا وافرا من علمه ومعارفه وحقائقه ويقينياته، ومعينا ثرًّا معطاء يعود إليه عندما يحتاجه ليمده بالزاد والوقود والثقة والإيمان والثبات.

ننصح القارئ أن يكون إلى جانبه أوراقه أثناء التلاوة، وأن يسجل فيها كل ما يجده، وأن لا يكون همه أن ينتهى من الآية أو الآيات بأقصر الأوقات.. إن حرصه على تقصير الوقت قد يكون مانعا من تدبره للقرآن، وإن الكم القرآنى وحرصه على تكثيره قد يكون مانعا كذلك، فلا يلتفت إلى مقدار ما قرأ وما تدبر، ولا يلتفت إلى الوقت الذى أمضاه فيه، فكم من الوقت أمضاه الصحابة والعلماء والمتدبرون للقرآن فى تدبر آية من الآيات، وترديدها ساعات وساعات قد تستغرق الليل بطوله، رغم حرصهم على أوقاتهم وشعورهم بأهميتها وقيمتها، وتحرجهم من أن يضيعوا لحظاتها.. ومع ذلك جادوا بها من أجل التدبر والحياة فى ظلال القرآن، وقدموها له بسخاء وكرم ويقين[1].

وفى البداية على كل منا ألا ينزعج إذا ما قلت خواطره حول الآيات التى يتلوها، فهذا أمر متوقع، فلا يتكلف ذلك، ولا يتوقف عند كل آية، بل يتلوها وهو حاضر الذهن متجاوبا مع ما يردد، وشيئا فشيئا سيجد الخواطر تنهال عليه، وليجعل لكل ختمة كراسة يسجل فيها خواطره التى وردت على قلبه خلال فترة تلاوتها، وليعمل على تحويلها إلى واجبات عملية يلزم نفسه بها.

---

(١) مفاتيح التعامل مع القرآن ص: ١٢٣، ١٢٤.

بعد عدة ختمات للقرآن سيشعر القارئ بالفارق الكبير بين مستوى خواطره فى البداية ومستواها بعد ذلك إذا ما انتهج الطريقة التى أشرنا إليها، وصبر على ذلك، يقول ﷺ « . . ومن يتحر الخير يعطه . . »(١).

من المعينات المهمة لتدبر القرآن معرفة معانى الكلمات التى يجهلها القارئ، ويمكن الاستفادة من كتاب « كلمات القرآن تفسير وبيان » لمحمد حسنين مخلوف، والذى يوجد مطبوعا على هامش بعض المصاحف مما يسهل علينا معرفة المعانى دون أن نقطع القراءة ونبحث فى الكتاب.

رابعا - اتباع نماذج عملية للتدبر:

هناك طريقتان للتدبر يمكن أن نسير فيهما سويا، وهما:

أولا: تدبر للآيات حسب تسلسلها، واستخراج المعانى التى ترد على القارئ، وتسجيلها، والعمل على تحويلها إلى واجبات عملية.

ثانيا: تدبر موضوعى، بأن يختار عنوان لموضوع من الموضوعات، ويطرح هذا الموضوع بشكل جيد فى حلقة من الحلقات القرآنية، ثم يطلب من الحاضرين تتبع هذا الموضوع فى أورادهم وجمع الآيات التى تدور حوله.

وهذه بعض العناوين التى قد تصلح لهذا النوع من التدبر:

١- الإنفاق فى سبيل الله وأثره فى إصلاح القلوب وتهذيب السلوك.

٢- حول فقه الابتلاء: معناه وصوره وكيف نتعامل معه.

٣- دلائل ووحدانية الله.

٤- السنن الكونية فى هذه الحياة.

٥- عاقبة التقوى فى الدنيا والآخرة.

٦- أثر الذنوب والمعاصى فى حياة الفرد والمجتمع.

٧- حول مفهوم الإحسان وتطبيقاته فى الحياة.

٨- دور القرآن فى تثبيت القلوب.

---

(١) سبق تخريجه.

٩- عبودية السراء، وعبودية الضراء.

١٠- الله غالب على أمره.

١١- فقه الهداية.

١٢- شرف مقام الدعوة إلى الله.

١٣- البداية من العبد.

١٤- موانع الهداية.

١٥- أسباب التوفيق والخذلان.

١٦- وهو القاهر فوق عباده.

١٧- أمن يجيب المضطر إذا دعاه؟

١٨- عبودية الشكر.

١٩- شروط الانتفاع بالقرآن.

٢٠- بديع السماوات والأرض.

٢١- متى نصر الله؟ «سنن النصر والتمكين».

٢٢- العبرة بما فى القلوب.

٢٣- عاقبة الصبر.

٢٤- حقيقة ظلم النفس.

٢٥- أهمية الذكر.

٢٦- الخوف من الله: دوافعه ومجالاته.

٢٧- أسباب تمكين بنى إسرائيل وتفضيلهم على العالمين، وأسباب سخط الله عليهم ومسخهم قردة وخنازير.

٢٨- أسباب هلاك الأمم.

٢٩- المال والبنون، وكيف نحسن التعامل معهما؟

٣٠- دواعى الاستغفار.

٣١- حقيقة الدنيا.

٣٢- وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها.

٣٣- الإيمان أولا..

٣٤- إنما يخشى الله من عباده العلماء.

٣٥- دور الشيطان فى غواية الإنسان.

٣٦- أهمية الجهاد فى سبيل الله وأهم صوره.

٣٧- عبودية الكون، وكيف نتفاعل معها؟

٣٨- مجالات التفكر.

٣٩- وما تسقط من ورقة إلا يعلمها.

٤٠- حقيقة الفقر إلى الله.

٤١- وإن تطيعوه تهتدوا «أهمية التمسك بالسنة».

٤٢- وأقم الصلاة لذكرى.

٤٣- حقيقة النفاق.

٤٤- خطورة اتباع الهوى.

٤٥- دور الكبر فى ضلال الإنسان.

٤٦- قضية الرزق، وكيف نتعامل معها؟

٤٧- تطبيقات عملية حول صفة القيومية.

٤٨- من صور الرحمة الإلهية، ورحمتى وسعت كل شىء.

٤٩- حقيقة التوكل على الله.

٥٠- النظر فى العواقب: أهميته ومجالاته.

نماذج عملية للتدبر الموضوعى

وهذه بعض النماذج العملية للتدبر الموضوعى، علينا أن نعيش معها أولاً، ثم نستخرج من الورد اليومى الآيات التى تخدم هذه الموضوعات.

النموذج الأول: البداية من العبد «قراءتان للقرآن»

يقول جودت سعيد تحت عنوان «قراءتان للقرآن»: (أننا نستطيع أن نقرأ القرآن قراءتين اثنتين، نقرؤه مرة على أن التاريخ ووقائع الأيام من صنع الله تعالى، ومرة على أن التاريخ والأحداث والتغيرات التى تحدث خلال التاريخ وبين الناس من صنع الناس أنفسهم، وعلينا أن نهتم بالتمييز بين هاتين القراءتين؛ لأنه يترتب عليهما مواقف وعواقب مختلفة، ولتوضيح هذا الأمر أذكر هنا المثل الذى يقدمه القرآن حين يتحدث عن كل من الزراعة والتناسل البشرى، فيقول:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩].

فى الواقع إن الله هو الذى خلق النباتات والأشجار، وهو الذى خلق التربة والماء، ولكن نحن من صنع البستان، نحن من وضع البذور فى الأرض وقلب التربة، إلا أننا لم نصنع، ولم نضع، ولم نخلق سنن الإنبات فى البذور والتراب، ولم نوجد سنن الإثمار واليتع، ومع كل هذه الأشياء التى خلقها الله - سبحانه وتعالى -؛ فإنه لن توجد حقول القمح ولا بساتين الفاكهة بدون سعى الإنسان.

فعل الله وفعل الإنسان:

كذلك وإن كنا لسنا نحن الذين خلقنا سنن الإلقاح وتكون الأجنة فى الأرحام، ولكن بدون تزاوج الناس لن يخلق الله الإنسان.

هكذا نستطيع أن نرى الجزء الذى يرجع إلى الله تعالى فى حدوث الأحداث التاريخية، والجزء الذى يرجع إلى الإنسان فى حدوثها، فنقول:

إن الله هو الذى أنبت الزروع، وخلق الأجنة فى بطون أمهاتها.

ونقول أيضًا: إن الناس هم الذين يفلحون الأرض ويضعون البذور، وهم الذين يتزوجون ويضعون النطاف فى الأرحام.

فالفعل يرجع إلى الله من جانب، وإلى الإنسان من جانب آخر، الخلق يرجع إلى الله، ووضع البذور فى الحقول، والنطاف فى الأرحام يرجع إلى الإنسان، وينبغى أن نميز بين هذين العملين، بين السنن التى تعود إلى الله، وبين ما يعود للإنسان من ممارسة هذه السنن، والله تعالى هو الذى خلق السنن والنتائج، والبشر هم الذين مارسوا السنن وسخروها لتحقيق النتائج، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقرأ القرآن قراءتين اثنتين، قراءة تشير إلى أن التاريخ والتغيير الذى يحدث فى حياة الناس يخلقه الله تعالى، وقراءة تشير إلى أن أحداث التاريخ تنتج عن ممارسة سنن الله فى التاريخ، وهكذا يُنسب الحدث إلى الله من جانب، وذلك بخلقه للسنن وجعلها قابلة للتسخير من قبل البشر، وينسب إلى الناس الذين يتصرفون بهذه السنن ويمارسونها من جانب آخر، وممارسة الناس للسنن هى التى تكون سببًا لحدوث هذه الأحداث، وبدون هذه الممارسة لا يبرز الله تعالى الأحداث إلى الوجود.

ينبغى على المسلمين أن يتأملوا هاتين القراءتين، وأن يعلموها لأطفالهم، وأن يدربوهم عليهما، كما يعلمونهم ويدربونهم على الأحرف الهجائية، وعلى تجويد القرآن، كى لا تلتبس عليهم هذه التفصيلات، وكى لا ينتج عن التباسها افتراء على الله وتكذيب لآيات الله، أو تأليه للبشر، أو إضاعة لقيمة سعيهم وجهدهم.

إن إبراز هاتين القراءتين ضرورة كبرى، بل لعلنا إن لم نوضح هاتين القراءتين والالتباس الحاصل بينهما، نضيع الفائدة من دراسة القرآن الكريم، ويتحول إلى عامل إلغاء وحذف لجهود البشر.

هاتان القراءتان: قراءة خلق الله للسنن، وقراءة ممارسة البشر لهذه السنن، تُذكَران أحيانًا بوضوح وجلاء، كما فى قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١].

إن النعم التى يتمتع بها البشر، من الصحة فى الأبدان، والغنى فى الأموال، والتعاون على البر والتقوى فى الشدة والرخاء، هذه النعم لها قوانين وسنن، وينبغى على الناس أن يفهموها ويمارسوها، كى تبقى هذه النعم عليهم ولا تزول عنهم، وإذا زالت فإن الله لن يعيدها إلى الناس إلا إذا غيروا بجهدهم وسعيهم وتبصرهم ما بأنفسهم.

هنا فى آيتى التغيير هاتين، نسب الله إلى ذاته تغييراً، ونسب إلى الناس تغييراً، ولكنه جعل التغيير الذى نسبه إلى ذاته متعلقًا بالتغيير الذى نسبه إلى الناس، فعلى الناس أن يغيروا ما بأنفسهم أولاً، كى يغير الله ما بهم ثانيًا، وهذا واضح جلى غاية الوضوح والجلاء فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ولكن ومع وضوحه وجلائه لا زال يشوه، الغموض فى نفوس الناس، ولا زالوا ينتظرون من الله أن يغير ما بهم وما بأنفسهم.

ينبغى أن نتمسك بهذه الآية، ونعض عليها بالنواجذ، ونجعلها آية مفتاحية لفهم القراءتين بوضوح وجلاء، وينبغى أن نقوم باختبارات وتدريبات على هاتين القراءتين؛ لأن عدم الانتباه إليهما يخلف إشكالات كثيرة وكبيرة.

الارتباط الوثيق بين القراءتين:

إن الجهد والممارسة، ومحاولة التعليم، والتفهيم والتذكير، يزيل الالتباس بإذنه تعالى، وبين هاتين القراءتين ارتباط شديد، بحيث إذا ذكرت إحداهما استلزم ذلك وجود الأخرى حتمًا، فإذا قلنا: إن الله أنعم على قوم بالغنى والصحة والحب والإيثار، فكأننا نقول: إن هؤلاء القوم غيروا ما بأنفسهم من عوامل الفقر والمرض والبغضاء والأنانية، كذلك إذا قلنا: إن الله ابتلى قومًا بالفقر والمرض والبغضاء والغدر، فإن ذلك يعنى أن هؤلاء القوم يحملون فى أنفسهم عقائد ومفاهيم ومذاهب تورث هذه العواقب والثمرات، ويعنى أن الله لن يغير ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وللتدريب على ربط هاتين القراءتين نقول: إذا قال الله تعالى مثلاً: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، عند هذه الآية نقول: إن الله تعالى لم يذكر إلا العمل الذى يرجع إليه، من خلق السنن، وخلق العواقب والثمرات من تطبيق السنن، وإذا كان الله تعالى لم يذكر العمل الذى يقوم به الناس للحصول على الملك والعز وتحصيل الخير، فهذا لا يعنى أن الله يؤتى الملك من يشاء جزافًا، وينزعه ممن يشاء جزافًا، بل إنه تعالى لا ينزع الملك إلا من الذين غيروا ما بأنفسهم، فالذين يعرفون السنن ويمارسونها يحصِّلون ثمراتها، ويتمتعون بالصحة، والغنى، والحكم الراشد، والذين يجهلون السنن، ولا يمارسونها، تزول عنهم النعم، وتحل بهم النقم، وصدق الله القائل: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

وحين نقرأ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، نقول: نعم، لقد ألف الله بين قلوبهم، ولكنه لم يؤلف بينهم بخوارق، بل بسنن، وعدم فهم هذا يجعل حياة الناس مظلمة ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فالذين يمارسون سنن تأليف القلوب لا يحصل الانفضاض من حولهم)[1].

ويمكن أن نضع لهذا الموضوع عنوانًا آخر ونطلق عليه «البداية من العبد»؛ فالصلاح والفساد، والهدى والضلال، والسعادة والشقاوة، والتوفيق والخذلان، وضيق الصدر وانشراحه، وتيسير الأمور وتعسيرها... كل هذه الأحوال لا تصيب العبد إلا إذا كانت منه بداية تستدعيها.

يقول تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

ويقول سبحانه: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

فأي تغير في حالك، أو وحشة في صدرك، أو تعسير في أمورك، ليس إلا نتاج ما بذرته في وقت ما، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فالله - عز وجل - لا يظلم أحدًا ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

بل نحن الذين نظلم أنفسنا ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

فبنو إسرائيل فضلهم على العالمين، ومكنهم في الأرض بما صبروا، وتحملوا ما فعله بهم فرعون، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

---

(١) كن كابن آدم ص: ١١٥ - ١٢١ بتصرف.

ولما لم يحافظوا على هذه النعمة، وتمادوا فى الظلم والطغيان حصدوا الثمار المرَّة.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

فلا محاباة لأحد ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

إنه قانون يطبق على الجميع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

تأمل قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

فالأمر الإلهى سيصدر بعقابكم إن فعلتم ذلك، فلا محاباة لأحد، ولا كرامة لأحد إلا باستقامته وتقواه.

وفى سورة الأنعام، وبعد أن تتحدث الآيات عن إبراهيم - عليه السلام - وذريته من الأنبياء يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٧، ٨٨].

فمن يرد المعية والولاية فعليه بالاستقامة ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ....﴾ [النمل: ١٠، ١١].

فالبداية من العبد، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨].

ولقد وعد الله - عز وجل - المنفق فى سبيله بمجازاته بأضعاف ما ينفقه، يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

كل هذا الأجر مرهون بالحبة، التى لو لم يقدم مثلها العبد فلن يحصد إلا السراب.

وكذلك القرب من الله – عز وجل – لابد فيه من بداية من العبد، ففى الحديث القدسى: «ومن تقرب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً...»(١).

ولقد ذكر القرآن هذا القانون بشقيه فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

من هنا تأتى أهمية المداومة على الاستغفار الصادق؛ لإزالة أى أثر لعمل سىء، أو تقصير فى حق من الحقوق، فمحو تلك الآثار من شأنه أن يوقف تنفيذ العقوبة المترتبة على ذلك، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فالعذاب يوقف بالاستغفار.

ويقول سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ – ١٢].

فإن قال قائل: فما بال الابتلاءات تصيب المؤمنين، بل إن رسول الله ﷺ يقول: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة»(٢).

إن الابتلاء للمجرمين عقوبة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] وهو للمؤمنين تطهير، وللمطهرين درجات.

فالله – عز وجل – يبتلى عباده المؤمنين؛ كى يستخرج من قلوبهم معانى الذل والانكسار، والافتقار والعبودية له – سبحانه وتعالى – وكلما كانت هذه المعانى عميقة كلما كان الابتلاء أشد؛ ليكون أبلغ فى استخراجها من مكنوناتها؛ لذلك كان أشد الناس بلاء أعرفهم بالله وأشدهم له عبودية.

---

(١) صحيح رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة. أورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٨١٣٨).

(٢) صحيح أخرجه الإمام أحمد وغيره وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ح (٩٩٢)، والسلسلة الصحيحة ح (١٤٣).

وهذه المعانى التى يُظهرها البلاء لا تظهر بغيره، ومن ثمَّ فإن الدرجات التى يُحصِّلها العبد به لا يمكن أن يحصِّلها بغيره.

والابتلاء وإن كان فى ظاهره شر ومحنة إلا أنه يحمل فى طياته خيراً كثيراً للمؤمن، فهو يرفع الدرجات، ويثبت القلب، ويزيد الإيمان ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فهو عطاء فى صورة منع، ومنحة فى صورة محنة، يقول تعالى: ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١٦].

أما كيف يعرف المؤمن أن ما أصابه من بلاء بسبب ذنوبه أم لرفع درجاته؟ فهذا لا ينبغى أن يشغل باله كثيراً؛ لأن العبودية المطلوبة منه فى كل أحوال البلاء واحدة ألا وهى الصبر والتضرع إلى الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا** ﴾ [الأنعام: ٤٣].

ويقول - عز وجل - ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

وفى مقابل الابتلاءات التى قد تصيب المؤمن فإننا نرى النعم تتوالى على كثير من العصاة والمتكبرين، وليس معنى هذا أن الله لا يعاقبهم على أفعالهم، ولكن هذا العطاء الظاهرى من أشد صور المنع؛ فهو نوع من أنواع الاستدراج إلى النار.

فالله - عز وجل - ينذر عباده: ﴿ **أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٦].

فإن عادوا إليه فقد استجابوا لصوت العقل، ونداء الحق، وإن استمروا فى غيهم، فإن الدنيا قد تُفتح عليهم؛ كيلا يكون هناك مجال للتفكير فى العودة إلى الله - عز وجل - يقول تعالى: ﴿ **سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴾ [الأعراف: ١٨٢ - ١٨٣].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤].

فقد يكون الملك والنعيم، والجاه والثراء منع واستدراج، وعقوبة من الله - عز وجل - وإن كان فى ظاهره على عكس ذلك، يقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وما أصدق قول ابن عطاء - رحمه الله - ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك. متى فتح لك باب الفهم فى المنع عاد المنع عين العطاء.

فالخير الذى قد يصيب هؤلاء المجرمين ما هو إلا غطاء لشر عميم.

فإذا ما تبين ذلك يبقى تفاوت درجات الناس فى الإمكانات المادية والعقلية، وعلاقتها بهذا القانون.

إن أى نعمة ينعمها الله على عباده ليست دليل كرامة، بل هى اختبار له، عليه أن يجتازه، والنجاح فيه يستلزم نوعًا خاصًا من العبودية، ألا وهى الشكر، فإذا قام العبد بهذه العبودية فقد نجح فى الاختبار، وارتفع رصيده من الدرجات، وإن لم يقم بذلك صارت تلك النعمة وبالاً عليه، وحجة تحاجه عند الله - عز وجل - يوم القيامة، وساعتها سيتمنى أن لو كان قد حُرِم منها، فهو لم يستفد منها استفادة حقيقية، بل كانت سببًا فى زيادة حسابه وعذابه.

وفى مقابل ورود النعم على العباد، وما تستلزمه من العبودية، يكون المنع أيضًا اختبار لهم يحتاج إلى عبودية خاصة ليجتازوه، وعبودية المنع تختلف عن عبودية العطاء، فهى إن كانت فى العطاء والرخاء فى صورة الشكر، فإنما تكون فى الشدة والمنع فى صورة الرضا والصبر.

يقول تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فكل ما أوتيه العبد فى شتى جوانب حياته فتنة وامتحان له، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ

وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فالغنى ليس كرامة، والفقر ليس إهانة، فكلاهما مواد للاختبار، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧].

وإن كان جزاء الشكر الزيادة، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فإن جزاء الصبر بلا حدود، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

والدنيا كلها لا تساوى عند الله جناح بعوضة، وكل لحظة يمكثها العبد فى الدنيا يقابلها ما لا نهاية له فى الآخرة.

عن جابر - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرِّضت فى الدنيا بالمقاريض»(١).

.... والقرآن مليء بالآيات التى تدور حول هذا النموذج، ولا تكاد تخلو سورة منها، فعلينا أن نعمل على استخراجها، والوقوف عندها؛ لتترسخ معانيها فى قلوبنا.

النموذج الثانى للتدبر الموضوعى بعنوان: «العبرة بما فى القلوب» أو «أهمية الصدق»:

القلب هو محل نظر الله - عز وجل - وبمقدار ما فيه من صدق وخير يكون العطاء الإلهى.

وهذه بعض الآيات التى تقرر هذه الحقيقة، علينا أن نتدبرها، ونستخرج أمثالها من أوراد تلاوتنا للقرآن.

يقول تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا...﴾ [الأنفال: ٧٠].

ويقول تعالى: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥].

ويقول تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

---

(١) حسن أخرجه الترمذى، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٨١٧٧).

ويقول تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

فالعبرة بالسرائر وما فيها من صدق، يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣].

فهناك فارق كبير بين الخطأ الذى يرتكبه العبد بسبب ضعفه، وبين الذى يرتكبه وهو متعمد ذلك، مصر عليه، وهذا لا يعلمه إلا الله.

يقول تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الأحزاب: ٥].

والجزاء من جنس العمل ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ [البقرة: ١٠].

وعندما يحاول البعض الاحتجاج بأن الله لم يهدهم، وهدى غيرهم، تكون الإجابة بأن العبرة بما فى القلوب، فهى محل نظر الرحمن، يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

فلابد من وجود الخير فى القلب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ولو أسمعهم وهم على حالتهم هذه من عدم وجود الخير فى قلوبهم ﴿لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وعندما احتج قوم نوح – عليه السلام – على وجود الضعفاء معه قال لهم: ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

ويؤكد القرآن على هذا المعنى بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

وهذا مما يفسر قول بعض السلف: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشىء وقر فى صدره.

والقرآن كثيراً ما يؤكد على أهمية ما فى السرائر، وأن العطاء والمنع، والتفاضل بين الناس

إنما مداره على ما فى القلوب، يقول تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

إنه قانون واضح يستدعى من الجميع العمل على زيادة مساحة الخير فى قلبه.

النموذج الثالث: «مفتاح التوفيق والخذلان»

التوفيق هو الرشد والسداد، وإصابة الهدف المنشود، أما الخذلان فيعنى الهزيمة، وعدم الوصول إلى الهدف.

قال ﷺ: «يا علىُّ سل الله الهدى والسداد، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد تسديدك السهم»(١).

ولقد بين القرآن فى عدة مواضع الطريق إلى استجلاب التوفيق الإلهى، وكذلك الخذلان.

فالتوفيق هو إعانة الله لعبده فى وصوله إلى هدفه، والخذلان تركه لنفسه، دون إعانة منه، ومن تُرِك لنفسه فقد تُرِك للضعف، والتثاقل، والتخاذل، والميل إلى الراحة، وحب الشهوات.

والحصول على التوفيق أو الخذلان يبدأ من العبد كما أشرنا سابقًا.

فبالانكسار لله - عز وجل - والخروج من الحول والقوة يكون التوفيق، وبالاعتماد على النفس، وإمكاناتها ومواهبها، يكون الخذلان؛ لذلك كان من دعائه ﷺ: «يا حى يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين»(٢)، ومن دعائه أيضًا: «وإنك إن تكلنى إلى نفسى تكلنى إلى ضعف، وعورة، وذنب، وخطيئة، وإنى لا أثق إلا برحمتك...»(٣).

والإنسان قد يدور بين التوفيق والخذلان فى يومه، فهو عندما يتوكل على الله، ويخرج من حوله وقوته يوفق إلى ما يريد، فإذا ما شعر بالزهو والافتخار، واغتر بنفسه خُذِل.

إنه قانون واضح، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

ويقول تعالى على لسان يوسف - عليه السلام - ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ

---

(١) صحيح رواه الإمام أحمد والنسائى والحاكم عن على، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ح (٧٩٥٢).

(٢) صحيح رواه النسائى والبزار بسند صحيح، والحاكم وقال، صحيح على شرطهما من حديث أنس.

(٣) حسن رواه أحمد والطبرانى والحاكم وقال صحيح الإسناد عن زيد بن ثابت، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب رقم ٦٥٧.

﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف : ٣٣].

فكانت الاستجابة الفورية: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف : ٣٤].

إنه أمر مجرَّب ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال : ٩].

وعندما استخدمه الثلاثة الذين خُلِّفُوا جاءهم الفرج ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة : ١١٨].

أما الاعتماد على النفس، والإعجاب بها فنتيجته أيضًا معروفة ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة : ٢٥].

النموذج الرابع : «حول مفهوم الإحسان»:

الإحسان له فضل عظيم.

فصاحبه فى معية الله – عز وجل – ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦٩].

وقريب من رحمته سبحانه ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف : ٥٦].

وبه ينال صاحبه حب الله – عز وجل – ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥].

وجزاء الإحسان إحسان ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن : ٦٠].

والمستفيد الأول من الإحسان هو صاحبه ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء : ٧].

وهو يفرج الكرب، ويدفع البلاء ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات : ١٠٣ – ١٠٥].

ولصاحبه النعيم الأوفى فى الجنة، والتمتع بالنظر إلى وجه الكريم – سبحانه وتعالى – ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس : ٢٦].

ولعظم فضله يتمنى المعرض عن الله – بعد وفاته – أن يعود إلى الدنيا؛ ليكون من

المحسنين ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨].

والإحسان معناه: الفضل والزيادة، وهو يشمل كل شيء في الحياة، كما قال ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»(١).

فالإحسان ليس قاصراً على شيء دون شيء، فالعبادات، والأخلاق، والمعاملات، يمكننا الإحسان فيها.

يقول تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]

ويقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]

ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]

ويقول تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]

فالمحسن يعيش في سعادة وطمأنينة ليس بينه وبين أحد عداوة ولا بغضاء، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]

والناس يهرعون إلى المحسن لحل مشاكلهم ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]

ومن صور الإحسان الهامة كذلك: الدعوة إلى الله يقول ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]

ففي كل شيء يمكن أن يكون هناك إحسان والقرآن ملئ بالآيات التي تتحدث عن فضل الإحسان وأهميته في تزكية النفوس، وعن صوره ومجالاته، وعاقبته في الدنيا والآخرة.

النموذج الخامس: سنن النصر والتمكين:

لو قرأنا قوله ـ عز وجل: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]

وقوله ـ سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] دون أن نبحث عن سنن النصر ومعادلته، فسنقبع في بيوتنا في انتظار النصر، وسيطول بنا الانتظار، لأننا لم نفهم سنة النصر على الوجه الصحيح.

---

(١) صحيح رواه مسلم عن شداد بن أوس – رضي الله عنه –.

فالنصر من عند الله هذه قاعدة لاشك فيها، ولكن لكى يأتى هذا النصر لابد من جهد يبذله الناس يحققون به طرف المعادلة إلى أن يصلوا إلى الدرجة التى تستدعى الطرف الآخر.

وطرف المعادلة المطلوب تحقيقه من الناس يبينه القرآن فى عدة آيات يقول تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج : ٤٠] فلابد للعبد من أن ينصر الله على نفسه كى ينصره على عدوه، كما قال حسن الهضيبى : أقيموا دولة الإسلام فى قلوبكم تقم على أرضكم ، ويؤكد القرآن نفس المعنى فى قوله تعالى :

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧]

ومن شروط النصر أيضاً : ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥]

فالمتأمل للشروط يجد أن المطلوب ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ ولم يقل ـ سبحانه « أحداً » فشيئاً تشمل كل ما يمكن أن يكون فيه شرك خفى وجلى .. فالمطلوب أن يوجه العبد وجهه تماما لله ـ عز وجل ـ فلا تكون تصرفاته وأعماله لأى وجهة أخرى ليحقق قول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣]

وهذه هى الحنيفية أى الميل التام إلى الحق ، وإسلام الوجه لله ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان : ٢٢]

فالله ـ عز وجل ـ لن يمكن إلا لعباده المنتسبين إليه المتمسكين بعروته الوثقى

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ، ١٠٦]

والتقوى أيضا شرط من شروط التمكين يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨]

ويقول عز وجل : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١٣ ، ١٤]

ومع إسلام الوجه التام لله - عز وجل - وحسن الانتساب إليه والخوف الدائم منه فإن النصر يستلزم أيضا حسن الإعداد .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال : ٦٠]

فمن استكمل هذه الشروط فقد أصبح مؤهلاً لتلقى النصر الذى لا يأتى إلا من عند الله - سبحانه وتعالى - وعندما يحين وقت مجيئه فلا توجد قوة فى الأرض - مهما علت - يمكنها أن تقف أمامه يقول تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٠]

ويقول تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦]

النموذج السادس : حول أسباب الهداية والضلال :

إن الهداية منحة ، وفضل من الله - عز وجل - يمنحها من يشاء من عباده . يقول تعالى :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ [الليل : ١٢]

ويقول - عز وجل - على لسان أهل الجنة ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣]

وهى إن كانت محض فضل من الله إلا أنها تستلزم وجود رغبة من العبد فى تحصيلها كما هو واضح فى قصة إبراهيم - عليه السلام - قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [الأنعام : ٧٧]

ويقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٦ - ٢٨]

فلقد بين - عليه السلام - لقومه قانون الهداية لعلهم يرجعون إليه، ويستخدمونه.

وفى الحديث القدسى : « يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته » فهذه هى الحقيقة الخالدة . . ثم بين الحديث العمل المطلوب من العبد، كى يحصل على هذه المنحة الربانية

« فاستهدونى أهدكم »[1].

لذلك كان العتاب للنبى ﷺ لتصديه لدعوة رجل لا يريد الهداية، ولا يرغب فيها، وتركه لمن عنده هذه الرغبة الأكيدة، يقول تعالى:

﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس : ٥-١٠]

أما أسباب الضلال وابتعاد الناس عن الحق فلا تخرج عن كونها أحد سببين: إما جهل أو هوى يقول تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

فأوضحت الآية أن أسباب عدم قيام الإنسان بحمل الأمانة هى : الظلم، والجهل.

وصور الظلم كثيرة، فالعلو فى الأرض ظلم، واتباع الشهوات ظلم، والإسراف ظلم.. إلخ.

والقرآن يشخص أسباب تكذيب المكذبين بأنهم لا يريدون الإيمان بالله ، ليس عن شك فيه، ولكن عن عدم رغبة فى ترك ما هم عليه.

يقول تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ [القيامة : ٥] .. لذلك ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ [القيامة : ٦]

ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ [الفرقان : ٤٠]

نعم كانوا يرونها ولكنهم تعاموا عنها لأنهم لا يريدون الإيمان ، ولا الحساب يوم القيامة، يقول تعالى : ﴿ بَل كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان : ٤٠] .

إنهم يريدون الدين على هواهم ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف: ٤٥]

لذلك مهما بُذل معهم من مجهود فلن يقتنعوا، لأن القضية ليست بسبب جهلهم وإنما فى اتباعهم الهوى يقول تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧]

---

(١) صحيح رواه مسلم عن أبى ذر - رضى الله عنه -

ويقول تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة : ١٤٥]

أما إذا كان السبب هو الجهل فما أيسر انتفاؤه، إذا وجد داعية صادق يحسن عرض الدعوة .

والقرآن ملئ بالكثير من الآيات التى تقرر هذه القاعدة .

لماذا آمن السحرة ولم يؤمن فرعون مع أنهم جميعهم رأوا نفس الآيات؟

ولماذا آمنت ملكة سبأ عندما رأت الصرح الزجاجى، عند سليمان ـ عليه السلام؟

تأمل قوله ـ عليه السلام ـ وهو يقول لمن حوله من الجنود ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٤١]

إنه يقول لهم: إن كان عدم عبادتها لله بسبب الجهل فستهتدى عندما ترى دلائل النبوة، وآيات القهر والإعجاز .. أما إن كان بسبب الكبر والظلم فلن تهتدى مهما رأت من آيات، والذى حدث أن آمنت بلقيس عندما رأت ذلك الصرح .

ويشخص القرآن سبب كفرها السابق : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [النمل : ٤٣]

ويمكن للقارئ المتدبر للقرآن أن يتبع هذه القاعدة فى القرآن، وتطبيقاتها العملية ويتعرف على موانع الهداية والتى ذكرت فى مواضع كثيرة .

النموذج السابع : أهمية الشكر فى الحفاظ على النعم :

الشكر هو الحكمة : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ [لقمان : ١٢]

وبه يُدفع العذاب : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾ [النساء : ١٤٧]

فهو مستهدف النعم : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل : ٤٠]

وهو أيضاً قيدها وسبب زيادتها ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧]

ولأنه مفتاح كل خير فى الدنيا والآخرة؛ يسعى إبليس لصرف الناس عنه يقول تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦ ، ١٧]

فأى فتح أو عطاء ينعم الله تعالى به على عبد من عباده ما هو إلا اختبار له، يقول تعالى:

﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن : ١٦ ، ١٧]

ويقول - عز وجل - : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩]

فتقييد النعم بالشكر ، وفقدها بالإعراض عنه ولا كرامة لأحد عند الله إلا باستقامته وتقواه . فبلعام ، وسبأ وبنو إسرائيل أمثلة عملية على ذلك .

ولكن كيف يكون الشكر؟

إن الشكر عمل يقول تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ [سبأ : ١٣]

وله صورتان : صورة عامة لكل النعم، وصورة خاصة لكل نعمة على حدة .

أما الصورة العامة فتتلخص فى زيادة الذل والانكسار والتقوى ، والتضرع إلى الله - عز وجل .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٣]

ويقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢ ، ٤٣]

وعندما وجدت السيدة عائشة - رضى الله عنها - رسول الله ﷺ يطيل القيام بالليل حتى تورمت قدماه قالت له: إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فكان رد الحبيب المصطفى ﷺ : «أفلا أكون عبداً شكوراً» (١) .

أما الصورة الخاصة لشكر النعمة فتكون بجعل هذه النعمة وسيلة تُقرب صاحبها إلى الله - عز وجل - فيستخدمها فيما يرضى مولاه - سبحانه وتعالى - ويجعل منها سببا لنفع الناس فلا يتكبر بها ولا يتجبر بل يزداد استقامه لله - عز وجل - وانكساراً له .

فعندما دعا موسى على فرعون بالهلاك . قال تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٨٩]

---

(١) متفق عليه .

إن الشكر يحتل مساحة ضخمة فى القرآن الكريم فعلينا أن نتتبع الآيات التى تتحدث عنه، ونحاول ربط بعضها ببعض ونتأمل نماذج الشاكرين والمعرضين كى يستقر مفهومه فى الأذهان.

تساؤل هام :

من المتوقع أن يتبادر إلى الذهن سؤال هام وهو : إننا بهذه الطريقة التي سنقرأ بها القرآن لن نتمكن من الانتهاء من وردنا اليومى، وستكون حصيلة قراءتنا قليلة فكيف يمكن الجمع بين تدبر القرآن من ناحية وختمه ولو مرة كل شهر من ناحية أخرى؟

إن المقصد الأساسى من قراءة القرآن هو تدبره، والعمل بما فيه من توجيهات تحيى القلوب وتنير الطريق وتشفى الصدور كما قال تعالى :

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٢٩]

فلا بديل عن ذلك مهما كانت الأسباب .

لقد قرأنا القرآن مرات ومرات بألسنتنا وحناجرنا، وكان هم الواحد منا الانتهاء من ختمه بل وكان بعضنا يتنافس فى عدد المرات التى يختمه فيها، وبخاصة فى شهر رمضان فأى استفادة حقيقية استفدناها من ذلك؟

ماذا غيَّر فينا القرآن؟

إن القراءة باللسان فقط ـ دون حضور القلب على أقل تقدير ـ كالنخالة كبيرة الحجم قليلة الفائدة .

فلا عذر لأحد فى ترك التدبر وإلا صارت قراءتنا حجة علينا يوم القيامة .

والحد الأدنى للتدبر هو حضور القلب عند القراءة ، وأن يعقل الإنسان ما يردده لسانه وهذا لا يحتاج إلى وقت إضافى، كل ما يحتاجه هو التهيئة النفسية والذهنية .

ومع المداومة على التلاوة ، وحضور القلب فيها تبدأ المعانى والخواطر فى الورود على الذهن دون تكلف .

ولا ينزعج القارئ من قلة خواطره فى البداية شيئا فشيئا ستزداد وعندما يمن الله عليه بالدخول فى العالم الحقيقى للقرآن والتفاعل مع الآيات، والشعور بأنه المخاطب به، سينقلب حاله، وستملك عليه المعانى حياته.. فى نومه ويقظته، وسكونه وحركته، وسيقف مشدوها

أمام الكثير من الآيات، وستنكشف أمامه الكثير من الحقائق ، وهذه المرحلة لابد أن نمر بها جميعا ، وهى التى ستأخذ منا بعض الوقت، ولكن بعد عدة ختمات، ومع المرور على نفس الآيات وما فيها من موضوعات مشتركة – والتى أشرنا إلى طرف منها سابقاً – سنجد أن أذهاننا حاضرة مع المعانى، دون التوقف الكثير عندها، ويبقى ما ستضيفه إلينا الآيات من خواطر جديدة ، وهذا لن يستغرق وقتاً طويلاً كما هو الحال فى البداية .

إننا نقف منذ زمن بعيد أمام الباب الخارجى لعالم القرآن لذا من المتوقع أنه إذا فُتح لنا هذا الباب ـ بفضل الله وكرمه ـ وولجنا إلى الداخل فسوف تصيبنا الدهشة والانبهار مما سنرى من عجائب وكنوز .

هذا الانبهار سيأخذ وقته إلى أن نتعرف على ما فى هذا العالم الجديد، وبعد ذلك سنعتاد على هذه الحياة، ويصبح للقرآن دور عملى فى واقعنا، ويتدخل فى كل شئون حياتنا .

إنها حياة أخرى غير التى نحياها ـ تلك التى سيعيشها من يدخل إلى عالم القرآن ـ

وعندما يحتار العقل فى فهم آية من الآيات علينا بالاجتهاد فى الدعاء والتضرع إلى الله ـ عز وجل ـ كى يمن علينا بالفهم الصحيح لها ثم بعد ذلك الرجوع إلى كتب التفسير لمعرفة المعنى المراد منها .

عن معقل بن يسار ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « اعملوا بالقرآن، أحلُّوا حلاله ، وحرِّموا حرامه، اقتدوا به ، ولا تكفروا بشىء منه ، وما تشابه عليكم منه فردوه إلى الله وإلى أولى العلم من بعدى كيما يخبرونكم... » (١) .

تلبيس إبليس :

سيحاول الشيطان الدخول على الواحد منا من باب أنه ليس أهلاً للتدبر واستخراج المعانى والواجبات العملية من الآيات وسيعمل على إقناعه بأن هذا من اختصاص العلماء .

ولكى نغلق هذا الباب علينا دائما أن نتذكر قول الله ـ عز وجل ـ

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه .

فلا عذر لأحد فى ترك التدبر بعد هذه الآية .

وهناك مدخل آخر للشيطان يدخل منه وهو أن هناك من الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم من كان يختم القرآن فى ثلاثة أيام، فكيف جمع بين هذه القراءة السريعة، والتدبر فى وقت واحد؟

بعد أن يدخل المرء فى عالم القرآن ، ويتعايش معه ويلازمه ، ويصطبغ بصبغته يسهل عليه بعد ذلك قراءته بهذه الصورة فمعانيه حاضرة أمامه لم تغب عنه لحظة واحدة .

عن عبدالله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال: قلت يا رسول الله فى كم أقرأ القرآن؟ قال: « اقرأ القرآن فى كل شهر ، اقرأه فى خمس وعشرين ، اقرأه فى خمس عشرة ، اقرأه فى عشر، اقرأه فى سبع ، لا يفقهه من يقرؤه فى أقل من ثلاث » (١) .

تأمل قول الرسول ﷺ : « لا يفقهه من يقرؤه فى أقل من ثلاث » أى أن فقه القرآن وتدبره لابد أن يكون ملازماً لقراءته .

لا بديل عن التدبر :

لنعلم جميعاً أن التعثر فى هذه الخطوة وعدم النجاح فى الدخول إلى عالم القرآن، والتفاعل الحقيقى معه يعنى عدم الاستمرار فى طريق التربية الإيمانية .

ويؤكد على هذا المعنى ابن القيم - رحمه الله - فيقول : لا شىء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، ومقامات العارفين وهو الذى يورث المحبة والشوق ، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل ، والرضا والتفويض ، والشكر والصبر ، وسائر الأحوال التى بها حياة القلب وكماله .

وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التى بها فساد القلب وهلاكه .

فلو علم الناس ما فى قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية هو محتاج إليها فى شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ، ولو ليلة فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم ، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح .

---

(١) صحيح رواه الإمام أحمد فى مسنده ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ح (١١٥٧) والسلسلة الصحيحة ح (١١٥١٣) .

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح ، وهى قوله :

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة : ١١٨] (١) .

فقراءة القرآن بالتفكر هى أصل صلاح القلب، ولهذا قال ابن مسعود : لا تهُـذُّوا القرآن هذَّ الشعر ، ولا تنثروه نثر الدقل ، وقفوا عند عجائبه وحرِّكوا به القلوب لا يكن هم أحدكم آخر السورة (٢).

* * *

(١) رواه أحمد والنسائى وابن ماجه والحاكم عن أبى ذر وصححه البوصيرى والحاكم ووافقه الذهبى .

(٢) أى أن يختمها فقط ، رواه ابن أبى شيبة فى المصنف . انظر مفتاح دار السعادة ١/٥٥٣ ، ٥٥٤ .

أهمية المداومة على القراءة اليومية للقرآن

مما يميز القرآن أنه ميسر للذكر، مصاحب للفرد، وفى متناول الجميع، ولقد حذرنا الله- عز وجل- من هجره ، وطالبنا بالمداومة على قراءته.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠]

فالكل مطالب بالمداومة على تلاوته، وختمه مرة تلو الأخرى، وليس هذا لنيل الثواب العظيم فى الآخرة فقط، ولكن أيضًا لدوره العظيم فى حياة القلوب وتثبيتها.

دور القرآن فى تثبيت القلوب:

يقول تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢]

فالقرآن من أهم وسائل الثبات، يقول تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

- فعلى سبيل المثال:

القرآن مليء بأنباء المرسلين، وكيف كان حالهم مع قومهم كأننا نراهم، ونعيش معهم.

ويوضح لنا كيف كان حجم الظلم والطغيان الذى كان يمارسه الطغاة، لدرجة تجعل الواحد منا يشعر بأن ما يلاقيه الدعاة إلى الله اليوم من تضييق وتكذيب وابتلاءات أهون بكثير مما تعرض له أسلافنا.

فطغاة اليوم لم يصلوا إلى ما وصل إليه فرعون وجنوده، أو ثمود أو عاد.

فالقرآن يخبرنا عنهم، وعن تكذيبهم لأنبيائهم، ومحاربتهم، والتضييق عليهم، ثم يخبرنا بمآلهم وكيف كانت عاقبتهم.

إنها رسالة تقول لنا أن الأحداث تتكرر، والسُنن تمضى، والعاقبة للمتقين، فلا يستعجل أحد أمر الله فيهم.

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ويقول تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]

فمن كان فى شك من هذا فليسر فى الأرض، وليتتبع أخبار الظالمين.

يقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر: ٨٢].

ويقول تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

[الصافات: ١٣٧– ١٣٨]

تخيل أنك فى عصر فرعون ، عصر الظلم والطغيان والجبروت كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

وتخيل مقدار الرعب والهلع الذى كان ينتاب بنى إسرائيل منه ومن أعوانه، وشعور البعض بشىء من الإحباط واليأس كلما رأوا طغيانه وظلمه، وتمكنه وعلوه فى ازدياد مستمر.

ثم تذكر كيف كانت نهاية هذا الطاغية، بعد سنوات طوال من ميلاد موسى– عليه السلام–، وتخيل كيف كان شعور بنى إسرائيل عندما رأوا هلاكه، ونهاية أسطورته، وانتصارهم عليه، وتحقق الوعد الذى وعدهم الله– عز وجل– به، وكيف كان شعور أولئك الذين كانوا يتشككون فى إمكانية تحققه... إنه شعور بالفرح، مشوب بالندم على تسرب اليأس والإحباط والشك فى نصر الله– سبحانه وتعالى–.

إن القرآن يكرر القصة مرات ومرات؛ ليؤكد لنا هذه الحقيقة، كيلا تفزعنا شدة الظلام، وكثرة التكذيب، والإيذاء، بل ننظر إلى الطغاة نظرة استخفاف، مع الثقة واليقين بوعد الله– عز وجل– ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم: ٦٠].

القرآن يرد على الشبهات :

مع طول الطريق يشتد التكذيب، وتكثر الشبهات، وقد يتأثر القلب ببعض منها فيحدث التبديل، لذلك نجد القرآن يرد عليها للمحافظة على استمرار وضوح الرؤية، وعملاً على تثبيت القلوب.

يقول تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان: ٣٣].

والأمثلة على ذلك كثيرة، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]

والقرآن لايكتفى بالرد على الشبهات التى يثيرها أعداؤه، بل يكشف مواقفهم، ويشخص حالتهم ودوافعهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ [الفرقان: ٤٠].

ويقول تعالى: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ [الأحزاب: ١٣].

القرآن يذكر بالثوابت والأولويات:

كلما طال الطريق أكثر وأكثر ازداد تعرض السائرين فيه إلى نسيان بعض الثوابت والأولويات.

وهنا يأتى دور القرآن، وأهمية المداومة على قراءته.

فهو يذكر دوماً بالثوابت والأولويات، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ويقول تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]

وقد يدخل حب الدنيا قلب العبد، ويزداد تعلقه بها، فيكشف له القرآن حجمها الحقيقى، يقول تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ [الكهف: ٤٥].

ويُذكر القرآن أتباعه بأن استعجال النصر قد يكون بسبب حب الدنيا، والملل من طول الطريق وكثرة التضحيات، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

القرآن يعصم من الفتن:

في وقت الفتن يتجلى دور القرآن في عصمة أتباعه يقول ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما» (١).

فالقرآن يوضح مداخل الشيطان، وصور الفتن، ومواد الامتحان، فإذا ما واجهها الشخص لم يفاجأ بها ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ومن فوائد المداومة على قراءته أيضًا: الوصول إلى درجة اليقين في أسماء الله وصفاته، وفي أركان الإيمان، وكل ما أخبر عنه سبحانه، فالقرآن يعرض هذه الأمور بأكثر من طريقة، ويكرر المعاني لترسخ في الأذهان، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الفرقان: ٥٠] وصرفناه أي: «كررناه بأساليب مختلفة» (٢).

فالقرآن هو قوت القلوب الحية، وغذاؤها، وشفاؤها، من تمسك به قاده إلى بر الأمان.

وهذا الدور العظيم له، لن يتحقق إلا إذا داوم العبد على تلاوته، وتدبر معانيه ليواجه ما يلاقيه من أحداث وتقلبات خلال مسيرته في الحياة اليومية.

تجربة من الواقع المعاصر:

وفي نهاية الحديث عن هذه الوسيلة ننقل كلام أحد الذين منَّ الله عليهم بمعايشة القرآن، واستخراج بعض كنوزه.

---

(١) صحيح رواه الترمذي عن زيد بن أرقم وأورده في صحيح الجامع الصغير، ح (٢٤٥٨).

(٢) كلمات القرآن تفسير وبيان لحسنين مخلوف.

ومن الملاحظ أن هذا الشخص ينتمى إلى العصر الحديث بما فيه من مستجدات، مما يدل على إمكانية تكرار هذا النموذج.

يقول سيد قطب- رحمه الله وتقبله فى عداد الشهداء- عن تجربته مع القرآن.

الحياة فى ظل القرآن نعمة... نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها... نعمة ترفع العمر، وتباركه، وتزكيه.

والحمد لله، لقد منَّ الله على بالحياة فى ظلال القرآن فترة من الزمن، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط فى حياتى، ذقت فيها هذه النعمة التى ترفع العمر، وتباركه، وتزكيه.

لقد عشت أسمع الله- سبحانه- يتحدث إلى بهذا القرآن، أنا العبد القليل الصغير، أى تكريم للإنسان هذا التكريم العلوى الجليل؟ أى رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل؟ أى مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم؟

وعشت- فى ظلال القرآن- أنظر من علو الجاهلية التى تموج فى الأرض، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة، أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال، وتصورات الأطفال، واهتمامات الأطفال، كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال، ومحاولات الأطفال، ولثغة الأطفال، وأعجب: ما بال هؤلاء الناس؟ ما بالهم يرتكسون فى الحمأة الوبيئة، ولا يسمعون النداء العلوى الجليل، النداء الذى يرفع العمر، ويباركه ويزكيه؟

وعشت- فى ظلال القرآن- أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله،وحركة هذا الكون الذى أبدعه الله، ثم أنظر فأرى التخبط الذى تعانيه البشرية فى انحرافها عن السنن الكونية، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التى تملى عليها، وبين فطرتها التى فطرها الله عليها، وأقول فى نفسى: أى شيطان لئيم هذا الذى يقود خطاها إلى هذا الجحيم؟

يا حسرة على العباد

وفى ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان فى هذا الوجود للمصادفة العمياء، ولا للفلتة العارضة، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢]، وكل أمر لحكمة، ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة، ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

ومن ثم عشت- فى ظلال القرآن- هادئ النفس،مطمئن السريرة، قرير الضمير، عشت أرى يد الله فى كل حادث وفى كل أمر، عشت فى كنف الله ورعايته، عشت أرى إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها، ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

إن الوجود ليس متروكًا لقوانين آلية صماء عمياء، فهناك دائمًا وراء السنن الإرادة المدبرة، والمشيئة المطلقة، والله يخلق ما يشاء ويختار، وكذلك تعلمت أن يد الله تعمل، ولكنها تعمل بطريقتها الخاصة، وأنه ليس لنا أن نستعجلها، ولا أن نقترح على الله شيئًا، فالمنهج الإلهى- كما يبدو فى ظلال القرآن- موضوع ليعمل فى كل بيئة، وفى كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية، وفى كل حالة من حالات النفس البشرية الواحدة.

وانتهيت من فترة الحياة- فى ظلال القرآن- إلى يقين جازم حاسم، إنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة، ولا بركة، ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة إلا بالرجوع إلى الله.

والرجوع إلى الله- كما يتجلى فى ظلال القرآن- له صورة واحدة وطريق واحد.. واحد لا سواه، إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذى رسمه للبشرية فى كتابه الكريم، إنه تحكيم هذا الكتاب وحده فى حياتها، والتحاكم إليه وحده فى شئونها، وإلا فهو الفساد فى الأرض والشقاوة للإنسان.

إن هذه البشرية- وهي من صنع الله- لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذى يخرج من عنده- سبحانه- وقدجعل فى منهجه وحده مفاتيح كل مغلق، وشفاء كل داء ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه، ولا تسلك فى أمر نفسها، وفى أمر إنسانيتها، وفى أمر سعادتها أو شقوتها، ما تعودت أن تسلكه فى أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة، التى تستخدمها فى حاجاتها اليومية الصغيرة، وهى تعلم أنها تستدعى لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذى صنع الجهاز، ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه، فترده إلى المصنع الذى منه خرج، ولا أن تستفتى المبدع الذى أنشأ هذا الجهاز العجيب، الجهاز الإنسانى العظيم الكريم الدقيق

اللطيف، الذى لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذى أبدعه وأنشأه ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤].

ومن هنا جاءت الشقوة البشرية الضالة، البشرية المسكينة الحائرة، البشرية التى لن تجد الرشد، ولن تجد الهدى، ولن تجد الراحة، ولن تجد السعادة، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير، كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير (١).

فعلى قدر تمسكنا بالقرآن يكون اتصالنا بالله عز وجل.

يقول ﷺ: «**أبشروا، فإن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبداً**»(٢).

---

(١) فى ظلال القرآن (المقدمة) ص ١١ ـ ١٥ بتصرف.

(٢) صحيح. رواه الطبرانى فى الكبير عن جبير، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ج (٣٤) والسلسلة الصحيحة ج (٧١٣).

الفصل الثالث

قيام الليل والتضرع بالأسحار

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]

فقيام الليل من الوسائل المهمة فى إيقاظ الإيمان، جربها الصالحون فوجدوا لها أبلغ الأثر فى إحياء القلوب.

يقول رسول الله ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعونى فأستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له» (١).

ويقول ﷺ: «أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر؛ فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن» (٢).

إنه وقت الغنيمة، ولكن لمن تعطى؟

(لمن حضر الواقعة... فما يطلع فجر الأجر إلا قد حاز القوم الغنيمة، وفازوا بالفخر، وحمدوا عند الصباح السُرى، وما عند أهل النوم والغفلة خبر مما جرى... لا تزال القصص تستعرض، ويُوقع بقضاء حوائج أهلها إلى أن يطلع الفجر، كان أبو سليمان يقول: أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا.

... وسط الليل للمحبين؛ للخلوة بمناجاة حبيبهم، والسحر للمستغفرين، للاستغفار من ذنوبهم، فوسط الليل خاص لخلوة الخواص، والسحر عام لرفع قصص الجميع، وبروز التواقيع لأهلها بقضاء الحوائج، فمن عجز عن مسابقة المحبين فى ميدان مضمارهم، فلا يعجز عن مشاركة المستغفرين فى استغفارهم واعتذارهم... صحائف التائبين خدودهم ومدادهم دموعهم) (٣).

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وأحمد فى سننه.

(٢) صحيح أخرجه الترمذى وغيره من حديث عمرو بن عبسة، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (١٧٣).

(٣) لطائف المعارف ص ٤٩.

لا بديل عن أنات السحر:

إن التعرض لنفحات الله فى السحر، واقتسام الغنيمة مع المتهجدين، لمن أعظم وسائل غرس الإيمان فى القلوب.

قال ابن الحاج فى المدخل: وفى قيام الليل من الفوائد جملة، فمنها: أنه يحط الذنوب كما يحط الريح العاصف الورق اليابس من الشجرة، ومنها أنه ينور القلب، ومنها أنه يحسن الوجه، ومنها أنه يذهب الكسل وينشط البدن، ومنها أن موضعه تراه الملائكة من السماء، يتراءى مثل الكوكب الدرى لأهل الأرض، ونفحة من نفحات قيام الليل تعود على صاحبها بالبركات والأنوار والتحف التى يعجز عنها الوصف.

ويقول محمد إقبال: كن مع من شئت فى العلم والحكمة، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنّة فى السحر (١).

فقد كان - رحمه الله- عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة، التى يقضيها فى السحَر، ويعتقد أنها رأس ماله، ورأس مال كل عالم ومفكر، لا يستغنى عنها أكبر عالم أو زاهد، كان لا يبغى بها بدلا، ولا يعدل بها شيئا، يقول- رحمه الله- : خذ منى ما شئت يا رب، ولكن لا تسلبنى اللذة بأنّة السحر، ولا تحرمنى نعيمها.

بل كان - رحمه الله - يتمنى على الله أن تتعدى هذه الأنة السُحَرية، والحرقة القلبية، إلى شباب الأمة المتنعمين، فتحرك سواكن قلوبهم، وتنفخ الحياة فى هياكلهم (٢).

ويقول سيد قطب- رحمه الله-: إن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية، والاتصال بالله، وتلقى فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه، والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما هو يتنزل من الملأ الأعلى، وتتجاوب به أرجاء الوجود فى لحظة الترتيل، بلا لفظ بشرى ولا عبارة، واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته فى الليل الساجى.. إن هذا كله والزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ، والجهد المرير، الذى ينتظر الرسول ﷺ وينتظر من يدعو بهذه الدعوة فى كل جيل، وينير القلب فى الطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه فى الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير(٣).

(١، ٢) روائع إقبال ص ٤٦.

(٣) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٧٤٥.

ويقول – رحمه الله– فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل: ٦]

إن مغالبة هواتف النوم، وجاذبية الفراش، بعد كد النهار، أشد وطئا، وأجهد للبدن، ولكنه إعلان لسيطرة الروح، واستجابة لدعوة الله، وإيثار للأنس به؛ ومن ثمَّ فإنها أقوم قيلا؛ لأن للذكر فيه حلاوته، وللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة فيها شفافيتها، وإنها لتسكب فى القلب أنسًا، وراحةً، وشفافيةً، ونورًا، قد لايجدها فى صلاة النهار وذكره، والله الذى خلق القلب يعلم مداخله وأوتاره، ويعلم ما يتسرب إليه، وما يوقع عليه، وأى الأوقات فيها أكثر تفتحًا واستعدادًا وتهيؤًا، وأى الأسباب أعلق به وأشد تأثيرًا فيه، والله– سبحانه وتعالى– وهو يعد عبده ورسوله محمدًا ﷺ ليتلقى القول الثقيل، وينهض بالعبء الجسيم، اختار له قيام الليل (١).

إنه شرفنا:

قال ﷺ: «شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزه استغناؤه عما فى أيدى الناس» (٢).

قال المناوى: الشرف لغة: العلو، وشرف كل شيء أعلاه، لما وقف فى ليله وقت صفاء ذكره، متذللاً متخشعًا بين يدى مولاه، لائذًا بعز جنابه وحماه، شرَّفه بخدمته، ورفع قدره عند ملائكته وخواص عباده بعز طاعته على من سواه (٣).

فمن يرد الشرف وعلو القدر فعليه بقيام الليل... فلا قيمة لنا بدونه.

ومهما كثرت دعاوى المحبة طولب أصحابها بالدليل، وشهدت عليهم ساعات الليل، فالبينة على من ادعى.

فأهل القيام هم الأشراف بين الناس، أما أهل النوم والغفلة– من أمثالنا– فقد فضحتهم تلك الساعات، فأسقطت ذكرهم، وأدنت شرفهم.

الليل مزرعة الإخلاص:

بالليل يتم الغرس، غرس بذور الإخلاص والصدق، وعلى قدر غرسك سيكون الخير فى

---

(١) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٧٤٥، ٣٧٤٦.

(٢) حسن أخرجه الخطيب البغدادى عن أبى هريرة، انظر صحيح الجامع ح (٣٧١٠) والسلسلة الصحيحة ح (١٩٠٣).

(٣) فيض القدير ٤/ ٢١٢.

قلبك، وكلما ازدادت مساحته، ازداد توالى الهدايا عليه من كل جانب، ﴿ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا ﴾ [الأنفال: ٧٠].

فالليل مدرسة الإخلاص، لا يلتحق بها إلا المحبون، ولا يواظب عليها إلا الصادقون.

قال ابن مسعود: فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية.

(وإنما فُضلت صلاة الليل على صلاة النهار؛ لأنها أبلغ فى الإسرار، وأقرب إلى الإخلاص، وكان السلف يجتهدون على إخفاء تهجدهم.

قال الحسن: كان الرجل يكون عنده زواره، فيقوم من الليل يصلى ولا يعلم به زواره، وكانوا يجتهدون فى الدعاء، ولايُسمع لهم صوت، وكان الرجل ينام مع امرأته على وسادة فيبكى طول ليلته وهى لا تشعر) (١).

وبالليل تخرج الكنوز من القلوب، وتُستفرغ معانى العبودية المخزونة، فالمفترض من كل عابد لله أن تكون له فى يومه نظرات وتأملات فى القران والذكر، وفى الدعوة والجهاد والحركة وسط الناس، بل وفى الكون الفسيح وما فيه من آيات.

كل هذا وغيره مما يقابل المسلم في حياته اليومية، من شأنه أن يملأ قلبه بمعانى العبودية والخشية لله- عز وجل-.

فإذا ما تم له ذلك فأين يُخرج هذه المعانى؟ ومتى يظهرها؟

من أجل هذا وغيره كان الليل... وقت الخلوة بالحبيب، فتخرج فيه معاني الذل والانكسار، والافتقار والتملق والخشية... تُكتب الرسائل بالدموع ليحملها نسيم الأسحار إلى من قال: «هل من سائل فأعطيه؟».

القيام من أهم صور الشكر:

فشكر الله- عز وجل- على نعمه التى لا تعد ولا تحصى غاية من غايات العبودية، والشكر عمل، والعبد الشكور هو الذى يظهر عليه أثر النعمة، وأبلغ أثر للنعمة ينبغى أن يظهر على العبد هو زيادة الذل والانكسار والتعظيم لولى النعم، يقول تعالى:

---

(١) لطائف المعارف.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٨-٩].

فالآيات تتحدث عن صنفين من الناس، أنعم الله عليهما بنعمه... الأول مرَّ بتجربة شديدة، وكان في ضيق وهم فدعا الله بصدق ففرج همه، وكشف كربه، لكنه أعرض عن شكره، وعاد إلى غيِّه.

أما الآخر فقد سار في طريق الشكر بطول القنوت بالليل، والتضرع لله- عز وجل- ويُعقب القرآن على الحالتين بقوله تعالى: ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾، لا يستوى الذين يعلمون حق شكر النعم والذين لا يعلمون ذلك.

ولقد كان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى تورمت قدماه، فقالت له السيدة عائشة- رضى الله عنها- : لم تصنع ذلك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال ﷺ : « أفلا أكون عبداً شكوراً؟ » (١).

بالليل يتم الوصال :

يقول عبد الرحيم الطحان : تأملت حال الأمة الإسلامية، فرأيت حالتهم تقطع الأكباد وتدمى القلوب ، وإذا أراد الإنسان أن يفكر في صلاح الأمة فعليه بالنظر في حال أولها، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فرأيت الهداية في أول هذا الأمر كانت في صلاح القلوب، وربطها بعلام الغيوب عن طريق قيام الليل وغيره.

ومن العجيب الغريب الذى يلفت أذهان العقلاء أن الله افترض قيام الليل قبل أن تنزل الفرائض، وقبل أن تشرع الحدود، بل قبل أن تفرض الصلوات الخمس، وهذا لأمر عظيم؛ لأن الإنسان إذا خلا بربه- جلا وعلا-، واتصل قلبه بالله في جنح الليل طهر القلب، ونزلت عليه الفوائد ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وإذا استنار القلب فإنه يصبح في حالة استعداد لتلقى كل أمر طاهر بعد ذلك، وإذا كان القلب فيه فساد فلن يتقبل الأوامر الطاهرة إذا وُجهت إليه، ولذلك عندما ربى الرعيل الأول على هذا المعنى خرجت نماذج من جيل فريد، ما عرفت له البشرية نظيراً.

---

(١) متفق عليه .

من هنا قال أئمتنا الكرام: من رحمة الله بالحدث والشاب أن يوفق فى بدايته لرجل من أهل السنة، ليربط قلبه بالله- عز وجل-، وليعرفه الطريق المستقيم، ثم بعد ذلك يقبل على العلوم، ويأخذ منها وينهل، فعن جندب بن عبد الله قال: كنا مع النبى ﷺ ونحن فتيان حزاير، فتعلمنا الإيمان قبل تعلمنا القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا (١).

وتعلم الإيمان يكون عن طريق الخلو مع الرحمن- جلا وعلا- فى جوف الظلام؛لأن القلب إذا طهر، واتصل بالله- جلا وعلا- تطهرت سائر الجوارح، وقد ربَّى الله- جلا وعلا- هذه الأمة على هذا المعنى، ففى صحيح البخارى عن أم المؤمنين عائشة- رضى الله عنها- : أول ما أنزل من القرآن سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتي إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل من أول الأمر: لاتزنوا، لقالوا: لاندع الزنا أبداً، ولو نزل من أول الأمر: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا نترك الخمر أبدًا، أنزل على النبى ﷺ وأنا جارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، وهى من سورة القمر، وما نزلت البقرة والنساء إلا وأنا عنده فى المدينة.

لو تفكر الإنسان فى شرع الرحمن: حُرِّم الخمر فى العام الثانى من الهجرة، بعد البعثة بخمس عشرة سنة، وفرض الله الحجاب فى العام السادس للهجرة، بعد تسع عشرة سنة من بعثة النبى ﷺ .... لماذا كان يركز على القلب؟ لأن الظاهر يُغير بعد هذا بإشارة، فلابد من تطهير القلب، وربطه بالرب (٢).

هكذا كان أسلافنا:

دخل على السيدة عائشة- رضى الله عنها- يومًا عمرو بن عبيد، وعطاء فسألاها: حدثينا عن أعجب ما رأيت من النبى ﷺ، قالت: وأى أمره لم يكن عجبًا دنا ليلة حتى مس جلده جلدى، ثم انتفض، فقام وقال: «يا عائشة ، ذرينى أتعبد لربى»، فقالت: يارسول الله، والله إنى أحب قربك، ولكنى أوثر هواك، فقام فصلى وبكى حتى بلت دموعه لحيته ثم ركع فبكى حتى بلغت دموعه حجره ثم سجد فبكى حتى بلغت دموعه الأرض، فلما فرغ ، قالت له عائشة- رضى الله عنها- : أما قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً؟» (٣).

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) رهبان الليل ٢/٣٤-٣٦ .

(٣) متفق عليه .

وقالت – رضى الله عنها – لرجل: لا تدع قيام الليل؛ فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه، وكان إذا مرض– أو قالت: كسل– صلى قاعداً (١).

وما كان رسول الله ﷺ يترك قيام الليل فى السفر، فعن حميد بن عبد الرحمن قال: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قلت وأنا فى سفر مع رسول الله ﷺ: والله لأرقبن رسول الله ﷺ للصلاة حتى أرى فعله، فلما صلى صلاة العشاء وهى العتمة، اضطجع هوياً من الليل، ثم استيقظ فنظر فى الأفق فقال:

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩١– ١٩٤]

ثم أهوى رسول الله ﷺ إلى فراشه فاستل منه سواكا، ثم أفرغ فى قدح من إداوة عنده ماء فاستن، ثم قام فصلى حتى قلت: قد صلى قدر ما نام، ثم اضطجع، حتى قلت: قد نام قدر ما صلى، ثم استيقظ ففعل كما فعل أول مرة، وقال مثل ما قال، ففعل رسول الله ﷺ ثلاث مرات قبل الفجر (٢).

أما فى الشدائد فكان ﷺ له مع القيام والتضرع شأن آخر... انظر إليه ﷺ يوم بدر.

يقول على – رضى الله عنه– : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلى ويبكى، حتى أصبح، وفى رواية: فإنه كان يصلى إلى شجرة ويدعو حتى أصبح (٣).

وقال ابن كثير فى البداية والنهاية: بات رسول الله ﷺ يصلى إلى جذع شجرة هناك، ويكثر فى سجوده أن يقول: «يا حى يا قيوم»، يكرر ذلك، ويلظّ– عليه السلام– بقيام الليل، والبكاء، حتى الصباح، والدعاء، والاستغاثة بطلب النصر« اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تُعْبد» (٤)، يصلى هو وأبو بكر، ويقول فى صلاته: «اللهم لا

---

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) صحيح رواه الألبانى فى سننه، وقال الألبانى إسناده صحيح على شرط مسلم حديث رقم (١٢٠٩) مشكاة المصابيح.

(٣) صحيح رواه أحمد فى مسنده وابن خزيمة فى صحيحه والنسائى.

(٤) جزء من حديث فى البخارى.

تودع منى، اللهم لا تخذلنى، اللهم لا تترنى، اللهم أنشدك ما وعدتنى » (١)، « اللهم هذه قريش، أتت بخيلائها وفخرها، تجادل وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى »، يقول ابن مسعود: ما سمعنا مناشداً ينشد ضالة أشد مناشدة من محمد لربه يوم بدر: « اللهم إنى أنشدك ما وعدتنى »، يدعو حتى يسقط رداءه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه فقال: يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله- عز وجل- : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ... ﴾ [الأنفال: ٩]، فأمده الله بالملائكة (٢).

القانتون المخبتون لربهم ... الناطقون بأصدق الأقوال
يحيون ليلهم طاعة ربهم ... بتلاوة، وتضرع، وسؤال
وعيونهم تجرى بفيض دموعهم ... مثل انهمال الوابل الهطال
فى الليل رهبان وعند جهادهم ... لعدوهم من أشجع الأبطال
وإذا بدا علم الرهان رأيتهم ... يتسابقون بصالح الأعمال
بوجوهم أثر السجود لربهم ... وبها أشعة نوره المتلالى
ولقد أبان لك الكتاب صفاتهم ... في سورة الفتح المبين العالى
وبرابع السبع الطوال صفاتهم ... قوم يحبهم ذوو إدلال
وبراءة والحشر فيها وصفهم ... وبهل أتى وبسورة الأنفال (٣)

جاءت هند زوج أبى سفيان- رضى الله عنه- زوجها صبيحة فتح مكة، فقالت له أريد أن أبايع محمداً ﷺ، قال أبو سفيان قد رأيتك تكفرين، قالت: أى والله والله ما رأيت الله تعالى عُبد حق عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً (٤).

---

(١) جزء من حديث فى مسلم .
(٢) رهبان الليل .
(٣) إغاثة اللهفان .
(٤) رهبان الليل ١ / ٣١٠ .

ولما هُزمت جنود هرقل أمام المسلمين، قال لهم: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار (١).

وقال العباس بن عبد المطلب: كنت جاراً لعمر بن الخطاب، فما رأيت أحداً من الناس كان أفضل من عمر: إن ليله صلاة، وإن نهاره صيام، وفي حاجات الناس (٢).

وطلب معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – من ضرار بن ضمرة الكناني وَصْف علي بن أبي طالب– رضي الله عنه– فقال: يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، يميل في محرابه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: ياربنا، يا ربنا– يتضرع إليه– ثم يقول للدنيا: إليَّ تغررت، إليَّ تشوفت؟ هيهات، غُرِّي غيري، قد بتتك ثلاثاً، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك يسير، آه آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق» (٣).

وقيل للحسن البصري: ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجوهاً؟. قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره (٤).

وقال عبد الرحمن بن زيد: كنا في غزاة، وكان عطاء الخراساني يحيي الليل صلاة، فإذا مضى من الليل ثلثه أو نصفه أقبل علينا ونحن في فسطاطنا فنادى: قوموا فتوضئوا وصلوا صيام هذا النهار بقيام هذا الليل، فهو أيسر من مقطعات الحديد، وشراب الصديد، الوحاء الوحاء، ثم النجاء النجاء، ثم يقبل على صلاته (٥).

ويقول الحافظ ابن كثير عن الملك الشهيد نور الدين محمود زنكي– رحمه الله– : كان كثير الصلاة بالليل، كثير الابتهال في الدعاء والتضرع إلى الله– عز وجل– في أموره كلها، وكان يقول في سجوده: اللهم ارحم المكَّاس العشَّار الظالم محمود، وكذلك كانت زوجته عصمت الدين خاتون تكثر القيام في الليل، فنامت ذات ليلة عن وردها، فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها، فأمر نور الدين

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣١١ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٣١٤ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٤) المصدر السابق ١/ ٥٢١ .

(٥) رهبان الليل – الوحاء أي : السرعة .

عند ذلك بضرب طبلخانة فى القلعة وقت السحر لتوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل، وأعطى الضارب على الطبلخانة أجراً جزيلاً، وجراية كثيرة (١).

وقال أبو سليمان الدارانى لأحمد بن أبى الحوارى: بينما أنا ساجد إذ ذهب بى النوم، فإذا أنا بالحوراء، قد ركضتنى برجلها، فقالت: يا حبيبى، أترقد عيناك، والملك يقظان، ينظر إلى المتهجدين فى تهجدهم؟ بؤساً لعين آثرت لذة النوم على مناجاة العزيز، قم فقد دنا الفراغ، ولقى المحبون بعضهم بعضاً، فما هذا الرقاد؟ حبيبى وقرة عيني، أترقد عيناك وأنا أربى لك فى الخدور منذ كذا وكذا؟ فوثبت فزعاً، وقد عرقت استحياء من توبيخها إياى، وإن حلاوة منطقها لفى سمعى وقلبى (٢).

وقال بعضهم: ليس فى الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة (٣).

ويؤكد يحيى بن معاذ على أهمية هذه الوسيلة فيقول: ما وجدنا فى الفضائل عملاً أفضل من قيام الليل، ولا ورثوا عن شيء من تلك الأعمال ما ورثوا عن قيام الليل، به وجدوا القلوب، وزايلوا الذنوب، ووقعوا على الطريق إلى علام الغيوب (٤).

ما أحلاها من لحظات:

إنها لحظات الانكسار والندم، واستشعار الفقر والحاجة إلى من بيده ملكوت كل شيء..

ما أحلاها من لحظات تستشعر فيها قربك من مولاك، وتستنشق فيها نسيم الأسحار..

ما أحلاها من لحظات وأنت تنظر فى الساعة فتجد أن الوقت قد حان، وأن السائلين قد بدأوا فى تقديم الطلبات، فتنفض النوم وجهك، وتسرع إلى المحراب تتذلل لمولاك، وتسأله مسألة المسكين، وتستغيث به استغاثة السقيم، تعود فيها إلى أصل ضعفك، وتنسى عوارض قوتك، تلح فى الدعاء، وتذرف الدمع لعله يرى صدقك وفقرك ومسكنتك فيعطيك من خزائنه ﴿ **وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [المنافقون: ٧]

أتراه يردك عن بابه وما أيقظك سواه؟

---

(١) المصدر السابق ١/ ٤٣١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) رهبان الليل ص ٥٢٧.

(٤) المصدر السابق.

قل: نعم يا رب، أنا السائل فأعطنى، وأنا المستغفر فاغفر لى، وأنا العارى فاكسنى، وأنا الجائع فأطعمنى، وأنا الضال فاهدنى، وأنا الحائر فارشدنى، وأنا الفقير فأغننى، وأنا الذليل فأعزني، وأنا الضعيف فقونى.

أدمن قرع الباب، وقل: عبيدك بفنائك، فقيرك بفنائك، مسكينك بفنائك...ألح فى دعائك واستغث بمولاك استغاثة المشرف على الغرق، وفر إليه فرار الخائف الوجل.

سهام السحر لا تخطئ:

سأل داود جبريل، فقال: «يا جبريل، أى الليل أفضل؟»، قال: «يا داود، ما أدرى إلا أن العرش يهتز من السحر».

وقال سفيان: إن لله ريحًا مخزونة تحت العرش، تهب عند الأسحار، فتحمل الأنين والاستغفار (١).

وتذكر قول حسن البنا- رحمه الله- : إن دقائق الليل غالية، فلا تضيعوها بالغفلة (٢).

فجهز مطالبك، وحدد أهدافك، وكن خفيف النوم، تنتظر دقات الساعة للخلوة بالحبيب.

لا تستوحش من الظلام عندما ترى الكل نائمًا، والكون ساكنًا، فالملائكة فرحة بك، ناظرة إليك، تؤمّن على دعائك.

قال محمد بن قيس: بلغنى أن العبد إذا قام من الليل للصلاة، تناثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه، وهبطت عليه الملائكة لتستمع إلى قراءته، واستمع له عُمَّار داره، وسكان الهواء، فإذا فرغ من صلاته وجلس للدعاء، أحاطت به الملائكة تؤَمّن على دعائه، فإن هو اضطجع بعد ذلك نودى: نم قرير العين مسروراً، نم خير نائم على خير عمل (٣).

قلت لليل كم بصدرك سر ... أنبئنى ما أروع الأسرار

قال ما أضاء فى ظلامى سر ... كدموع المنيب بالأسحار

---

(١) رهبان الليل ١/٦١٧، ٦١٨.

(٢) الرقائق.

(٣) رهبان الليل ١/٥٢٦.

لا تترك الكنـز :

لو بلغنا هنا كنز من المال والذهب ينتظر من يأتيه قبل الفجر لينال منه ما يريد ... هل يغمض لنا جفن؟

فما بالنا نضيع كل يوم كنزاً حقيقياً، ويسبقنا إليه السابقون، الذين استشعروا قيمته، فباتوا سجداً وقياماً ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[السجدة:١٦]

يقول ابن رجب: الليل منهل يرده أهل الإرادة كلهم، ويختلفون فيما يردون ويريدون، قد علم كل أناس مشربهم، فالمحب يتنعم بمناجاة محبوبه، والخائف يتضرع لطلب العفو ويبكى على ذنوبه، والراجى يلح فى سؤال مطلوبه، والغافل المسكين أحسن الله عزاءه فى حرمانه، وفوات نصيبه (١).

وصية البنا :

يقول – رحمه الله– : يا أخى، لعل أطيب أوقات المناجاة أن تخلو بربك والناس نيام، والخلْيون هجع، قد سكن الكون كله، وأرخى الليل سدوله، وغابت نجومه، فتستحضر قلبك، وتتذكر ربك، وتتمثل ضعفك، وعظمة مولاك، فتأنس بحضرته، ويطمئن قلبك بذكره، وتفرح بفضله ورحمته، وتبكى من خشيته، وتشعر بمراقبته وتلح فى الدعاء، وتجتهد فى الاستغفار، وتفضى بحوائجك لمن لا يعجزه شىء، ولا يشغله شىء عن شىء، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، وتسأله دنياك وآخرتك، وجهادك، ودعوتك، وأمانيك، ووطنك، وعشيرتك، ونفسك، وإخوانك، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] (٢).

اسجد واقترب :

لنطل القيام، وكذا السجود، ولنتذكر قول الله– عز وجل– : ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]، ولنعلم جميعًا أنه بدون العمل بهذه الوسيلة ستظل المسافة بعيدة بيننا وبين مولانا، فقيام الليل هو التطبيق العملى لما تعلمناه من القرآن، وفيه تكون للتلاوة طعم خاص.

إن هذه الوسيلة التى تجمع بين تدبر القرآن، وما فيه من كنوز، وبين الركوع والسجود، وما

---

(١) لطائف المعارف ص ٥٠ .

(٢) رسالة المناجاة .

فيهما من معانى الذل والخضوع والانكسار لله- عز وجل- .. لمن أهم وسائل إحياء القلوب، والشعور الحقيقى بالقرب منه- سبحانه- يقول ﷺ: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد» (١).

ولا ينبغى أن تفوتنا ليلة دون قيام - مهما كانت الظروف- والأفضل أن نستيقظ قبل طلوع الفجر بوقت كاف للتهجد والاستغفار، ومن تحول ظروفه دون ذلك- لعذر طارئ ألم به- وخشى عدم الاستيقاظ فى هذا الوقت، فليكن قبل النوم، على سبيل الاستثناء فلا بديل عن أنَّة السحر.

من معينات القيام:

هناك أمور كثيرة تعين العبد على قيام الليل، ذكرها العلماء فى كتبهم، فى مقدمتها أمران:

الأول: وجود رغبة أكيدة للقيام، نترجمها بدعاء الله - سبحانه وتعالى- والإلحاح عليه أن يعيننا على الاستيقاظ.

يا رجال الله جدوا ... رب صوت لا يرد

لا يقوم الليل إلا ... من له عزم وجد

والثانى: أن نعمل على قطع صلة قلوبنا بالدنيا قبل النوم، من خلال ممارسة وسيلة من وسائل استجلاب الخوف من الله- والتى أشرنا إليها سابقًا-، فلقد كان رسول الله ﷺ يُذكِّر الناس بالآخرة فى الليل، لتنهض هممهم ، فعن قبيصة- رضى الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلث الليل قام فقال: «يا أيها الناس ، اذكروا الله، جاءت الراجفة، من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه» (٢).

ولا ننسى النوم على طهارة مع ترديد أذكار النوم.

---

(١) صحيح رواه الإمام أحمد والترمذى والحاكم عن بلال ، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٤٠٧٩) .

(٢) حسن رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة ح (٩٥٤) .

وعندما يمن الله علينا بالاستيقاظ، علينا أن نجلس مع أنفسنا بضع دقائق قبل أن نشرع فى الصلاة، نتذكر فيها ذنوبنا، وحاجتنا إلى عفو الله- عز وجل- ومغفرته؛ كى نقبل على الصلاة بقلوب وجلة مشفقة، طالبة العفو منه- سبحانه-، ونستمر على ذلك حتى ترق قلوبنا، وتشعر بالحنين الدائم إلى مناجاته، وعندها لن نحتاج إلى مثل هذه الجلسات إلا عندما نشعر بشيء من القسوة فى قلوبنا، كما قال أحد الصالحين: متى تهت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق.

الفصل الرابع

مداومة الإنفاق فى سبيل الله

إن المتأمل لكتاب الله عز وجل، وسنة رسوله ﷺ، يجد الكثير والكثير من الآيات التى تحث المسلم على الإنفاق فى سبيل الله، وترغبه فيه من خلال تكرار الحديث عن ثمراته العظيمة فى الدنيا والآخرة.

وعندما نجد حثًا دائمًا ومتكررًا على الإتيان بفعل معين، فإن هذا من شأنه أن يدفعنا إلى المسارعة بتنفيذه، فالله عز وجل – الذى خلقنا – خبير بما ينفعنا، ويحقق لنا السعادة فى الدنيا والآخرة: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

لذلك عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقوله: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وغير ذلك من الآيات التى تتحدث عن أهمية الإنفاق، علينا أن نسأل أنفسنا: أليس الله هو الغنى؟ أليس المال ماله؟ والأرض ومن عليها ملك له؟ فلماذا إذن هذا الترغيب المستمر فى إنفاق المال الذى هو فى حقيقته هبة منه سبحانه وتعالى؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تستدعى من كل منا النظر إلى نفسه، واستعراض ميولها وطموحاتها.. سيجد – من يفعل ذلك – أن أكثر شيء تميل إليه نفسه حب المال والحرص على جمعه كما قال تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠].

هذا الميل، وهذه الشهوة، لا تنطفىء أبدًا، عكس الكثير من شهوات الدنيا، بل على العكس فكلما ازداد المال ازداد النهم تجاهه، كالنار كلما زيد فى وقودها اشتد اشتعالها.

يقول رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»(١).

ولقد خلق الله النفس بهذه الصفة – صفة الشح والحرص على المال – وطالبنا بتطهيرها

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس.

منها، وجعل من أهم وسائل التطهير والتزكية دوام الإنفاق فى سبيل الله.

يقول تعالى: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٨].

ويقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

إن مساعدة الفقراء والمساكين وتجهيز المجاهدين فى سبيل الله أمر هام، وعظيم الفائدة، وأعظم منه مساعدة أنفسنا وفك أسرها من الشح المجبولة عليه.

يقول تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فالشح مفتاح كل شر، ومن شأنه أن يدفع صاحبه إلى الحرص والتشبث بالدنيا، قال أبو الهياج الأسدى: رأيت رجلاً فى الطواف يدعو: اللهم قنى شح نفسى، لا يزيد على ذلك شيئًا، فقلت له: أما تدعو بغير هذه الدعوة؟ فقال: إذا وقيت شح نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل، فإذا بالرجل عبد الرحمن بن عوف(١).

إن بداية انطلاق النفس إلى السماء، وتخلُّصها من جواذب الأرض، هو تطهرها من الشح بدوام الإنفاق فى سبيل الله حتى يصير سجية من سجاياها، فتزهد فى المال ويخرج حبه من القلوب، فلا يفرح صاحبه بزيادته، ولا يحزن على نقصانه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

إنه المنهج السماوى لتزكية النفوس: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وهذا ما كان يهتم به رسول الله ﷺ فى توجيهاته لأمته، ولم لا؟ وقد جعل الله – سبحانه وتعالى – تزكية النفوس وتطهير القلوب من أهم مهماته، قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وعن أنس – رضى الله عنه – قال: ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، قال أنس: وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٣٠٥.

يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها[١].

وعن عائشة – رضى الله عنها – أنهم ذبحوا شاة، فقال النبى ﷺ: «ما بقى منها؟» قالت: ما بقى منها إلا كتفها، قال: «بقى كلها غير كتفها»[٢].

من فوائد الصدقة:

وكما أن للصدقة أثر عظيم فى تزكية النفوس فإن لها فوائد أخرى عظيمة فى الدنيا والآخرة.

فهى أفضل استثمار للمال:

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فَلُوَّه حتى يكون مثل الجبل»[٣].

وهى حجاب من النار:

عن عائشة – رضى الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان»[٤].

وهى ظل لصاحبها يوم القيامة:

عن عقبة بن عامر – رضى الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل امرئ فى ظل صدقته حتى يُقضى بين الناس»[٥].

والصدقة تدفع العذاب وقد ترد الحقوق بين الناس:

عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار، إنكن تكثرن اللعن، وتكفرن

---

(١) رواه مسلم: ٢٣١٢.

(٢) رواه الترمذى: وقال حديث صحيح ٢٤٧٢.

(٣) صحيح، متفق عليه، والفلو: بفتح الفاء، وضم اللام، وتشديد الواو، هو الفرس أول ما يولد.

(٤) حسن، رواه الإمام أحمد فى مسنده، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ٨٥٥.

(٥) صحيح، رواه الإمام أحمد وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما، وأورده الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ح ٨٦٢.

العشير...»[1].

قال ابن حجر فى الفتح: وفى هذا الحديث.. أن الصدقة تدفع العذاب، وأنها قد تكفر الذنوب التى بين المخلوقين[2].

أما فى الدنيا ففوائدها كثيرة ومجربة:

فهى دواء للمرضى:

عن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «داووا مرضاكم بالصدقة»[3].

تدفع البلاء:

عن الحارث الأشعرى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أوحى إلى يحيى ابن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن، ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن (فذكر الحديث إلى أن قال فيه): «وآمركم بالصدقة، ومَثَلُ ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقربوه ليضربوا عنقه، فجعل يقول: هل لكم أن أفدى نفسى منكم؟ وجعل يعطى القليل والكثير حتى فدى نفسه»[4].

يقول ابن القيم فى التعليق على ذلك: هذا من الكلام الذى برهانه وجوده، ودليله وقوعه، فإن للصدقة تأثيراً عجيباً فى دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم، بل من كافر، فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلهم مقرون به لأنهم جربوه[5].

(وفى تمثيل النبى ﷺ ذلك بمن قدم ليُضرب عنقه فافتدى نفسه منهم بماله كفاية، فإن الصدقة تفدى العبد من عذاب الله تعالى، فإن ذنوبه وخطاياه تقتضى هلاكه، فتجىء الصدقة تفديه من العذاب وتفكه منه.

---

(١) متفق عليه.

(٢) فتح البارى: ١/٥٣٦.

(٣) حسن، أخرجه أبو الشيخ فى الثواب، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٣٣٥٨).

(٤) رواه الترمذى، وصححه ابن خزيمة واللفظ له، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، انظر صحيح الترغيب ح (٨٦٦).

(٥) الوابل الصيب: ٥٧.

وفى بعض الآثار: «باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة»(١).

ويقول ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا...»(٢).

تُيَسّر الأمور:

فما من عسير يواجه صاحب الصدقة إلا تيسر بفضل الله عز وجل، وهذا أمر مشاهد أكده القرآن فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

تجلب الرزق:

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل فى فلاة من الأرض، فسمع صوتًا فى سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ مائة فى حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم فى حديقة يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذى سمع فى السحابة، فقال له: يا عبد الله لم سألتنى عن اسمى؟ قال: إنى سمعت صوتًا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان، لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هذا فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالى ثلثا، وأرد فيها ثلثه»(٣).

تقى مصارع السوء، وتطفئ غضب الرب:

عن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقى مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد فى العمر»(٤).

تزيل أثر الذنوب:

عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبى ﷺ فى سفر (فذكر الحديث إلى أن قال فيه:) ثم

---

(١) الوابل الصيب: ٥٩.

(٢) صحيح أخرجه أبو داود وأحمد والنسائى عن عائشة، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (١٦٤٢).

(٣) صحيح، رواه مسلم.

(٤) حسن، رواه الطبرانى فى الكبير وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٣٧٩٧).

قال (يعنى النبى ﷺ) : « ألا أدلك على أبواب الخير؟ » قلت : بلى يا رسول الله قال : « الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما تطفئ الماء النار »(١).

فهل بعد هذا نترك الصدقة؟

عن عمر – رضى الله عنه – قال : ذُكر لى أن الأعمال تتباهى، فتقول الصدقة : أنا أفضلكم(٢).

حجم الإنفاق فى حياة الصحابة :

لقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم – يدركون جيداً أهمية الإنفاق فى سبيل الله ويظهر هذا جلياً فى حرصهم الشديد على البذل فى أوجه الخير.

قال عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – : أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندى، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالى، فقال رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك؟ » فقلت : مثله قال : وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله، قلت : لا أسابقك لشىء أبداً »(٣).

ويقول الأعمش عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – : كنت عنده يوماً، فأتى باثنين وعشرين ألف درهم، فلم يقم من مجلسه حتى يفرقها، وكان إذا أعجبه شىء من ماله تصدق به، وكان كثيراً ما يتصدق بالسُّكر، فقيل له فى ذلك؟ فقال : إنى أحبه، وقد قال تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢](٤).

ولقد اشترى عثمان – رضى الله عنه – بئر رومة بأربعين ألف درهم، وأنفق فى جيش العسرة عشرة آلاف درهم.

وكان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدون له الخراج، فلا يدخل بيته من خراجهم شيئاً...

---

(١) صحيح، رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح، وانظر صحيح الترغيب والترهيب ح(٨٥٨).

(٢) صحيح، رواه ابن خزيمة فى صحيحه، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما، وأورده الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (٨٦٧).

(٣) حسن، أخرجه الترمذى والدارمى وابن أبى عاصم.

(٤) صلاح الأمة فى علو الهمة : ٢ / ٥٢٦.

بل يتصدق بها كلها[1].

ولقد باع طلحة بين عبيد الله أرضًا له بسبعمائة ألف، فبات ذلك المبلغ عنده ليلة، فبات أرقًا من مخافة المال، حتى أصبح ففرقه[2].

وعن أنس – رضى الله عنه – قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه «بيرحاء»، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالى إلى بيرحاء، وإنها صدقة أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ ذاك مال رابح، بخٍ ذاك مال رابح»[3].

وعن نافع قال: كان ابن عمر – رضى الله عنهما – إذا اشتد بشىء من المال، قربة لربه عز وجل، قال نافع: كان بعض رقيقه قد عرفوا ذلك منه، فربما شمر أحدهم فلزم المسجد فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة، أعتقه، فيقول أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، والله ما بهم إلا أن يخدعوك فيقول ابن عمر: فمن خدعنا فى الله انخدعنا[4].

وكان سعد بن عبادة – رضى الله عنه – يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين من أهل الصفة يعشيهم[5].

علاقة الإنفاق بالسير إلى الله – عز وجل –:

للإنفاق فى سبيل الله علاقة وثيقة بالسير إلى الله، فهو وسيلة مؤثرة غاية التأثير – وإن غفل عنها الكثير –، ولا يخطئ من يقول إنه من الوسائل المحورية فى إحياء القلب وإيقاظ الإيمان، فالشح المجبولة عليه النفس، وحب المال المفطورة عليه يشكلان العقبة الكبرى للعبد فى طريقه إلى الله، ولا مناص له من تخطيها.

---

(١) المصدر السابق: ٢/٥٢٩.

(٢) المصدر السابق: ٢/٥٣٠.

(٣) صحيح رواه البخارى ومسلم، انظر صحيح الترغيب والترهيب ح(٨٦٤)، وبيرحاء: موضع بقرب المسجد بالمدينة يعرف بقصر بنى جديلة.

(٤) صلاح الأمة فى علو الهمة: ٢/٥٣٣.

(٥) المصدر السابق: ٢/٥٣٤.

يقول تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ففى الآية الكريمة إشارة إلى أن أمام الإنسان طريقين، طريق للخير وطريق للشر، وهو مخير فى السير فيهما...

طريق الخير يؤدى إلى رضا الله والجنة، وطريق الشر يؤدى إلى غضب الله والنار، فما الذى يمنع الإنسان من ولوج طريق الخير؟ يقول تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١٠ - ١٢].

يخبرنا القرآن أن هناك عقبة فى طريق الخير لابد من اقتحامها كى يستقيم السير فيه، فما هى تلك العقبة؟ يقول تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣ - ١٦]، فالعقبة الكبرى أمام الإنسان هى الشح والحرص، واقتحامها إنما يكون بدوام الإنفاق فى سبيل الله.

والآيات التى تتحدث عن علاقة الإنفاق بالسير إلى الله كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

فالقرب منه فضل، ونيل رحمته فضل، والتلذذ بمناجاته فضل، والهداية فضل... كل هذا وغيره مشروط بالإنفاق فى سبيله مما نحب.

ويقول تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

فمن يرد وجه الله، والقرب منه، فالإنفاق خير وسيلة له.

ويقول تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [التوبة: ٩٩].

فالآية تدل دلالة واضحة على أن الإنفاق يقرب صاحبه من الله - عز وجل -، فهو -سبحانه- قريب غير بعيد: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ولكن نحن الذين ابتعدنا عنه بذنوبنا وغفلاتنا وتقصيرنا فى القيام بحقوقه.

وكما أن الغفلة والذنوب أبعدتنا عنه، فإن الإنفاق وسائر الطاعات تقربنا منه -سبحانه-، وبدوام الإنفاق من العبد يزداد القرب شيئًا فشيئًا إلى أن يدخل فى رحمته - عز وجل - ويصبح من عباده المخلصين.

يقول القرطبى فى قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أى تقربهم من رحمة الله، يعنى نفقاتهم.

ياحسرة على العباد:

فعند الموت يكتشف الغافلون أهمية الإنفاق، ودوره العظيم فى دفع العذاب، فتمنوا من الله أن يؤخر قبض أرواحهم ليتمكنوا من الإنفاق والعمل الصالح.

يقول تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

أرأيت أن أول أمنية يتمنى الإنسان فعلها لو تأخر أجله بعد رؤيته لملك الموت هى الإنفاق فى سبيل الله؟

ما الذى دفعه لذلك؟

لقد اكتشف الحقيقة، وزالت الغشاوة عن عينيه، واكتشف أنه أفنى عمره فى جمع المال لغيره، مع أن الواجب كان يحتم عليه أن ينفقه لما فيه الخير لنفسه.

يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، فهو يريد العودة إلى الدنيا ليعمل صالحًا فيما ترك من أموال وتجارات وأولاد...

وفى الحديث: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، أنَّى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذا؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بُردين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت: أتصدق، وأنَّى أوان الصدقة»(١).

إن للإنفاق أهمية كبرى فى السير إلى الله وإنقاذ العبد من العذاب، فالسير إليه سبحانه إنما يكون بالقلوب، ولا يوجد ما يعطلها عن سيرها مثل الذنوب والمعاصى.

ومن منا لم يعص الله؟

فكل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون كما قال ﷺ(٢).

---

(١) صحيح، أخرجه الإمام أحمد وغيره عن بسر بن جحاش، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح(٨١٤٤) والسلسلة الصحيحة ح (١١٤٣).

(٢) حسن، رواه أحمد والترمذى وغيرهما عن أنس، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٤٥١٥).

فالسعيد من تدارك الفائت، ولحق بالركب، وأتبع السيئة الحسنة فمحاها وأزال أثرها.

وهل هناك أفضل من الصدقة فى محو الخطايا؟

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

فالإنفاق يعين السائر على سيره، ويقربه من مولاه، ويزيل العوائق من أمامه، ويمحو أثر ذنوبه، ويطفئ غضب ربه.

متى تؤتى الصدقة ثمارها:

قد يقول قائل إن الواقع المشاهد لا يؤكد ما أشرنا إليه من فوائد الإنفاق، فالكثير من الناس ينفق من ماله، ومع ذلك لا نرى أثراً لهذا الإنفاق فى حياتهم.

إن مما يفسر هذا الأمر أننا قد نتفق مرة ونبخل مرات، بل ونحسب حساباتنا قبل أى نفقة ننفقها، ونفكر كثيراً فى تأثيرها السلبى على رصيدنا من الأموال.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ [التوبة: ٩٨].

فالذى يعتبر ما ينفقه خسارة، وغرامة، ونقص من رصيده، ليس له أن ينتظر شيئًا من ثواب تلك النفقة.

وكذلك الذى يعطى مرة ثم يتوقف.

قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ﴾ [النجم: ٣٤]، أى: أعطى قليلاً ثم انقطع وتوقف.

إننا إذا ما أردنا أن ننتفع بهذه الوسيلة فعلينا المداومة على الإنفاق حتى يصبح سجية من سجايانا.

فليس المقصد من الإنفاق هو إخراج المال مرة ولو كان كثيراً ثم الانقطاع بعد ذلك فترة طويلة، بل المطلوب هو تتابع الإنفاق فى كل الأحوال والأوقات، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

أهمية تدريب النفس على مداومة الإنفاق:

يقول د. عبد الرحمن حسن حبنكة: إن تدريب النفس على البذل والعطاء مرة بعد مرة يكسبها خلق حب العطاء، ففى المراحل الأولى يكون البذل صعبًا على النفس، ثم يسهل شيئًا فشيئًا، ثم يكون حلوًا، ثم تزداد حلاوته، حتى يكون ممتعًا للنفس ومسعدًا لها، ولقد صور الرسول ﷺ معالجة النفس بهذه الوسيلة تصويرًا غريبًا ودقيقًا.

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل البخيل والمتصدق، كمثل رجلين عليهما جُنَّتان من حديد (أى: درعان من حديد) قد اضطرت أيديهما إلى ثُدِيّهما وتراقيهما، فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كلُّ حلقة بمكانها».

هذا الحديث يصور حالة الأنفس تصويرًا بديعًا، ويمثلها تمثيلاً بارعًا، فيصور الأنفس لدى محاولات البذل والعطاء فى سبيل الله بلابس درع من حديد، وهذا الدرع ضاغطٌ على الصدر، وليس له أكمام تنطلق منه اليدان حتى تتحركا بيسر وسهولة وحرية، يضاف إلى ذلك أن اليدين داخل الدرع مشدودتان على الثديين والترقوتين، فى حالة تشبه الغلّ، وكذلك شح الأنفس يأخذ باليدين فيجعلهما مغلولتين إلى العنق.

ويصور الرسول ﷺ أثر التدريب العملى على البذل بقوله: «فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه» أى: انبسطت عنه حلقات الدرع شيئًا فشيئًا، بتكرار تدريب النفس على دفع الصدقة، وينفرج الدرع الحديدى الضاغط شيئًا فشيئًا، حتى تتحرر اليدان تحررًا تامًا، على أن هذا يختلف من إنسان لآخر، بحسب استعداد النفس ومقدار التدرب.

هذه الصورة التمثيلية تبرز مدى تأثير عمليات التدريب فى اكتساب خلق حب العطاء، ونظيره سائر الأخلاق.

أما الذى لا يعالج نفسه بتحمل مشقة التدريب على اكتساب هذا الخلق، فقد صوره الرسول ﷺ بقوله: «وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها» أى: قلصت الجُنَّة – وهى الدرع – على يديه، وأخذت كل حلقة بمكانها فلم تنفرج، لأنه لم يجد من قوة إرادته ما يغلب به شح نفسه، الذى جاء تمثيله فى الحديث بالدرع الذى تشتد حلقاته وتقلص على الجسم واليدين معًا، وإنما أدخلت اليدان فى الدرع كما جاء فى التمثيل، لأنهما أداة العطاء عادة، وإنما ضُمَّتا إلى الصدر والعنق، لأن هذه الصورة هى صورة

البخل وصورة الشح، وهى الصورة التى يُكنَّى بها عن الشح، ولذلك قال الله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

فالشحيح الذى يجعل يده مغلولة إلى عنقه، ولا ينفق فى سبيل الله، إنسان قصير النظر، يعمل ضد مصلحة نفسه، لأن عمله هذا سيجعله يقعد ملومًا محسورًا على ما فرط فى حق نفسه، وفرط فيه نصيبه من السعادة التى ينالها المنفقون فى سبيل الله(١).

فلنداوم على الصدقة اليومية:

لكى ننتفع بهذه الوسيلة لابد لنا من دوام الإنفاق فى سبيل الله بصورة يومية، فلا يمر علينا يوم إلا ونكون قد تصدقنا فيه.

ولا عذر لأحد فى ترك الإنفاق، فالله - عز وجل - لم يحدد لنا قدرًا معينًا نتصدق به بل جعل - سبحانه وتعالى - الباب مفتوحًا للجميع، كلٌّ حسب استطاعته: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

فلننفق ولو ما يعادل شق تمرة، قال يزيد: كان أبو مرثد لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشىء ولو كعكة أو بصلة(٢).

وفى رواية لابن خزيمة، عن يزيد بن أبى حبيب عن مرثد بن أبى عبد الله اليزنى أنه كان أول أهل مصر يروح إلى المسجد، وما رأيته داخلاً المسجد قط إلا فى كمه صدقة، إما فلوس، وإما خبز، وإما صدقة، قال: حتى ربما رأيت البصل يحمله، قال: فأقول: يا أبا الخير، إن هذا ينتن ثيابك، قال: فيقول يا ابن أبى حبيب، أما إنى لم أجد فى البيت شيئًا أتصدق به غيره، إنه حدثنى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ظل المؤمن يوم القيامة صدقته».

فإن لم نجد ذلك - وهذا أمر قد يكون مستبعداً على الكثير منا - فهناك حلول بديلة منها: حض الناس على الإنفاق فى سبيل الله، وكذلك صنائع المعروف، والسعى فى تضاء

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها: ٣٩٠، ٣٩١ (بتصرف).

(٢) صحيح، رواه أحمد، وابن خزيمة، وابن حبان فى صحيحيهما، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، انظر صحيح الترغيب ح (٨٦٢).

حوائج المحتاجين.

فالصدقة لابد أن تتوالى وتتابع كل يوم، ولا تكون فى وقت السراء والسعة فقط، بل فى الضراء والشدة أيضًا، فكما أشرنا أن مقصدها ليس فقط مساعدة الفقراء والمساكين، وإنما أيضًا مساعدة أنفسنا وتخليصها من رق الشح، لذلك كان من صفات المتقين، ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٤].

أخرج الإمام مسلم وغيره عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنى مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء، فقال: «من يضيف هذا الليلة، رحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شىء قالت: لا، إلا قوت صبيانى، قال: فعلليهم بشئ، فإذا أرادوا العشاء فنوميهم، فإذا دخل ضيفنا فأطفئى السراج وأريه أنا نأكل – وفى رواية: فإذا أهوى ليأكل فقومى إلى السراج حتى تطفئيه – فقعدوا وأكل الضيف وباتوا طاوين، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فقال: «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما».

وأخرج الإمام مالك فى الموطأ أن عائشة – رضى الله عنها – قد سألها مسكينٌ وهى صائمة وليس فى بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطه إياه، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه، فقالت: أعطه إياه، قالت: ففعلت، فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يهدى لنا شاة وكفنها[١]، فدعتنى عائشة – رضى الله عنها – فقالت: كلى من هذا، هذا خير من قرصك[٢].

إن النفقة فى الشدة والضراء لها عظيم الأثر فى تزكية النفس وربطها بالسماء والخروج من رق الأسباب.

يقول ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم» فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «رجل له مال كثير، أخذ من عُرضه مائة ألف درهم تصدق بها، ورجل ليس له إلا درهمان،

---

(١) كفنها: أى ما يغطيها من الرغفان.

(٢) حياة الصحابة: ٢/٣٢.

فاخذ أحدهما فتصدق به »[1].

إن هذا الدرهم الذى أخرجه صاحب الدرهمين ليس له أثرٌ واضحٌ فى تغيير حال الفقراء والمساكين مثل المائة ألف، ولكن أثره على صاحبه يفوق بكثير أثر المائة ألف على صاحبها الموسر.

ولقد كان رسول الله ﷺ يحرص فى توجيهاته للصحابة الكرام على مداومة الصدقة مهما كانت الظروف.

عن أم بُجَيد - رضى الله عنها - أنها قالت: يا رسول الله، إن المسكين ليقوم على بابى فما أجد له شيئًا أعطيه إياه، فقال لها رسول الله ﷺ: « إن لم تجدى إلا ظِلْفًا محرقًا فادفعيه إليه فى يده »[2].

وخلاصة القول إنه لابد من المداومة على الإنفاق لنستمر فى تحطيم القيود والحلقات الحديدية التى تحيط بأنفسنا فنرتقى شيئًا فشيئًا إلى السماء.

فإن قال قائل: ماذا أفعل إن لم أجد فقيرًا أو مسكينًا لكى أُعطيه صدقتى كل يوم؟

الحل فى غاية السهولة واليسر، وذلك بأن نقوم بتخصيص صندوق فى المنزل لهذا الغرض، ونضع فيه صدقاتنا اليومية، وبعد كل فترة نأخذ ما فيه ونعطيه لمن يستحق.

وعلينا أن نبكر بالصدقة لننال دعوة الملكين.

يقول ﷺ: « ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا »[3].

المحروم من حُرم الخير:

إن الصدقة باب عظيم من أبواب الخير، من فاته فهو المحروم بحق.

عن أسماء - رضى الله عنها - قالت: قال لى النبى ﷺ: « لا توكى فيوكى عليك »[4]،

---

(١) حسن، رواه النسائى، وابن خزيمة، وابن حبان فى صحيحه واللفظ له، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) صحيح، رواه الترمذى، وابن خزيمة، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ح (٨٧٢)، والظلف: بكسر الظاء المعجمة للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس.

(٣) متفق عليه عن أبى هريرة.

(٤) رواه البخارى: ح (١٤٣٣).

وفى حديث آخر: «لا تُحصى فيُحصى عليك»[1].

يقول ابن حجر فى شرحه للحديثين: والإيكاء شد رأس الوعاء بالوكاء، وهو الرباط الذى يربط به، والإحصاء معرفة قدر الشىء وزنًا أو عددًا، وهو من باب المقابلة، والمعنى النهى عن منع الصدقة خشية النفاد، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة، لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يُحسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب فحقه أن يعطى ولا يحسب[2].

فلا نبخل على أنفسنا بالخير.

يقول تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فلنؤمن مستقبلنا فى الآخرة بالصدقة، ولنعتق أنفسنا من النار بالصدقة، ولنتذكر صهيبًا الرومى الذى اشترى رضا الله بماله كله، ففيه وأمثاله نزل قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

إنفاق المال طريق الشهادة:

إننا جميعًا نتمنى نيل الشهادة فى سبيل الله، ونردد كثيرًا: والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا.

والطريق السهل الميسر لإقناع النفس بالحب الصادق للشهادة والسعى لنيلها، يبدأ بتحريرها من أسر الشح المجبولة عليه.

فإذا ما تم ذلك تصبح الدنيا بما فيها صغيرة الحجم عندها، فتتطلع إلى شىء آخر يرضيها... يقول تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ - ٢١].

فأى شىء يمكن أن يُجزى به هذا المتصدق ليفرحه؟ المال.. كيف وقد تركه بمحض إرادته؟

إنه يسمو لأمر آخر ليس له علاقة بالأرض والطين.. إنه يسمو لرضا ربه: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

---

(١) رواه البخارى: ح (١٤٣٤).

(٢) فتح البارى.

فالهدف الأساسى من كثرة الإنفاق والمداومة عليه: التخلص من جواذب الأرض، وتعلق القلوب بالدنيا، فإذا تم ذلك للعبد سهل عليه التضحية بنفسه لنيل رضا ربه، فتراه يسعى إلى نيل الشهادة ما وسعه إلى ذلك سبيلاً.

والآيات التى تقدم الجهاد بالمال قبل الجهاد بالنفس الكثيرة.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١].

ويقول - سبحانه -: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

فهلا اقتحمنا العقبة؟

فلنبادر بالصدقة.. عند طلوع الفجر، وانفلاق الصبح.. وعند المرض، ووقوع البلاء، وعند الدعاء.. ولاستجلاب التوفيق والإحسان من رب الأرض والسماء.

وقبل بدء أى عمل هام... وكلما استغلقت علينا أبواب الفهم والتيسير... وبعد الوقوع فى الذنب أو التقصير فى حق من الحقوق.

لنتصدق بالليل والنهار.. فى السراء والضراء... سراً وعلانية.

ولنُذكّر أنفسنا دائماً بقَول الرسول ﷺ: «ما نقص مال عبدٍ من صدقة»(١).

وأخيراً... فخير الصدقة ما أبقت غنىً.

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «خير الصدقة ما أبقت غنىً، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»(٢).

---

(١) صحيح، جزء من حديث رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى كبشة الأنمارى، وأورده الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ح (٨٥٩).

(٢) صحيح، رواه ابن خزيمة فى صحيحه، وأورده الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ح (٨٦٩).

الفصل الخامس

الذكر والفكر

يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وعن أبى الدرداء – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ ذكر الله»(١).

وعن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: «مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه مثل الحى والميت»(٢).

دُور الجنة تُبنى بالذكر:

قال رسول الله ﷺ: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال: يا محمد اقرئ أمتك منى السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»(٣).

فدور الجنة تُبنى بالذكر، فإذا أمسك الذاكر عن الذكر، أمسكت الملائكة عن البناء، فإذا أخذ فى الذكر أخذوا فى البناء(٤).

بالذكر تحيا القلوب:

يقول أبو الدرداء – رضى الله عنه –: لكل شىء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله – عز وجل –(٥).

وينقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية قوله: الذكر للقلب مثل السمك للماء، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء(٦).

---

(١) صحيح رواه الترمذى وغيره، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٢٦٢٩).

(٢) رواه البخارى.

(٣) حسن، رواه الترمذى، وأورده الألبانى فى السلسلة الصحيحة ح (١٠٦).

(٤) الوابل الصيب، ص: ١٦١.

(٥) الوابل الصيب، ص: ٨١.

(٦) المصدر السابق، ص: ٨٥.

وهو الحصن الحصين من الشيطان الرجيم:

يقول ﷺ: «وآمركم أن تذكروا الله تعالى، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعًا، حتى إذا أتى إلى حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يُحرزُ نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»(١).

يقول أبو حامد الغزالى: فإن قلت: فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها؟

فاعلم أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب، فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى كما قال ﷺ: «واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه»(٢).

ويوقل ابن القيم: وكل قول رتب الشارع ما رتب عليه من الثواب، إنما هو القول التام، كقوله ﷺ: «من قال فى يوم: سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه، أو غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر» وليس هذا مرتبًا على قول اللسان فقط... نعم من قالها بلسانه، غافلاً عن معناها، معرضًا عن تدبرها، ولم يواطئ قلبه لسانه، ولا عرف قدرها وحقيقتها، راجيًا مع ذلك ثوابها، حطت من خطاياه بحسب ما فى قلبه، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما فى التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما فى الصف واحدًا، وبين صلاتهما كما بين السماء والأرض(٣).

كيف نحيى قلوبنا بالذكر؟

فإن كان الذكر على مثل هذه الدرجة من الأهمية، فكيف نستفيد منه فى إيقاظ الإيمان وعودة الحياة إلى القلب؟

أو بعبارة أخرى: كيف نذكر الله ذكرًا صحيحًا نافعًا؟

---

(١) صحيح، جزء من حديث رواه الإمام أحمد والترمذى والحاكم وغيرهم عن الحارث بن الحارث الأشعرى، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (١٧٢٤).

(٢) رواه الترمذى والحاكم وابن حبان وغيرهم عن أبى هريرة مرفوعًا، وأورده الألبانى فى السلسلة الصحيحة ح (٥٩٤).

(٣) تهذيب مدارج السالكين ص: ١٨٨.

يقول ابن القيم: فالذكر إما أن يكون بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذكر، وبالقلب وحده تارة، وهى الدرجة الثانية، وباللسان وحده تارة، وهى الدرجة الثالثة.

فأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يثمر المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياة، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويَزَعُ عن التقصير فى الطاعات، والتهاون فى المعاصى والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئًا من هذه الآثار، وإن أثمر شيئًا منها، فثمرة ضعيفة(١).

إن مواطأة القلب للسان فى الذكر أمر شاق على أمثالنا، فما منا من أحد إلا ويشكو عدم القدرة على ذلك.

وهذا الأمر ليس بأيدينا، لأن الذكر يكشف حجم الإيمان فى القلوب، فمهما حالنا تكلف الخشوع وحضور القلب معه إلا أننا بعد فترة قصيرة نكتشف أن اللسان فى واد والقلب فى واد آخر.

فالذكر يخرج ما فى القلب من معانى العبودية لله، وبقدرها تكون المواطأة بينه وبين اللسان، فكما يقول ابن القيم: القلوب كالقدور، والألسنة مغارفها.

فالبداية إذن تكون فى غرس تلك المعانى فى القلوب من خوف، وهيبة، وتعظيم، ورجاء، ومحبة، وإنابة، وخضوع، وفقر، وانكسار لله عز وجل.

والطريق إلى زيادة هذه المعارف فى القلوب يبدأ بكثرة التفكر... التفكر فى القرآن وما فيه من آيات مقروءة، والتفكر فى الكون وما فيه من آيات منظورة.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ففى هذه الآيات المباركات يحثنا الله – عز وجل – على النظر فى ملكوت السموات والأرض والتفكر فى عظيم خلقه، هذا التفكر عندما يقترن بالذكر فإنه يحدث فى القلب مزيدًا من الخشية والإنابة ﴿**سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾.

---

(١) الوابل الصيب ص: ١٨١.

إنها آيات عظيمة ترسم بوضوح كيفية الاستفادة من الذكر ومن الفكر، فلا ينبغي أن نفصل كلاً منهما عن الآخر، ولقد أمرنا رسولنا الحبيب عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم بتدبر هذه الآيات جيداً والعمل بها، فعن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت: لما نزلت هذه الآية على النبى ﷺ قام يصلى، فأتاه بلال يُؤذنُه بالصلاة، فرآه يبكى، فقال: يا رسول الله، تبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: «يا بلال، أفلا أكون عبداً شكوراً، ومالى لا أبكى وقد نزل علىَّ الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ ثم قال: ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر بها»(١).

يقول القرطبى: قال العلماء: يستحب لمن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه، ويستفتح قيامه بقراءة هذه العشر آيات اقتداءً بالنبى ﷺ ثم يصلى ما كُتب له، فيجمع بين التفكر والعمل(٢)، ففى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه بات عند خالته ميمونة، وفيه: فقام رسول الله ﷺ فمسح النوم عن وجهه ثم قرأ الآيات العشر الخواتم من سورة آل عمران، وقام إلى شَن معلق فتوضأ وضوءاً خفيفًا ثم صلى ثلاث عشرة ركعة... الحديث.

فانظروا رحمكم الله إلى جمعه بين التفكر فى المخلوقات ثم إقباله على صلاته بعده(٣).

أهمية ربط الذكر بالفكر:

فكما أن الذكر هو حياة القلوب ومأواها فإن التفكر يورث اليقين، سئل أبو الدرداء: أفترى التفكر عملاً من الأعمال؟ قال: نعم، هو اليقين. وقال الحسن: تفكر ساعة خير من قيام ليلة(٤).

ولكى تتم الاستفادة المرجوة من هاتين العبادتين لابد من الجمع بينهما.

يقول ابن القيم: والتفكر والتذكر منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم(٥).

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وابن حبان فى صحيحيهما.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤/١٩٧.
(٣) المصدر السابق، ٤/٢٠٠.
(٤) نفس المصدر السابق.
(٥) تهذيب مدارج السالكين ٢٣٧.

ويقول الحسن البصرى: إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا القلوب فنطقت بالحكمة(١).

فالبداية تكون بالتفكر، ثم يتبع بالذكر المناسب له، فلو تفكر الإنسان فى ذنوبه وتقصيره فى جنب الله، وتذكر ذلك جيداً، ثم أتبع ذلك بالاستغفار، فسيكون لهذا الاستغفار حرارة وشأن آخر غير الذى يشعر به عندما يبدأ فيه دون أن يلازمه مثل هذا التفكر.

والسر فى ذلك هو تجاوب القلب مع اللسان، لاستشعاره حاجته إلى عفو الله ومغفرته، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ونلمح ذلك أيضاً فى قوله تعالى: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى**﴾ [الأعلى: ١ - ٥].

فهنا الأمر بالتسبيح مقترن بذكر قدرة الله فى خلقه.

ومثل ذلك ما جاء فى سورة الواقعة، فبعد أن توالت الآيات التى تتحدث عن قدرة الله المطلقة والتى من شأنها أن تجعل المتفكر فيها يستشعر عظمته سبحانه وقيوميته... بعد ذلك طالبتنا الآيات بالتسبيح.

يقول تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٤].

إن هذا التسبيح - بلا شك - سيكون تسبيحًا مختلفًا عن ذلك الذى نردده بألسنتنا، وقلوبنا تَسبَح فى بحر الدنيا.

تأهيل القلب للفكر والذكر:

فإذا ما تبين لنا أهمية ربط الذكر بالفكر ليحدث التجاوب بين القلب واللسان، يبقى الحديث حول المجالات التى يكون فيها التفكر.

ونحن هنا لا نأتى بجديد، فالقرآن تحدث عن هذه المجالات كثيراً، وطالبنا مرات ومرات

---

(١) إحياء علوم الدين ٥/٦.

بالقيام بها لأهميتها فى ترسيخ معانى العبودية فى القلب وبلوغ درجة اليقين.

هذه المجالات سيكون لها - بمشيئة الله - أثر عظيم فى قلوبنا إذا ما أفردنا لها أوقاتًا كافية، ومجالس خاصة، شريطة تأهل القلوب وحسن استعدادها لاستقبال واردات تلك المجالات.

وهناك أعمال من شأنها أن تساعد على تأهل القلوب، منها:

١ - الخوف الدائم من الله - عز وجل -:

يقول تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

ويقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ - ٨].

٢ - تدبر القرآن:

فهو من أهم أسباب تأهيل القلب لاستقبال الواردات الإلهية، فهو يجمع بين الذكر والفكر، ويرشد صاحبه إلى مجالات النظر والاعتبار فى صفحة الكون المشهود.

٣ - حياة القلب ويقظته:

فبمقدار النور الذى يحمله تكون قوة بصيرته واعتباره بالآيات، يقول تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠].

٤ - حضور القلب:

فمع كل ما سبق يبقى حضور القلب وعدم انشغاله بأمور أخرى وقت العبادة من أهم عوامل حدوث الأثر المطلوب لها.

يقول ابن القيم: وقد بين الله سبيل حصول المعرفة (فى القلب) فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فالله سبحانه كلامه ذكرى، لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة.

أحدهما: أن يكون له قلب حى واع فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى.

الثاني: أن يصغي بسمعه، فيميله كله نحو المخاطب، فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم به، وهو «الشهيد» أي الحاضر غير الغائب، فإن غاب قلبه، وسافر في موضع آخر، لم ينتفع بالخطاب.

وهذا كما أن المبصر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مبصرة، وحدَّق بها نحو المرئي، ولم يكن قلبه مشغولاً بغير ذلك، فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يحدق نحو المرئي، أو حدق نحوه ولكن قلبه في موضع آخر: لم يدركه، فكثيراً ما يمر بك إنسان أو غيره، وقلبك مشغول بغيره فلا تشعر بمروره، فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره، وكمال الإصغاء[1].

... فهذه الأمور الأربعة من لوازم تأهيل القلب قبل دخوله في مجالات الفكر والذكر، ولعل القارئ يلحظ تأخر ترتيب هذه الوسيلة إلى المرتبة الخامسة كي يكون القلب قد أحسن الاستعداد للتعامل معها.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ٥٦٨.

مجالات الفكر

المجال الأول: التفكر فى خلق الله:

يقول أبو حامد الغزالى: إن الطريق إلى معرفة الله سبحانه، التعظيم له فى مخلوقاته، والتفكر فى عجائب مصنوعاته، وفهم الحكمة فى أنواع مبتدعاته، فيكون ذلك هو السبب فى رسوخ اليقين.

ولقد خلق الله تعالى العقول، وكمَّل هداها بالوحى، وأمر أربابها بالنظر فى مخلوقاته، والتفكر والاعتبار بما أودعه من العجائب فى مصنوعاته، لقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

إلى غير ذلك من الآيات البينات، والدلالات الواضحات، التى يفهمها كل ذى عقل سليم، والترقى فى اختلاف معانيها يُعظِّم المعرفة بالله سبحانه، التى هى سبب السعادة، والفوز بما وعد به عباده من الحسنى وزيادة(١).

يقول تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].

والأمثلة على إبداع الله فى مخلوقاته ليس لها نهاية، ولقد ندبنا - سبحانه وتعالى - إلى التفكر فيها لنصل من خلالها إلى معرفته، واليقين به.

فمن ذلك خلق الإنسان.

يقول تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥].

ويقول تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

---

(١) الحكمة فى مخلوقات الله، ص: ١٥، ١٦ بتصرف يسير.

يقول ابن القيم: وهذا كثير فى القرآن، يدعو العبد إلى النظر والفكر فى مبدأ خلقه ووسطه، وآخره، إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضى الأعمار فى الوقوف على بعضه؛ وهو غافل عنه، معرض عن التفكير فيه، ولو فكر فى نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره، قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ١٧ -٢٢].

فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع ذكر النطفة والعلقة والمضغة والتراب، ولا لنتكلم بها فقط، ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث:

فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة، وهى قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، ولو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت، كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته، مطيعة لمشيئته، مذللة القياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها، إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها، وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذى هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدر اجتماع ذَيْنِكَ الماءين مع بُعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما فى موضع واحد جُعل لهما قراراً مكيناً، لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشرقة علقة حمراء تضرب إلى السواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة فى لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعلها عظاماً مجردة لا كسوة عليها، مباينة للمضغة فى شكلها وهيئتها وقدرها وملمسها ولونها.

وانظر كيف قسم كل الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام، والعروق والأوتار، واليابس واللين، وبَيَّن ذلك، ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال، وكيف كساها لحماً ركَّبه عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظاً، وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها وهى محفوظة به، وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ، ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسَّم

رؤوسهما بالأصابع، ثم قسَّمها بالأنامل، وركَّب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه.

... وشقَّ سبحانه للعبد الفم فى أحسن موضع وأليقه به، وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه، فأودعه اللسان الذى هو أحد آياته الدالة عليه، وجعله ترجماناً لملك الأعضاء، مبيناً مؤدياً عنه كما جعل الأذن رسولاً مؤدياً مبلغاً عنه، فهى رسوله وبريده الذى يؤدى به الأخبار، واللسان بريده ورسوله الذى يؤدى عنه ما يريد.

ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان التى هى جمال له وزينة، وبها قوام العبد وغذاؤه، وجعل بعضها أرحاء للطحن، وبعضها آلة للقطع، فأحكم أصولها وحدد رؤوسها، وبيض لونها، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس، متناسقة الترتيب، كأنها الدر المنظوم بياضاً وصفاء وحسناً.

وأحاط سبحانه على ذلك حائطين، وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما، وهما الشفتان، فحسَّن لونهما وشكلهما ووضعهما، وهيأهما وجعلهما غطاء للفم وطبقاً له، وجعلهما إتماماً لمخارج حروف الكلام ونهاية له، كما جعل أقصى الحلق بداية له، واللسان وما جاوره وسطاً، ولهذا كان أكثر العمل فيها له، إذ هو الواسطة.

واقتضت حكمته أن جعل الشفتين لحماً صرفاً لا عظم فيه ولا عصب، ليتمكن بهما من مص الشراب، ويسهل عليه فتحهما وطبقهما.

وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف، ولا يكاد يشتبه صوتان إلا نادراً.

وكذلك خَلْقُهُ سبحانه لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس مال معاشه، فطوَّلهما بحيث تصلان إلى ما شاء من بدنه، وعرَّض الكف ليتمكن به من القبض والبسط، وقسَّم فيه الأصابع الخمس، وقسَّم كل أصبع بثلاث أنامل والإبهام باثنتين، ووضع الأصابع الأربعة فى جانب والإبهام فى جانب، لتدور الإبهام على الجميع، فجاءت على أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعاً آخر للأصابع سوى ما وُضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلاً.

صنع الرب الحكيم، وتقدير العزيز العليم فى قطرة من ماء مهين، فويل للمكذبين وبُعداً للجاحدين.

ومن عجائب خلقه ما فيه من الأمور الباطنة التى لا تشاهد، كالقلب والكبد والطحال والرئة والأمعاء والمثانة وسائر ما فى بطنه من الآلات العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع.

والمقصود التنبيه على أقل القليل من وجوه الحكمة التى فى خلق الإنسان، والأمر أضعاف ما يخطر بالبال، أو يجرى فيه المقال.

وينتقل ابن القيم إلى خلق السموات فيقول رحمة الله:

فمن هذا صُنعُهُ فى قطرة ماء فكيف صنعه فى ملكوت السموات، وعلوها، وسعتها، واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها، ومقاديرها، وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها؟ فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هى أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما فى الأرض إلى عجائب السموات، قال الله تعالى: ﴿**أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا**﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ**﴾ إلى قوله: ﴿**لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٦٤]، فبدأ بذكر خلق السموات، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وهذا كثير فى القرآن، فالأرض والبحار والهواء، وكل ما تحت السموات - بالإضافة إلى السموات - كقطرة فى بحر، ولهذا قل أن تجئ سورة فى القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخباراً عن عظمتها وسعتها، وإما إقساماً بها، وإما دعاء إلى النظر فيها، وإما إرشاداً للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالاً منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالاً منه بربوبيته على وحدانيته وأنه الله الذى لا إله إلا هو، وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته.

فارجع البصر إلى السماء، وانظر فيها وفى كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ولا تغير فى سيرها، بل تجرى فى منازل قد رُتبت لها بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها وبديعها.

ثم انظر إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة، ثم هى فى كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه ، ولولا طلوعها وغروبها لما عُرف الليل والنهار ولا المواقيت، ولاطبق الظلام على العالم أو الضياء، ولم يتميز وقت المعاش عن وقت السبات والراحة.

وانظر إلى القمر وعجائب آياته كيف يُبديه الله كالخيط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئاً فشيئاً كل ليلة حتى ينتهى إلى إبداره وكماله وتمامه، ثم يأخذ فى النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد فى معاشهم وعبادتهم ومناسكهم، فتميزت به الأشهر والسنون ، وقام به حساب العالم مع ما فى ذلك من الحكم والآيات والعبر التى لا يُحصيها إلا الله.

ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض..

فإنك إذا تأملت هذا السحاب الكثيف المظلم كيف يجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه، وكيف يخلقه الله متى شاء وإذا شاء، وهو مع لينه ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض، إلى أن يأذن له ربه وخالقه فى إرسال ما معه من الماء فيرسله وينزله منه مقطعا بالقطرات، كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته، فيرش السحاب الماء على الأرض رشاً، ويرسله قطرات مفصلة، لا تختلط قطرة منها بأخرى، ولا يتقدم متأخرها، ولا يتأخر متقدمها، ولا تدرك القطرة صاحبتها فتمتزج بها، بل تنزل كل واحدة فى الطريق الذى رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة قطرة، قد عينت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعداه إلى غيره، فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر فى لحظة واحدة لعجزوا عنه.

فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقاً للعباد والدواب والطير والذر والنمل، يسوقه رزقاً للحيوان الفلانى فى الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلانى، فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش فى وقت كذا وكذا.

ثم يقول ابن القيم: ولو أردنا أن نستوعب ما فى آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأنه الله الذى لا إله إلا هو، الذى ليس كمثله شىء، وأنه الذى لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر ولا ألطف: لعجزنا نحن والأولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك، ولكن ما لا يُدرك جميعه لا ينبغى تركه ألبتة والتنبيه على بعض ما

يستدل به على ذلك[1].

فهذه أمثلة للتفكر فى خلق الله، علينا أن نحذو حذوها فى سائر ما يحيط بنا من آيات.

فنتفكر فى الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [غافر: ٦١].

وفى الدواب بأنواعها ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧].

وفى الجبال والبحار والأنهار والنبات والهواء وسائر المخلوقات، ونقرن ذلك بالأذكار المناسبة من تسبيح وتهليل[2].

المجال الثانى: التفكر فى آثار أسماء الله الحسنى:

إن كثرة التفكر فى آثار أسماء الله الحسنى فى النفس والكون يؤدى إلى معرفته واليقين به سبحانه وتعالى.

يقول تعالى: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠].

فلقد سخر الله لنا ما فى السموات وما فى الأرض، وخلق الكون كله بما فيه من مخلوقات لا تعد ولا تحصى ليييسر لنا الحياة على الأرض فنتفرغ لعبادته.. هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإن هذا الكم الهائل من المخلوقات له دور هام فى زيادة معرفة العباد بربهم، فهى شواهد وآثار لأسمائه وصفاته.

ولله فى كل تحريكة ... وتسكينة أبداً شاهد

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

فليست الحكمة من خلق الشمس - مثلا - إمدادنا بالضياء والطاقة فحسب، بل لنتفكر فيها كآية عظيمة من آيات الله، وكيف أظهر وجودها العديد من أسماء الله وصفاته.. نرى فيها آثاراً لصفات الإبداع والحياة والقيومية والرحمة والقهر و.....

---

(١) مفتاح دار السعادة ٥ - ٤٦ «بتصرف».

(٢) توجد مؤلفات تجمع بعضاً من الحكم فى مخلوقات الله مثل كتاب أبو حامد الغزالى: الحكمة فى مخلوقات الله، وكتاب ابن القيم: مفتاح دار السعادة، كما توجد بعض المؤلفات الحديثة والمواد المرئية مثل أفلام الإعجاز العلمى فى القرآن.

يقول ابن القيم: وإذا اعتبرت بالمخلوقات والمأمورات وجدتها بأسرها كلها دالة على الصفات، وحقائق الأسماء الحسنى... ويكفى ظهور شاهد الصنع فيك خاصة كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب حل جلاله ونعوته وأسمائه، فهى كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها، وتنادى عليها، وتدل عليها، وتخبر بها بلسان النطق والحال، كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها - لو تأملت خطها - ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

تشير بإثبات الصفات لربها ... فصامتها يهدى، ومن هو قائل

فلست ترى شيئاً أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه، وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها، فهى تدل عقلاً وحساً، وفطرة ونظراً، واعتبارا.

... والتفكر يساعد على هذا الإدراك، ولذلك كان من صفات المؤمنين أنهم يتفكرون فى الآيات، فيستدلون بها على توحيده، وصفات كماله، وصدق رسله، والعلم بلقائه... وبذلك وصفهم الله تعالى إذ قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

فالفكر الصحيح المؤيد بحياة القلب، ونور البصيرة، يدل على إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال(١).

فلابد من دوام النظر والتأمل فى آياته سبحانه.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

فكثرة التفكر فى ملكوت السموات والأرض تقودنا إلى اليقين بأنه - سبحانه - ما خلق هذا الكم الهائل من الآيات بلا هدف وغاية.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص: ٦٢٥، ٦٢٦.

فكل مخلوق من مخلوقات الله يمثل شهادة على وحدانيته، ويتجلى فيه بعض آثار صفاته، قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

يالها من خسارة تلك التى نخسرها ونحن نمر على آيات الله دون أن نتدبرها ونستخدم شهادتها فى زيادة معرفتنا به سبحانه.

ويالها من حسرة تلك التى يشعر بها الغافل المعرض عن هذه الآيات عندما ينكشف عنه غطاء الغفلة ويرى الحقيقة عند الموت ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

وسيدرك حجم الظلم الذى أوقعه على آيات الله بإعراضه عنها وعدم اعتباره بها.

يقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فلنبادر قبل فوات الأوان، ولنكثر من التفكر فى آيات الله فى كتابه المنظور، ولنعمل على استخراج آثار صفاته فيها.

يقول ابن القيم: فالمخلوق يدل على وجود خالقه... على حياته وعلى قدرته، وعلى علمه ومشيئته... وما فيه من الإتقان والإحكام ووقوعه على أكمل الوجوه: يدل على حكمة فاعله وعنايته، وما فيه من الإحسان والنفع، ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق: يدل على رحمة خالقه وإحسانه وجوده.

وآثار الكمال: تدل على أن خالقه أكمل منه، فمعطى الكمال أحق بالكمال وخالق الأسماع والأبصار والنطق: أحق أن يكون سميعاً بصيراً متكلماً، وخالق الحياة أحق أن يكون هو كذلك فى نفسه، فما فى المخلوقات من أنواع التخصيصات هو من أدل شيء على إدارة الرب سبحانه ومشيئته وحكمته، التى اقتضت التخصيص... وحصول الإجابة عقيب سؤال الطالب على الوجه المطلوب دليل على علم الرب تعالى بالجزئيات، وعلى سمعه لسؤال عبيده، وعلى قدرته على قضاء حوائجهم، وعلى رأفته ورحمته بهم، والإحسان إلى المطيعين والتقرب إليهم، والإكرام، وإعلاء درجاتهم يدل على محبته ورضاه.

فهذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل، ولهذا دعا سبحانه عباده فى كتابه إلى الاستدلال بذلك على صفاته، فهو يثبت العلم بربوبيته ووحدانيته، وصفات كماله بآثار

صفته المشهودة، والقرآن مملوء بذلك، فيظهر لمشاهد اسم «الخالق» من نفس المخلوق، واسم «الرازق» من وجود الرزق والمرزوق وشاهد اسم «الرحيم» من شهود الرحمة المبثوثة فى العالم، واسم «المعطى» من وجود العطاء الذى هو مدرار لا ينقطع لحظة واحدة، واسم «الحليم» من حلمه عن الجناة والعصاة وعدم معاجلتهم، وهكذا كل اسم من أسمائه الحسنى له شاهد فى خلقه وأمره، يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله، فالخلق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته(١).

ومفتاح التفكر فى آثار الأسماء الحسنى هو القرآن، وتأتى السنة المطهرة بعده.

يقول د. عمر الأشقر: إن الطريق الآمن الذى يقودنا إلى معرفة البارى جل وعلا هو طريق الوحى الذى جلّى لنا هذا العلم أعظم تجلية، وهذا السبيل سبيل نيِّر مأمون العواقب لأن مصدره العليم الخبير ورسوله الكريم.

ولا يوجد أحد أعلم بالله من الله، كما لا يوجد فى خلق الله أحد أعلم بالله من رسول الله ﷺ(٢).

وهناك طريقتان يمكننا اتباعهما علينا التفكر فى هذا المجال:

الأولى: التفكر فى آثار صفة من الصفات فى أكثر من آية مشهودة.

والثانية: التفكر فى آثار الصفات فى آية واحدة.

والقرآن مملوء بالآيات التى تشير إلى الطريقتين.

فللنظر إلى الآيات والاستدلال من خلالها على صفة من الصفات الإلهية أمثلة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [النور: ٤٥].

فالآية تشير إلى آثار متعددة لصفة «القدير».

يقول تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام: ٥٩].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص: ٦٢٤.

(٢) أسماء الله وصفاته فى معتقد أهل السنة والجماعة، ص: ١٥.

فهنا آثار عديدة لصفة العليم.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

أما الطريقة الثانية والتى نتعرف من خلال التفكر فيها على آثار الأسماء والصفات فى آية واحدة من آيات الله المنظورة فالأمثلة عليها:

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

فهنا علينا أن ننظر إلى الطعام الذى نأكله ونتفكر فى آثار صفات الله التى من خلال وجودها تيسر لنا هذا الطعام، فنرى فيه آثار لصفات: الحى، القيوم، الرحيم، المحيط، القدير، البديع، اللطيف...

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

فهنا التفكر فى الماء وكيف أظهر الكثير من صفاته سبحانه.

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

فاللبن آية عظيمة أظهرت العديد من أسماء الله الحسنى.

وكذلك العسل...

يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

ومن خلال التفكر بهاتين الطريقتين يمكننا أن نحصى آثار أسمائه الحسنى فى

مخلوقاته، فننظر فى آية من الآيات كالماء أو الهواء أو الطعام أو الشجر أو الرياح أو... ونحصى آثار صفات الله – عز وجل – التى أظهرتها تلك الآية.

وفى المقابل نتفكر فى صفة من الصفات وآثارها فى الكون، فعلى سبيل المثال: لو تفكرنا فى صفة القهار لوجدنا من آثارها: النوم، المرض، الموت.. وهكذا.

ولقد جمع القرآن بينهما فى قوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت: ٥٣].

فنستدل من الآيات عليه سبحانه، ونتعرف على آثار أسمائه وصفاته فى آياته.

ضوابط لابد منها:

ومع التفكر فى هذا المجال علينا أن نضبطه بمعتقد أهل السنة والجماعة فى الأسماء والصفات كى لا نقع فى شبهة تشبيه أو تعطيل أو تأويل.

يقول د. عمر الأشقر: لخص ابن تيمية مذهب السلف الصالح فى هذا الباب فقال: الأصل فى باب الصفات أن يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسول الله نفياً وإثباتاً.

وقد عُلم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل(١).

ويفضل الاطلاع على كتاب من الكتب التى صنفها العلماء فى هذا الباب، ومنها كتاب « شرح العقيدة الطحاوية » لمحمد بن محمد بن أبى العز الحنفى، وكتاب « أسماء الله وصفاته فى معتقد أهل السنة والجماعة » وكتاب « العقيدة فى الله » لعمر الأشقر، وكذلك رسالة العقائد لحسن البنا.

ومن الضوابط المهمة أيضا فى هذا المجال ترك البحث فى حقيقة الذات الإلهية، وقد نهى الرسول ﷺ عن التفكر فى ذات الله، وأمر بالتفكر فى خلق الله، ففى الحديث: عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله »(٢).

ولقد بين رسول الله ﷺ طريقة دفع وساوس الشيطان فى هذا الباب، قال ﷺ: « إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول: من خلق السماء؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الأرض؟

---

(١) العقيدة فى الله، ص: ٢٥٢، نقلاً عن مجموع الفتاوى ٣/ ٣٠٠.

(٢) حسن، رواه ابو الشيخ والطبرانى فى الأوسط، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح(٢٩٧٥).

فيقول: الله، فيقول: من خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل: آمنت بالله ورسوله»[1].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه، فليستعذ بالله ولينته»[2].

فهذا الحديث يشير إلى وسيلة مهمة لدفع تلك الوساوس بالاستعاذة بالله من الشيطان، وصرف الذهن عن الاستطراد في تلك الخواطر، والانشغال بأمر آخر.

ومن وسائل دفعها أيضاً ما جاء في الحديث «يوشك الناس يتساءلون، حتى يقول قائلهم: هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ثم ليتفل عن يساره ثلاثاً وليستعذ من الشيطان»[3].

إن الشيطان لا يريد الخير لأحد منا فعلينا مراغمته ومحاربته بالأسلحة التي دلنا عليها الله ورسوله.

وقبل أن ننهي الحديث عن هذا المجال ننقل كلاماً للإمام ابن القيم ينبهنا فيه على أهمية التفكر في آثار الأسماء الحسنى فيقول رحمه الله: فالسير إلى الله عن طريق الأسماء والصفات شأنه عجب، صاحبه قد سيقت له السعادة وهو مستلق على فراشه غير تعب ولا مكدود، ولا مشتت عن وطنه ولا مشرد عن سكنه ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**﴾ [النمل: ٨٨].

وليس العجب من سائر في ليله ونهاره وهو في الثرى لم يبرح مكانه، وإنما العجب من ساكن لا يرى عليه أثر السفر وقد قطع المراحل والمفاوز..

فشتان ما بين من يتلقى أحواله وواراداته عن الأسماء والصفات، وبين من يتلقاها عن

---

(١) صحيح، رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمرو، وصححه الألباني في صحيح الجامع ح (١٦٥٦)، وفي السلسلة الصحيحة ح (١١٦).

(٢) متفق عليه، انظر صحيح الجامع ح (٧٩٩٣) والسلسلة الصحيحة ح (١١٧).

(٣) حسن رواه أبو داود عن أبي هريرة، وأورده الألباني في صحيح الجامع ح (٨١٨٢) والسلسلة الصحيحة ح(١١٨)

الأوضاع الإصطلاحية والرسوم، أو عن مجرد ذوقه ووجده...[1].

المجال الثالث: التفكر فى عبودية الكون والتفاعل معها:

فالكون الذى نعيش فيه كما يقول خالد أبو الفتوح: كون يسبح الله - عز وجل -.. سماواته وأرضه، بره وبحره، جباله وسهوله، جماده وحيواناته، إنسه وجنه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [الإسراء: ٤٤].

بل إن هذا الكون يذعن بالعبودية لله - تعالى - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، والمسلم يؤمن بأنه ليس وحده فى هذا الكون الذى يؤمن أن محمداً ﷺ رسول الله، كما قال ﷺ: «إنه ليس بين السماء والأرض إلا يعلم أنى رسول الله، إلا عاصى الجن والإنس»[2].

كون يغار على توحيد الله جل وعلا ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً﴾ [مريم: ٨٨ - ٩١]، جباله مهيأة للتأثر بالقرآن ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ومن حجارته ما يُرى عليه أثر خشية الله خلافاً لكثير من قساة القلوب من البشر ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، بل صاحبت بعض الجبال والطير نبياً من أنبياء الله فى عبادته ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، ويحدث هذا التفاعل مع كل مسلم موحد «ما من ملب يلبى إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا»[3].

ولا غرو بعد ذلك أن تتشابه حركة المسلم فى عبادة كالحج مع الكون من أصغره إلى

---

(١) طريق الهجرتين، ص: ٢١٥، ٢١٦ (بتصرف يسير).

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده، وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

(٣) أخرجه ابن ماجة والترمذى، وصححه الألبانى فى مشكاة المصابيح ح(٢٥٥٠).

أكبره، فدورانه حول الكعبة فى الطواف يشبه - فى الشكل والاتجاه - دوران الإلكترون حول النواة فى الذرة، كما يشبه دوران الكواب حول النجم فى المجرة، وعدد مرات طوافه وعدد مرات سعيه هو نفسه عدد السموات وعدد الأرضين: سبعة.

ويحس المسلم أن فى الكون من الحيوانات والجمادات ما يتودد إليه، فعن أبى ذر - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس من فرس عربى إلا يؤذن له مع كل فجر، يدعو بدعوتين، اللهم خولتنى من خولتنى من بنى آدم فاجعلنى من أحب أهله وماله إليه»(١)، وفيه ما يعينه على تحسس الخير والابتعاد عن الشر، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطاناً(٢)، وفيه ما يستغفر له، فعن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وإن العالم ليستغفر له من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء»(٣).

وفى حس المسلم أنه ليس وحده الذى يؤمن بقيام الساعة، ولكن الكون كله يترقب معه قيامها، ويشفق منها إشفاق العبد الوجل: عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «وما من دابة إلا وهى مُسِيخَة [منصتة] يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس، شفقا من الساعة، إلا الجن والإنس...(٤)، ... وفيه [أى: يوم الجمعة] تقوم الساعة، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة»(٥).

مشاعر متبادلة مع الكون كله:

ومن هذه العلاقات تنبثق مشاعر الحب والبغض، والموالاة والمعاداة عند المسلم، علاقات ومشاعر متبادلة بينه وبين الكون كله.

فالسماء والأرض لا تبكيان على موت الكافرين والطغاة ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ

---

(١) صحيح، أخرجه الإمام أحمد وغيره، انظر صحيح الجامع ح(٢٤١٤).

(٢) صحيح، أخرجه البخارى ومسلم.

(٣) صحيح، صحيح سنن الترمذى ح(٢١٥٩).

(٤) صحيح، أخرجه الإمام أحمد والنسائى، وصححه الألبانى فى إرواء الغليل ح(٧٧٣).

(٥) حسن، حسنه الالبانى فى مشكاة المصابيح ح(١٣٦٣).

﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩]، بخلاف المؤمن الذى يبكى عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله إلى السماء - كما ورد عن على وابن عباس رضى الله عنهم - (١).

والمسلم قد يتبادل مشاعر المحبة مع جبل أصم، عن أنس - رضى الله عنه - قال: نظر رسول الله ﷺ إلى أحد فقال: «إن أحداً جبل يحبنا ونحبه»(٢)، ومن ثم فمن مقتضيات هذه المحبة عدم إزعاج المحب لمحبوبه، عن قتادة أن أنس بن مالك - رضى الله عنه - حدثهم أن النبى ﷺ صعد أحداً، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدين»(٣).

والحجر والشجر يناصران أهل التوحيد، ويتعاونان معهم، عن أبى هريرة - رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبدالله، هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»(٤) فحتى الحجر والشجر يوالى ويعادى على أساس الدين.

والمسلم ينظر إلى الهلال فيرى العلاقة المشتركة معه أن «ربى وربك الله....»(٥) وهو منهى عن لعن الريح، فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً لعن الريح عند النبى ﷺ، فقال: «لا تلعن الريح فإنها مأمورة»(٦).

والمسلم لا ينسى للوزغ عداءه القديم لخليل الرحمن، فيبادله العداوة بمثلها، عن عائشة -رضى الله عنها - قالت: «... فإن رسول الله حدثنا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى فى النار لم تكن فى الأرض دابة إلا تطفئ النار عنه، غير الوزغ كان ينفخ عليه، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله»(٧)، بينما دواب أخرى يلتقى المسلم معها فى تسبيح ربها ودعوتها

---

(١) انظر: تفسير الآية عند ابن جرير الطبرى رحمه الله.

(٢) أخرجه مسلم، ك/ الحج، ب/ ٩٢، والبخارى ك/ المغازى، ب/ ٢٨.

(٣) أخرجه البخارى ك/ فضائل الصحابة، ب/ ٥.

(٤) أخرجه مسلم ك/ الفتن، ب/ ١٨، والبخارى مختصراً ك/ الجهاد، ب/ ٩٤.

(٥) أخرجه الترمذى ك/ الدعوات، ح (٣٤٥١)، وأحمد، والحاكم، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة ح(١٨١٦).

(٦) أخرجه الترمذى/ البر والصلة، ح(١٩٧٨)، وأبو داوود، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة ح(٥٢٨).

(٧) أخرجه أحمد ٦/ ٨٣، ١٠٩، ٢١٧، وابن ماجة ك/ الصيد، ح(٣٢٣١)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة ح(١٥٨١).

إلى التوحيد ونفعها، نُهى المسلم عن قتلها، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال «إن النبى ﷺ نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّرَد»(١)، وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله ﷺ: «أن نملة قرصت نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى إليه: أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح»(٢)، وعن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال: نهى النبى ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: «إن نقيقها تسبيح»(٣) انتهى(٤).

وحدة العبودية فى الكون:

(فوحدة العبودية وتكاملها فى أجزاء هذا الكون حقيقة يراها المتفكر، إذا استطاع أن يفلت من الصخب الملهى، ويتأمل فى هدوء وروية.

عبودية لا يشوبها الوساوس، لبساط الأرض جميعه، حشائشه والباسقات، نبهك القرآن لها فى قوله عز وجل: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، قال الطبرى: يعنى بالنجم: ما نجم عن الأرض من نبت، وبالشجر: ما استقل على ساق.

فهو منظر سجود دائم يراه المؤمن ليكون له تذكرة حين تثقله الغفلة، يديم له سجوداً قلبياً، آيته الرضا عن الله.. به يستكمل سجود جبهته مغزاه.

ومتى ذاق المؤمن بالخلوات المسترسلة لذة مراقبة هذا السجود الأخضر المتوشح بألوان الزهر، وأذن لقلبه أن يبالغ فى الهبوط مقلدا حتى يلامس أوطأ الإخبات نادى غيره للمشاركة)(٥):

سل الواحة الخضراء والماء جاريا
وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى.

---

(١) أخرجه أبو داوود ك/ الأدب، ح(٥٢٦٧)، وابن ماجة ك/ الصيد، ح(٣٢٢٤)، وأحمد ١/٣٢٢، ٣٤٧، وصححه أحمد شاكر فى تعليقه على المسند ح(٣٠٦٧).

(٢) أخرجه مسلم ك/ السلام، ب/ ٢٩، وابن ماجة.

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ح(٧٣٩٠).

(٤) مجلة البيان العدد ١٤٩، مقال بعنوان «توحيد المشاعر علاقة ممتدة» لخالد أبو الفتوح، ٢٦ – ٣٠.

(٥) الرقائق، لمحمد أحمد الراشد، ص: ٣٨ – ٤٨.

سل الليل والإصباح والطير شاديا

وسل هذه الأنسام والأرض والسما

وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا

سبحت الكائنات بحمده فملأ الكون تحميده... يسبحه النبات جمعه وفريده، والشجر عتيقه وجديده، يمجده رهبان الطيور فى صوامع الأشجار فيضرب السامع تمجيده.. ما أصغى إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوى ريح ولا قعقعة رعد إلا أجده مردداً ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

تسبحه نغمات الطيور — يسبحه الظل تحت الشجر

يسبحه النبع بين المروج — يسبحه دوما أريج الزهر

يسبحه النور بين الغصون — وسمر المساء وضوء القمر[١]

فلنعمل على التفاعل مع الكون، ولنستشعر تسبيحه معنا، فبالمداومة على ذلك ستزداد العلاقة بيننا وبينه شيئاً فشيئاً.

يقول مالك بدرى: وإن لم يفقه المتفكر تسبيح الكون، لكنه يحسه إحساساً لا يتطرق إليه الشك، ويشعر بتلاحم وتناغم تسبيحه مع تسبيح كل المخلوقات ويزداد هذا الإحساس عمقاً مع مداومة الفكر حتى يصل إلى قمم روحية سامية، وإلى شعور بالسرور واللذة الروحية التى لا يشبهها من نعيم هذه الدنيا شيء[٢]....

المجال الرابع: التفكر فى النعم والعمل على إحصائها:

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

فالله – عز وجل – يطلب من الناس ذكر نعمه عليهم ليصلوا إلى النتيجة الحتمية: أنه لا يوجد خالق غير الله يرزقهم من السماء والأرض.

فإذا ما ترسخت تلك الحقيقة فى أذهانهم سهل عليهم بعد ذلك القيام بمقتضياتها.

---

(١) موارد الظمآن ص: ٨٤ – ٨٦.

(٢) التفكر من المشاهدة إلى الشهود.

إنها دعوة متكررة فى القرآن تطالبنا بذكر نعم الله، لعلنا نستشعر فضله العظيم علينا فيقودنا ذلك إلى العمل الدائم على شكره سبحانه.

إن مجالس ذكر النعم لمن الأهمية بمكان لمن يريد الفلاح فى الدنيا والآخرة، تأمل ما قاله هود - عليه السلام - لقومه ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

فلابد من عقد هذه المجالس مع أنفسنا، ومع أهلنا لنتفكر فى نعم الله علينا، ونعمل على إحصائها بشتى الوسائل حتى نصل إلى مرحلة اليأس من عدها كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وبتكرارها يستشعر الإنسان تقصيره الشديد فى حق الله عز وجل، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فلو تفكرنا فى نعمة الخلق وكيف كنا فى العدم، ثم أصبحنا فى بطون أمهاتنا لا نملك من أمرنا شيئاً، ثم صار لنا سمع وبصر وفؤاد.. ولو تفكرنا فى هذا كله فإن من شأنه أن يدفعنا إلى العمل على شكر هذه النعم.

إن جميع ما خلق الله لنا من نعم له مقابل لابد من الوفاء به.. هذا المقابل هو الشكر، يقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

فالعبودية الصحيحة تستوجب الشكر ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

وكل النعم التى أوردها الله علينا - صغيرها وكبيرها - تستوجبه، يقول تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

فتسخير الدواب لنا نعمة تستحق الشكر.

ويقول تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾

[الأنبياء: ٨٠]، ويقول تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ – ٣٥].

فهذه أمثلة لنعم لا نستشعر حجمها ولا نقدرها قدرها.

ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

إن فضل الله علينا كبير، ولكننا لا نستشعره لنسياننا نعمه... يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠].

ولن نستطيع معرفة حجم الشكر المطلوب منا إلا إذا جلسنا مع أنفسنا، وقمنا بالعمل على إحصاء النعم بشتى أنواعها، وكلما كان الإحصاء دقيقاً كانت الفائدة كبيرة، ولنبدأ في كل مجلس من حيث انتهينا، وبكتابتها يسهل العودة إليها لتُحدث الأثر المطلوب.

وفي مثل هذه المجالس علينا أن نكثر من التسبيح والحمد والاستغفار فنربط بذلك بين الفكر والذكر المناسب له.

المجال الخامس: التفكر في شكل الحياة بدون بعض النعم:

إن استمرار ورود النعم على الإنسان، وعدم تغيرها عليه قد يجعله ينسى المنعم، ولكن عندما يتفكر الإنسان في شكل حياته إذا ما سُلبت منه بعض النعم فإن هذا من شأنه أن يشعره بعظيم فضل الله عليه، ويدفعه إلى العمل على شكر نعمه، وينتابه شعور دائم بالخوف من سلبها.

ومن رحمة الله بعباده تذكيره الدائم لهم بحجم النعم التي أوردها عليهم، من خلال ابتلاء البعض منهم بأمراض في أماكن مختلفة من الجسم، ليدركوا قيمة العافية فيزداد انكسارهم وعبوديتهم لربهم.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

فعلينا دوام التفكر في هذا المجال، ونتخيل حياتنا دون نعمة البصر أو الكلام أو السمع أو المشي أو التفكير.

نتخيل كيف تكون الحياة عندما يحدث خلل فى وظائف أعضاء الجسم كالقلب، والكبد، والرئتين، والكليتين، وقل مثل ذلك على الأجهزة المختلفة كجهاز المناعة والامتصاص والإخراج والتمثيل الغذائى..

ولنتفكر فى حجم الأمراض التى قد تصيبها لندرك قيمة ما نحن فيه من تمام العافية.

والقرآن ملئ بالآيات التى تذكرنا بنعم الله – سبحانه وتعالى – علينا، وتطلب منا تخيل الحياة بدونها.

يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ – ٧٠].

فهلا تفكرنا فى الحياة بدون ماء زلال كيف تكون؟

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

وهلاّ تفكرنا فى يوم لا تغيب شمسه، ولا يأتى ليله؟

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ – ٧٣].

إن هذا المجلس من أنفع المجالس التى ينبغى أن يجلسها الواحد منا مع نفسه... ففى واحدة منها يتفكر – على سبيل المثال – فى نعمة البصر وكيف تكون الحياة بدونها، وكيف أن الله لم يسلبها منه كما سلبها من بعض الناس، وفى مجلس آخر يتفكر فى نعمة السمع، وكذلك نعمة الأمن، والستر، ونعمة الإسلام والهداية وهى أجل النعم، ويقابل هذا كله بأضدادها ليدرك كم هو غارق فى نعم ومغمور بها.

يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

إن التفكر فى شكل الحياة بدون النعم من الأهمية بمكان ليدرك الإنسان مدى عجزه، وضعفه، وتقصيره فى جنب الله، فإذا ما أتبع ذلك بالذكر المناسب مثل «لا حول ولا قوة إلا

بالله» و«لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين» فإنه بعون الله سيجد قلبه معه حاضراً مستشعراً معانى تلك الأذكار.

المجال السادس: التفكر فى الماضى:

يقول تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

فالإنسان كثيراً ما ينسى ماضيه، وكيف كان حاله من فقر أو مرض أو ضلال أو فسق... هذا النسيان قد يؤدى به إلى عدم إدراك حجم النعم التى تُحيط به، ومن هنا تبرز أهمية عقد مثل هذا المجلس.

وهناك أمثلة كثيرة فى القرآن على ذلك.

ففى آيات متعددة يُذكّر الله - عز وجل - بنى إسرائيل بحجم النعم التى تفضل بها عليهم، ليعودوا إليه، وينكسروا له، ولا يتمادوا فى ظلمهم وطغيانهم.

يقول تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٧ - ٥٠].

وتستمر الآيات فى تذكير بنى إسرائيل بماضيهم وما فعلوه، وبما منّ الله عليهم من نعم عظيمة، كى لا يستمروا فى الطريق الذى ساروا فيه: طريق الظلم وكفران النعم.

إنها طريقة قرآنية عظيمة لابد لنا أن نتبعها ليزداد انكسارنا واستسلامنا لمولانا، يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

فلن نستشعر نعمة الهداية، وندرك حجمها إلا إذا تذكرنا ماضينا، وكيف كنا فى ضلال مبين.

ولقد كان الرسل يتبعون تلك الوسيلة فى دعوة قومهم.

يقول تعالى على لسان شعيب - عليه السلام - وهو يخاطب قومه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ

﴿قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

إن ذكر الماضى من شأنه أن يزيد القلب فقراً وانكساراً لله - عز وجل -، ويمحو أى أثر لغرور أو تكبر على الآخرين.

تأمل قول الله - عز وجل - مخاطباً المهاجرين بعد بدر ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وتأمل قوله سبحانه للأنصار: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وتذكيره للصحابة بما حدث يوم الأحزاب، وكيف كان النصر منه وحده - سبحانه -، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٩ - ١١].

فليجلس كل منا مع نفسه وليتفكر فى ماضيه، وكيف كان ضالاً فاسقاً يتبع الشهوات فمنَّ الله عليه بالهداية والرشاد.

ويتفكر كذلك فى حالة أيام الضيق والفقر والمرض والوحدة، وكيف أبدله الله ذلك بنعم لا تعد ولا تحصى.

وفى أثناء ذلك علينا ترديد الأذكار المناسبة لهذا المجلس، والتى تستخرج من القلب معانى الحمد والفقر لله عز وجل.

المجال السابع: التفكر فى حقيقة الفقر إلى الله:

وهذا مجال عظيم من مجالات التفكر، بل إنه مفتاح العبودية.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧].

ففقرنا إلى الله فقر ذاتى لا تغيره العوارض، وهو يشمل جميع جوانب الحياة، ومهما ادعى المدَّعون بقدرتهم على الاستغناء عنه سبحانه إلا وتأتى عليهم لحظات يشعرون فيها بمدى ضعفهم وفقرهم إليه.

ففى مجال حفظ الحياة:

لنتفكر فى القلب -على سبيل المثال - وكيف يعمل؟ وكم مرة يضخ فيها الدم إلى جميع أنحاء الجسم فى الدقيقة الواحدة؟.. وماذا لو توقف دقائق عن هذا العمل؟ ماذا سيحدث للأعضاء؟ وماذا سيحدث للمخ؟

إن هذا القلب يعمل ليل نهار منذ أن خلقنا الله عز وجل، ولم يأخذ فترة راحة واحدة.. من الذى يحفظه؟

ولنتفكر فى وظيفة الكليتين ودورهما الحيوى فى حفظ الحياة.

هل تعلم أن الدم يمر عليها بمعدل مائة مرة فى الدقيقة - على المتوسط - لتنقيته من السموم؟ تخيل أنها توقفت يوماً فى العام، بل بضع ساعات، ماذا سيحدث لك/ وكيف يمكنك أن تعيدها إلى العمل مرة أخرى؟

وقل مثل ذلك على بقية أجزاء الجسم من مخ، وأعصاب، وغدد، وكبد، ومعدة، وأمعاء، وعظام، ونخاع، وعضلات، وكذلك الأجهزة المختلفة كجهاز المناعة، والتنفس، والامتصاص، والإخراج، والجهاز التناسلى، والبولى، والدم وما يحتويه، والحواس من سمع وبصر، و.....

إن هناك آلاف الأسباب التى لابد من توافرها جميعاً فى آن واحد كى نستطيع أن نحيا حياة طبيعية.

ولابد كذلك من استمرار وجودها على مدار الوقت..

فمن الذى يحفظها لنا؟

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

فلنتفكر فى ذلك، ولنتفكر فى حجم الأمراض التى يمكن أن يصاب بها كل عضو من أعضاء الجسم، لندرك مدى فقرنا وحاجتنا إليه سبحانه.

لنتفكر فى عدد الفيروسات والجراثيم التى يمكن أن تهاجمنا، ومع ذلك فنحن نتمتع

بالصحة والعافية.

إن كمَّ الأمراض الهائل التى يمكن أن يصاب بها الإنسان يجعلنا – بالحسابات المادية – نخرج بنتيجة تقول: إن الأصل هو المرض، أما الصحة فهى أمر نادر الحدوث.

هذه النتيجة تختلف اختلافاً جذرياً مع الواقع، فكما نرى أن الأصل هو الصحة والعافية عند الغالبية من الناس، والمرض عكس ذلك.

إن هذا يحدث بفضل الله وحفظه ورعايته لنا ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

فأى فقر إليه سبحانه ينبغى أن نعيش فيه؟

إننا بحاجة إلى حفظه ورعايته، وتوالى إمداده لنا بأسباب الصحة والعافية بعدد أنفاسنا.

والذى يشك فى ذلك عليه أن يسأل نفسه: ماذا لو نقص الهواء المحيط بنا؟ وماذا لو فُقد الماء أو الغذاء؟

هذا فى جانب حفظ الصحة والعافية، أما فى جانب دوام حفظ الأمن والستر: فلو تفكرنا فى الأسباب التى يمكن أن تجعلنا نفقد هذه النعمة، من حدوث زلازل وبراكين، وفيضانات وصواعق، وحرائق وجرائم، لأدركنا مدى حاجتنا إليه – سبحانه– وإلى أمنه وستره.

أما فى جانب الهداية فالفقر إليه – عز وجل – أشد وأشد.. فجميعنا لو تُرِك لنفسه ما ثبت لحظة، وسيكون الضلال والفسق والإجرام أقرب إليه من شراك نعله.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١].

فلا طاقة لأحد بنفسه، وإلحاحها وطلباتها الدائمة بالحصول على الشهوات، ولولا فضل الله علينا ورحمته لكنا مع المجرمين أو الفاسقين.

لنتفكر فى عُبّاد الصليب والبقر والشمس والقمر.. ولنسأل أنفسنا: ماذا لو نشأنا فى تلك البيئات، ووجدنا آباءنا ممن يعبد هذه الأوثان؟ ولماذا وجدناهم مسلمين موحدين؟ تفضلٍ منا؟ أم بموهبة لدينا؟ أم أنه محض فضل من الله عز وجل؟

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن دخول الإيمان فى قلوبنا نعمة عظمى منه وحده – سبحانه وتعالى – ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ومع هذا الفضل العظيم فإن الثبات على الحق، وعدم زيغ القلب إلى الهوى فضل منه سبحانه، لا يستطيع أحد من البشر مهما كان إيمانه أن يدَّعيه لنفسه ولو للحظة واحدة.

ألم يقل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]؟

وكذلك قال شعيب – عليه السلام – ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وهذا رسول الله ﷺ سيد المرسلين يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، ويقول: «إنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة، وذنب وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك».

فقد يصلي المرء الفجر في الصف الأول بالمسجد، ثم يكون في كنيسة يترنم بترانيم النصارى وقت صلاة الظهر.. كل ذلك قد يحدث إذا ما تخلى عنه ربه، وتركه لنفسه، يقول تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١].

فنحن محتاجون إلى عون الله وفضله ورحمته بعدد أنفاسنا، وإلا فالخذلان والخطيئة، والزيغ والضلال ينتظرنا.

... إن دوام التفكر في هذا المجال من شأنه أن يرسخ حقيقة الفقر إليه سبحانه في أذهاننا، فندرك المعنى الحقيقي لذكر: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ونستشعر كذلك حاجتنا الماسة إلى رحمته، فنكثر من الصلاة والسلام على حبيبه ومصطفاه ﷺ.

المجال الثامن: التفكر في العواقب:

وهذا مجال آخر من مجالات التفكر طالبنا به المولى عز وجل، يقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

فالنظر في العواقب له أهمية كبرى في معرفة سنن الله – عز وجل – في الظالمين ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

والمجرمين: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

وكذلك المفسدين ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ومع معرفة سنن الله فى هؤلاء، لابد كذلك من النظر فى عواقب الصبر والتقوى، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ويقول سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

لابد أن تكون لنا وقفات ومجالس، نتفكر من خلالها فى عواقب الظلم والإسراف والفساد، وكذلك فى عواقب التقوى والصلاح، على مستوى الأفراد والمجتمعات.

فالله - عز وجل - لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس هم الذين يصنعون لأنفسهم مآلهم وعاقبتهم.. فسنن الله لن تتبدل ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣]

إننا نصنع لأنفسنا السعادة والشقاء بالسير بإرادتنا واختيارنا فى الطريق المؤدى إلى أيهما، ولعل الحث المتكرر فى القرآن على النظر فى العواقب كى لا يعيد التاريخ نفسه، فنعتبر مما حدث من السابقين، ولا نكون ممن يعتبر بهم اللاحقون.

فالسنن هى السنن لن تتغير، وكذلك الأفراد ونزعاتهم، واتجاهات تفكيرهم، فلماذا لا نعتبر بمن سبقونا؟

لماذا نكرر التاريخ، ولا نستفيد منه؟

فالقرآن بين أيدينا يبين السنن الكونية وقواعدها، ويشير إلى بعض من تطبيقاتها العملية.

فمن أراد أن يعرف عاقبة الإعراض عن الشكر فليتأمل ماذا حدث لسبأ، وإذا أحب أن يرى تطبيقاً عملياً لعاقبة العلو فى الأرض، والإسراف ففى قصة قارون أكبر نموذج لذلك.

وما حدث لفرعون وعاد وثمود وقوم نوح وشعيب أكبر دليل على أن سنة الله لا تتبدل فى المكذبين الضالين.

إنها قوانين واجبة النفاذ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، تأتمر بأمره فى الوقت الذى حدده لها، ليس لأحد أن يستعجلها ولكن له أن ينتظرها ويتربص بها ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢].

إن القيام بمثل هذه المجالس وكثرة النظر فى العواقب من شأنه أن يزيد اليقين فى القلوب، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

فمهما انتفش الباطل فإنه يحمل فى طياته عوامل فنائه، ومهما علا صوت الظالمين فلن يخيف إلا أبناء الدنيا، أما أبناء الآخرة فهم على ثقة بربهم، لا يستعجلون أمره، فيسنفّذ فى الوقت الذى حدده له سبحانه، عندما يكتمل طرف المعادلة، ويصل الظلم إلى الدرجة التى تستدعى صدور الأمر بالتنفيذ ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]

والتاريخ القديم والحديث خير شاهد على هذا...

لنتذكر الشيوعية وما وصلت إليه من عنفوان، ثم لنتذكر كيف انهارت فى عقر دارها.

ولنتأمل ماذا حدث لهتلر وموسولينى، ولنعد بالذاكرة إلى الوراء حيث يحكى لنا التاريخ كيف كانت نهاية الحجاج بن يوسف، وكل من شارك فى قتل الحسين بن على رضى الله عنه، وكذلك نهاية رؤوس المعتزلة الذين تسببوا فى تعذيب إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله.

ولنتأمل كذلك سنن الله - عز وجل - فى التغيير، فلم يبدل سبحانه نعمة أنعمها على الناس إلا بعد أن بدأوا هم بالإعراض عن شكره وعبادته.

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

تأمل حال من أبدله الله فقراً بعد غنى، ومرضاً بعد صحة وعافية، وذلاً بعد عز، وتفكر فيمن أفنى حياته من أجل أولاده، ليؤمن لهم مستقبلهم فى الدنيا، ونسى أن يربيهم على الإسلام، كيف خذلوه وتركوه وحيداً عند كِبَره.

فدوام التأمل فى أحوال الناس يجعلنا نردد قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

إن النظر فى العواقب يثبت القلوب، ويجعل الهم هماً واحداً هو هم الخوف من الله عز وجل، وبكثرة التفكر فيها تتأكد لدينا حقيقة أن الظلم له نهاية، والباطل زاهق لا محالة، ولا يصح إلا الصحيح مهما طال الزمن، وادلهمت الخطوب، واشتد الظلام.

يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وفي هذه المجالس سيوقن العبد أن الله ليس بغافل عما يعمل الناس ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، فليهنأ، ولينم ملء جفنيه بعدما يؤدي ما عليه.

ولترتسم على شفتيه ابتسامة استخفاف بالطغاة والظالمين وليردد ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]

وفي نهاية هذه المجالس على كل منا أن يردد من الأذكار ما يؤكد حقيقة أن الله غالب على أمره، وأنه فعال لما يريد(١).

المجال التاسع: التفكر في أيام الله:

في مثل هذا الزمان الذي نحيا فيه، ومع اشتداد الظلام، وتكالب الأعداء على المسلمين من كل جانب، ومع التضييق والتنكيل بالعاملين للإسلام تأتي أهمية التفكر في أيام الله، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

فموسى - عليه السلام - أرسل إلى بني إسرائيل وهم في أشد حالات الذل والهوان والاستعباد من فرعون، الذي سامهم من أنواع العذاب ما فيه بلاء مبين.

وفي وسط هذا الجو يأمر الله نبيه موسى - عليه السلام - أن يذكرهم بأيام الله: أيام نصرته للحق، وتدميره للمكذبين، كي تطمئن القلوب، وتذعن لعلام الغيوب، فتستعلي بإيمانها، وتستخف بكل صور الباطل مهما كان رونقها.

إنها وسيلة مهمة لإيقاظ روح الأمل في النفوس، والتطلع إلى السماء، والتمسك بالعروة الوثقى، فما أكثر الأيام التي نصر الله فيها أولياءه بأقل الأسباب الأرضية، وأذل فيها الكفر وأهله مع ما كان معهم من قوة وعتاد.

فمن هذه الأيام يوم غرق قوم نوح، ونجاته - عليه السلام - ومن معه من المؤمنين، ويوم نجاة لوط - عليه السلام - وأهله إلا امرأته.

---

(١) للدكتور السيد حسين العفاني مؤلف نفيس بعنوان «الجزاء من جنس العمل» فيه الكثير من الأمثلة حول هذا المجال.

ومنها يوم هلاك عاد و ثمود، وكذلك يوم غرق فرعون ومن معه، ونجاة موسى – عليه السلام – وقومه.

ومن هذه الأيام يوم الانتصار فى بدر مع قلة العدد والعدة، وكذلك يوم الأحزاب، يوم أن أرسل الله على المشركين ريحاً زلزلتهم وأجبرتهم على الفرار.

ومنها يوم نهاوند، والقادسية، واليرموك، والأرك، والزلاقة، وحطين، وعين جالوت، وفتح القسطنطينية.

فهذه وغيرها أيام انتصارات عظيمة، انتصر فيها المسلمون عندما أخذوا بأسباب النصر، وأحسنوا صلتهم بالله، وصدقوا فى توكلهم عليه.

إنها أيام فاصلة فى تاريخنا علينا أن نديم ذكرها، ونأخذ منها الدروس والعبر التى تعيننا على مواجهة الواقع الذى نحياه.

ومع التفكر فى تلك الأيام المباركة علينا كذلك التفكر فى أيام الله التى انتقم فيها من أعدائه ممن خانوا الأمانة، و عبدوا الشيطان، وعاثوا فى الأرض ظلماً وفساداً، فنتذكر أيام الزلازل والبراكين والفيضانات المدمرة التى اجتاحت قراهم، يقول تعالى: ﴿**فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ**﴾ [الحج: ٤٥].

ومع تذكرنا لهذا كله علينا فى هذه المجالس الإكثار من الأذكار المناسبة، مثل ذكر: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

إمكانية الجمع بين مجالات الفكر:

يمكننا أن نجمع بين بعض المجالات السابقة، خاصة عند التفكر فى صفحة الكون المشهود، فننظر مثلاً إلى الشمس ونتفكر فى خلقها، وإبداعها، ودقة صنعها، وكيف نستدل من خلال وجودها على وجود الله ووحدانيته؟ ونحصى كذلك أسماء الله وصفاته والتى أظهر آثارها وجود الشمس.

ونعمل على إحصاء نعم الله علينا من خلالها، ونتفكر فى شكل الحياة بدونها، ونستشعر مدى فقرنا إليها، والذى يعكس بدوره الفقر المحض إليه – سبحانه وتعالى– وهكذا مع بقية آيات الله فى الكون.

مع طريقة أخرى للانتفاع بالذكر:

ومع الطريقة السابقة فى ربط الذكر بالفكر، هناك طريقة أخرى ميسرة يمكننا استخدامها لتحقيق شىء من التجاوب بين القلب واللسان عند الشروع فى الذكر، وتتلخص فى العمل على توليد الرغبة داخل الإنسان لترديد ذكر معين، وذلك من خلال تذكر فضائله(١).

فعندما يتخيل العبد أن اسمه يذكر عند العرش وفى الملأ الأعلى وقت ذكره لمولاه كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

عندما يتخيل نفسه وهو ذرة يسيرة فى ملك ليس له نهاية.. فرد واحد من بلايين البشر، لا يكاد يعرفه أحد.. يتخيل اسمه وهو يتردد فى السماء.. يتخيل أن رب الأرباب يذكره فماذا سيفعل؟ وبأى حال سيقبل على الذكر؟

يقول يحيى بن معاذ: يا غفول، يا جهول، لو سمعت صرير الأقلام فى اللوح المحفوظ وهى تكتب اسمك عند ذكرك لمولاك لمت شوقاً إليه(٢).

ومع تذكرنا لفضائل الذكر بصفة عامة، علينا أن نُذكِّر أنفسنا بفضل الذكر الذى نريد البدء فيه.

فقبل الاستغفار - مثلاً - نتذكر فضله وحاجتنا إليه، وكذلك قبل الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وغير ذلك من الأذكار.

وبالمداومة على ذلك يبدأ القلب - شيئاً فشيئاً - بالتفاعل مع الذكر حتى يصير من أحب الأعمال إليه فلا يكاد يفارقه، ويصدق عليه قول القائل:

يُراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل

وصية أخيرة:

يقول ابن القيم فى فوائده: من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان، وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطأ على الذكر، ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدئ على

---

(١) وفى كتاب الوابل الصيب لابن القيم الكثير من فضائل الذكر التى تحرك الهمم وتولد الرغبة للإكثار منه والمداومة عليه.

(٢) صلاح الأمة فى علو الهمة ٣/ ٧٢.

غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه، فيشرع فى الذكر بقلبه، فإذا قوى استتبع لسانه فتواطأ جميعاً، فالأول ينتقل الذكر من لسانه على قلبه، والثانى ينتقل من قلبه إلى لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولاً حتى يحس بظهور الناطق فيه، فإذا أحسن بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبى إلى الذكر اللسانى، ثم يستغرق فى ذلك حتى يجد كل شىء منه ذاكرا.

وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده(١).

---

(١) القوائد، ص: ٢٤٧.

الفصل السادس

التعلق بالمساجد

يقول تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٥]

فالآية تتحدث عن نور الله عز وجل، وأنه سبحانه يهدى إليه من يشاء من عباده فمن هم هؤلاء الذين تفضل عليهم المولى - عز وجل - بتلقى نوره؟

الإجابة واضحة فى الآية التى تليها يقول تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ [النور: ٣٦ ، ٣٧]

فلا يكفى وجود الرجال بالصفات التى حددتها هذه الآيات لحصولهم على النور، بل لابد لهم من تلقيه فى المساجد، ولم لا؟ وهى بيوت الله فى الأرض، وعمارها زواره وحق على المزور أن يكرم زائره.

فعن سلمان - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «من توضأ فى بيته فأحسن الضوء، ثم أتى المسجد فهو زائر لله، وحق على المزور أن يكرم الزائر» (١).

وقال ابن عباس: إن المساجد بيوت الله فى الأرض تضىء لأهلها كما تضىء نجوم السماء لأهلها (٢).

فمن أراد أن يشرق قلبه بنور الله فعليه أن يتصف بصفات هؤلاء الرجال، والتى منها عمارة المساجد، وليس المقصود بتلك العمارة أداء الصلوات فيها فقط، ولكن لابد كذلك

---

(١) إسناده حسن رواه الطبرانى فى الكبير بإسنادين أحدهما جيد وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ح (٣١٧).

(٢) شعب الإيمان ٣/٨٣.

من تعلق قلبه بها كما فى حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله » . . ورجل قلبه معلق فى المساجد (١) .

قال النووى فى شرحه : معناه شديد الحب لها والملازمة للجماعة فيها، وليس معناه دوام القعود فى المسجد (٢) .

وقال ابن حجر فى الفتح : ظاهره أنه من التعليق كأنه شبه بالشىء المعلق فى المسجد كالقنديل مثلاً إشارة إلى طول الملازمه بقلبه، وإن كان جسده خارجاً عنه، ويدل عليه رواية الجوزقى : كأنما قلبه فى المسجد (٣) .

علاقة المسجد بالسير إلى الله عز وجل :

ومما يدل على أن كثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة فيها من وسائل ربط القلوب بالله ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به من الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط » .

يقول القرطبى : المرابطة عند العرب العقد على الشىء حتى لا ينحل فيعود إلى ما كان صبر عنه، فيحبس القلب على النية الحسنة، والجسم على فعل الطاعة (٤) .

وفى لسان العرب : الرباط اسم لما يُربط به الشىء أى يُشد يعنى هذه الخلال : « إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة » تربط صاحبها عن المعاصى، وتكفه عن المحارم .

حاجة القلوب إلى الرباط :

لقد سمى القلب قلباً من كثرة تقلبه فهو أشد تقلباً من القدر فى غليانها .

يقول ﷺ : « إنما سُمّى القلب من تقلبه، إنما مثل القلب مثل الريشة بالفلاة، تعلقت فى أصل شجرة يُقلبها الريح ظهراً لبطن » (٥) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ٨/١٢٢ ح (٢٣٧٧) .

(٣) فتح البارى ٢/١٨٤ ح (٦٦٠) .

(٤) الجامع لأحكام القران ٤/٢٠٦ .

(٥) صحيح أخرجه الطبرانى فى الكبير عن أبى موسى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ح (٢٣٦٥) .

وقلب المؤمن يتقلب من حالة إلى حالة نتيجة التنازع المستمر بين داعى الإيمان وداعى الهوى، وبين إلهام الملك ووسوسة الشيطان، لذلك كان من عامة دعائه ﷺ : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » (١).

فثبات القلب هو عدم تقلبه عن الحالة القائم عليها .

يقول تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : ١٠]

فلولا أن ثبت الله قلب أم موسى وربطه على الإيمان والسكينة لكانت من الفزعين.

وعندما دعا موسى ربه لينزل العقاب على فرعون قال : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨]

لقد طلب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يثبت قلب فرعون وملئه على الحالة التي وصلوا إليها من الكفر والطغيان ، ويربطه على ذلك حتى يلاقوا مصيرهم الأليم .

فربط القلب معناه : تثبيته على وضعه أيا كان .

وفى حديث محو الخطايا ورفع الدرجات ذكر النبى ﷺ ثلاثة أشياء من شأنها أن تربط القلب على الإيمان .

عن داود بن صالح قال : قال لى أبو سلمة بن عبدالرحمن : يا ابن أخى هل تدرى فى أى شىء نزلت هذه الآية ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ [آل عمران : ٢٠٠]؟ قلت : لا، قال : يا ابن أخى إنى سمعت أبا هريرة يقول : لم يكن فى زمان النبى ﷺ غزو يرابط فيه ولكن انتظار الصلاة بعد الصلاة (٢) .

فضل الارتباط بالمسجد :

إن المتأمل لأحاديث رسول الله ﷺ عن فضل الارتباط بالمسجد يجد الثواب العظيم فى فضل المشى إليها، وأداء الصلوات فيها، وطول المكث بها، وهذا مما يدل على أن المسجد

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) شعب الإيمان ٣ / ٧٠ وصححه الحاكم (٢ / ٣٠١) ووافقه الذهبى .

ينبغى أن يحتل مساحة معتبرة فى الحياة اليومية للمسلم، وأن يرتب أموره وارتباطاته الحياتية عليه.

وهذه بعض الفضائل المتعلقة به:

- زيادة الحسنات ومحو السيئات:

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من راح إلى مسجد الجماعة فخطوة تمحو سيئة، وخطوة تكتب له حسنة، ذاهبًا وراجعًا»(١).

- الحياة الطيبة وحسن الخاتمة:

ففى حديث اختصام الملأ الأعلى «... قال لى: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم، فى الدرجات والكفارات، ونقل الأقدام إلى الجماعة، وإسباغ الوضوء فى السَّبَرات(٢)، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، ومن حافظ عليهن عاش بخير، ومات بخير، وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه....»(٣).

- ومن هذه الفضائل تبشبش الله له:

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوضأ أحدكم فيحسن وضوءه فيسبغه، ثم يأتى المسجد لا يريد إلا الصلاة فيه، إلا تبشبش الله إليه كما يتبشبش أهل الغائب بطلعته»(٤).

- ومنها إعداد النزل له فى الجنة:

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «من غدا إلى المسجد أو راح، أعد الله له فى الجنة نزلاً كلما غدا أو راح»(٥).

---

(١) صحيح رواه الإمام أحمد والطبرانى وابن حبان فى صحيحه، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ح (٢٩٥).

(٢) شدة البرد.

(٣) صحيح رواه الترمذى وقال حديث حسن غريب، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٩٧).

(٤) صحيح رواه ابن خزيمة فى صحيحه انظر صحيح الترغيب والترهيب رقم (٢٩٨).

(٥) صحيح رواه البخارى، ومسلم وغيرهما، انظر صحيح الترغيب والترهيب رقم (٣٠٩).

- ومنها صلاة الملائكة عليه ما دام فى مصلاه:

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الملائكة تصلى على أحدكم ما دام فى مصلاَّه الذى صلى فيه لم يحدث: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»(١).

- ومنها البشارة بالنور التام يوم القيامة:

عن بريدة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «بشر المشَّائين فى الظُّلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»(٢).

- ومنها أنه ضامن على الله - عز وجل -:

عن أبى أمامة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث كلهم ضامن على الله إن عاش رُزق وكُفى، وإن مات أدخله الله الجنة: من دخل بيته فسَلَّم فهو ضامن على الله، ومن خرج إلى المسجد فهو ضامن على الله، ومن خرج فى سبيل الله فهو ضامن على الله»(٣).

- ومنها أن الله - عز وجل - يباهى به الملائكة:

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: صلينا مع رسول الله ﷺ المغرب، فرجع من رجع، وعقَّب من عقَّب، فجاء رسول الله ﷺ مسرعًا، قد حَفَزَه النَفَسُ، قد حسر عن ركبتيه، قال: «أبشروا هذا ربكم قد فتح بابًا من أبواب السماء، يباهى بكم الملائكة، يقول: انظروا إلى عبادى، قد قضوا فريضة، وهم ينتظرون أخرى»(٤).

- ومنها حصول الرحمة والجواز على الصراط:

عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المسجد بيت كل تقى، وتكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة، والجواز على الصراط إلى رضوان الله، إلى الجنة»(٥).

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده، وقال أحمد شاكر: حديث صحيح.

(٢) صحيح رواه أبو داود والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ح (٣١٠).

(٣) صحيح رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه، وأورده الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ح (٣١٦).

(٤) صحيح رواه ابن ماجة، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ح (٤٤٢).

(٥) صحيح رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط والبزار، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ح (٣٢٤).

ومنها علاقة خاصة بالملائكة:

عن عبد الله بن سلام – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال: «إن للمساجد أوتاداً هم أوتادها، لهم جلساء من الملائكة، فإن غابوا سألوا عنهم، وإن كانوا مرضى عادوهم، وإن كانوا فى حاجة أعانوهم»(١).

فلنربط قلوبنا بالمساجد، ولنجعلها بيوتنا، ولنكن كصحابة رسول الله ﷺ فى تعلقهم بها، وشعورهم بالأمان فيها، فقد كانوا إذا فزعوا من شىء أتوا المساجد».

ولنحجز أماكننا بالصف الأول لننال المنزلة العظيمة المعدة لأهله، قال ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول»(٢).

فالصف الأول على مثل صف الملائكة، كما قال ﷺ: «والصف الأول على مثل صف الملائكة، ولو علمتم ما فضيلته لابتدرتموه»(٣).

يقول أحمد عبد الرحمن البنا فى شرحه للحديث: مثل صف الملائكة أى فى القرب من الله عز وجل، ونزول الرحمة، وإتمامه واعتداله(٤).

وأخيراً فإن اعتياد الذهاب إلى المساجد، والتعلق بها من علامات صدق الإيمان، يقول ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨](٥).

---

(١) شعب الإيمان ٣/ ٨٤.

(٢) صحيح رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم عن البزار.

(٣) صحيح جزء من حديث رواه أبو داود فى سننه.

(٤) الفتح الربانى.

(٥) صحيح الحاكم عن أبى سعيد، وأخرجه البيهقى فى الشعب (٢٩٤١).

الفصل السابع

اغتنام مواسم الخيرات والأوقات الفاضلة

يقول الحافظ ابن رجب: جعل الله سبحانه لبعض الشهور فضلاً على بعض، كما قال تعالى: ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال الله تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، كما جعل بعض الأيام والليالى أفضل من بعض، وجعل ليلة القدر خير من ألف شهر، وأقسم بالعشر، وهى عشر ذى الحجة على الصحيح.

وما من هذه المواسم الفاضلة موسم إلا ولله تعالى وظيفة من وظائف طاعاته يُتقرب بها إليه، ولله فيها لطيفة من لطائف نفحاته يصيب بها من يشاء بفضله ورحمته عليه، فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات، وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار وما فيها من اللفحات[1].

عن محمد بن مسلمة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لربكم فى أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها؛ لعل أحدكم أن يصيبه منها نفحة لا يشقى بعدها أبداً»[2].

فليترقب المسلم هذه المواسم، وليجتهد فيها غاية اجتهاده.

فهناك أوقات فاضلة فى اليوم والليلة، يسميها العلماء بأوقات السير إلى الله، كناية عن شرفها، وهناك أيضًا يوم فاضل مميز فى كل أسبوع ألا وهو يوم الجمعة، أما رمضان فله أفضليته الخاصة عن بقية الشهور.

الأوقات الفاضلة فى اليوم:

هناك أوقات ثلاثة يحثنا الله - عز وجل - على الاجتهاد فيها، يقول تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠].

---

(١) لطائف المعارف.

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وذكره الهيثمى فى مجمع الفوائد ١٠/ ٢٣٠.

ويؤكد على هذا المعنى رسولنا المصطفى ﷺ، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «لن يُنْجى أحداً منكم عمله»، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته، سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا»(١).

وفى موضع آخر بالبخارى: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة».

يقول ابن رجب: يعنى أن هذه الأوقات الثلاثة تكون أوقات السير إلى الله بالطاعات، وهى آخر الليل، وأول النهار وآخره، وقد ذكر الله هذه الأوقات فى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠].. فهذه الأوقات الثلاثة منها وقتان، وهما: أول النهار وآخره، يجتمع فى كل من هذين الوقتين عمل، وهما البَرْدان، اللذان من حافظ عليهما دخل الجنة.. وأما عمل التطوع فهو ذكر الله بعد صلاة الصبح، حتى تطلع الشمس، وبعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس، وقد وردت فى فضله نصوص كثيرة، وكذلك وردت من النصوص الكثيرة فى أذكار الصباح والمساء، وفى فضل من ذكر الله حين يصبح وحين يمسى، وكان السلف لآخر النهار أشد تعظيمًا من أوله، قال ابن المبارك: بلغنا أنه من ختم نهاره بذكر الله كُتب نهاره كله ذكراً... وقد جاء فى الحديث: «إن الذكر بعد الصبح أحب من أربع رقاب، وبعد العصر أحب من ثمان رقاب»(٢).

أما الوقت الثالث فهو الدُلجة، والإدلاج: سير آخر الليل، والمراد به هنا العمل فى آخر الليل، وهو وقت الاستغفار، كما قال تعالى: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وهو آخر وقت النزول الإلهى، المتضمن لاستعراض حوائج السائلين، واستغفار المذنبين وتوبة التائبين.

ورد فى بعض الآثار أن العرش يهتز من السحر، قال طاووس: ما كنت أظن أن أحداً ينام

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد بمعناه عن أبى أمامة ٥/ ٢٥٤ ورواه الطبرانى عن أبى أمامة أيضًا، وقال الهيثمى: أسانيد الحديث صحيحه ١٠/ ١٠٤.

فى السحر، وفى الحديث الذى أخرجه الترمذى: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل».

سير الدلجة آخر الليل يُقْطَع سفر الدنيا والآخرة، وقد روى أن الأشتر دخل على علىٍّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - بعد هدأة الليل، وهو قائم يصلى، فقال: يا أمير المؤمنين صوم بالنهار، وسهر بالليل، وتعب فيما بين ذلك؟ فلما فرغ من صلاته قال: سفر الآخرة طويل فيُحتاج إلى قطعه بسير الليل.

كانت امرأة حبيب - أبى محمد الفارسى - توقظه بالليل وتقول: قم يا حبيب فإن الطريق بعيد وزادنا قليل وقوافل الصالحين قد سارت من بين أيدينا ونحن قد بقينا.. أ. هـ[1].

أهمية الذكر فى البكور:

يحدثنا ابن القيم عن أهمية التشمير فى وقت البكور، ويحذرنا من تضييعه بالنوم، فيقول رحمه الله: ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، فإنه وقت غنيمة، وللسير فى ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيم حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود ذلك الوقت حتى تطلع الشمس؛ فإنه أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار، وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة، فينبغى أن يكون نومها كنوم المضطر[2].

ولشرف هذا الوقت، ولأهميته فى السير إلى الله؛ نجد الترغيب الشديد فى إحيائه بالذكر، فعن أنس - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الفجر فى جماعة، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت كأجر حجة وعمرة تامة تامة»[3].

وقال ابن القيم: حضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلىَّ، وقال: هذه غدوتى، ولو لم أتغذ الغداء سقطت قُوَّتى... أو كلامًا قريبًا من ذلك[4].

---

(١) المحجة فى سير الدلجة، ص: ٦٥ - ٦٧ بتصرف.

(٢) تهذيب مدارج السالكين، ص: ٢٤٨.

(٣) قال الترمذى حديث حسن صحيح.

(٤) الوابل الصيب.

فائدة فى أسرار الأوقات:

قال الدهلوى: من ضروريات الدين أن هناك أوقاتًا يحدث فيها شيء من انتشار الروحانيات فى الأرض، وسريان قوة مثالية فيها، وليس وقت أقرب لقبول الطاعة واستجابة الدعوات من تلك الأوقات، ففى أدنى سعى ينفتح باب عظيم من انقياد البهيمية للملكية.

ثم ضرب مثالاً لهذا بالوقت من نصف الليل إلى السحر، ثم قال: ففى تلك الأوقات، وقبلها بقليل، وبعدها بقليل تنتشر الروحانية، وتظهر البركة، وليست فى الأرض ملة إلا وهى تعلم أن هذه الأوقات أقرب شيء من قبول الطاعات(١).

وصية البنا:

يقول الإمام حسن البنا: أيها الأخ العزيز، أمامك كل يوم لحظة بالغداة، ولحظة بالعشى، ولحظة فى السحر، تستطيع أن تسمو فيها كلها بروحك الطهور إلى الملأ الأعلى، فتظفر بخير الدنيا والآخرة وأمامك مواسم الطاعات، وأيام العبادات، وليالى القربات التى وجهك إليها كتابك الكريم، ورسولك العظيم ﷺ، فاحرص أن تكون فيها من الذاكرين لا من الغافلين ومن العاملين لا من الخاملين، واغتنم الوقت، فالوقت كالسيف، ودع التسويف فلا أضر منه(٢).

أهمية الاجتهاد فى يوم الجمعة:

أما بالنسبة للأسبوع فليوم الجمعة شرف عظيم، وفيه ساعة يجاب فيها الدعاء، فليحرص كل منا على ألا تفوته تلك الساعة، يقول ﷺ: «إن فى الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله - عز وجل - فيها شيئًا إلا أعطاه»(٣).

يقول النووى: ويستحب الإكثار من الدعاء فى جميع يوم الجمعة، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ رجاء مصادفة ساعة الإجابة، فقد اختُلف فيها على أقوال كثيرة، فقيل: هى بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس، وقيل بعد الزوال، وقيل بعد العصر، وقيل غير ذلك(٤).

---

(١) رهبان الليل ٢ / ٣٢ نقلاً عن حجة الله البالغة لشاه ولى الله الدهلوى ١ / ٩٨ - ١٠٠ طبعة دار التراث.

(٢) الرقائق ١٨ نقلاً عن مجلة الدعوة العدد ٨ سنة ١٩٥١.

(٣) رواه الترمذى وابن ماجة من حديث عمرو بن عوف المزنى.

(٤) الأذكار، ص: ١٢٩.

وقال الإمام أحمد : أكثر الأحاديث فى الساعة التى ترجى فيها إجابة الدعاء بعد صلاة العصر.

وكذلك فاطمة – رضى الله عنها – نراعى ذلك الوقت، وتأمر خادمتها أن تنظر إلى الشمس فتؤذنها بسقوطها، فتأخذ فى الدعاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس(١).

فلنجتهد فى هذا اليوم، ولنضع له برنامجًا خاصًا، ولنبكر فيه بالذهاب إلى المسجد على أحسن هيئة.

عن أوس بن أوس – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ : «من غسَّل يوم الجمعة واغتسل، ثم بكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام، واستمع وأنصت، ولم يلغ كان له بكل خطوة يخطوها من بيته إلى المسجد عمل سنة، أجر صيامها وقيامها»(٢).

رمضان شهر الخير :

شهر رمضان أفضل الشهور يقول ﷺ : «رغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له...»(٣).

ففيه تكون الشياطين مصفدة، والأجواء مشبعة بالصلاة والذكر والقرآن، وفى مثل هذا الجو تسهل قيادة النفس، وتوجيهها لما يحبه الله ويرضاه، فهو وسيلة عظيمة لإيقاظ الإيمان وتقويته، ينبغى أن نستعد له استعدادًا جيدًا بوضع البرامج المعينة على الاستفادة بكل دقائقه ولحظاته.

تابعوا بين الحج والعمرة:

لتكن سياحتنا إلى البيت العتيق، ومسجد النبى ﷺ كلما سمحت ظروفنا وتيسر حالنا، قال ﷺ : «تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإن متابعة بينهما تنفى الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد»(٤).

---

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٢٢٢.

(٢) صحيح رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة والحاكم فى المستدرك وصححه الحاكم والألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٠٥).

(٣) رواه أحمد والترمذى، رغم أنف: ألصق بالتراب كناية عن الذل.

(٤) صحيح، رواه ابن ماجة عن عمر بن الخطاب، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٢٨٩٩)، والسلسلة الصحيحة برقم (١٢٠٠).

من فوائد مواسم الخير:

وأخيراً: هناك ميزة عظيمة لهذه المواسم، تتمثل فى أنها يمكن أن تكون نقطة بداية قوية لإيقاظ القلب، وعودة الحياة إليه، وبدء سيره إلى الله تعالى؛ ففيها يزداد الإيمان بصورة ملحوظة، وتسكن النفس، وتعتاد فعل الطاعات، فينبغى لنا ألا نضيع هذه الفرص من بين أيدينا.

الفصل الثامن

الصيام

أشرنا سابقا أن الدافع للعمل إما الإيمان أو الهوى، وعندما نسعى لإيقاظ الإيمان فإننا نريد أن نصل به فى قلوبنا إلى الدرجة التى يعلو فيها على الهوى، فتنطلق الأعمال مستجيبة له.

والوسائل التى ذكرناها سابقا تؤثر فى كفة الإيمان بالزيادة، أما الوسيلة التى نحن بصددها هنا وهى الصيام فإنها تؤثر على كفة النفس وهواها بالسلب، وبذلك يزداد الإيمان، يقول تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فالصوم: إعداد للأمة التى فرض عليها الجهاد فى سبيل الله، لتقرير منهجه فى الأرض، لتستعلى على ضرورات الجسد كلها، ولتحتمل مشقات الطريق المفروش بالعقبات والأشواك، والذى تتناثر على جوانبه الرغبات والشهوات(١).

ذلك أن الصوم أعظم مرب للإرادة، وكابح لجماح الأهواء.

الصوم لا مثل له، قال ﷺ :« عليك بالصوم فإنه لا مثل له »(٢).

والصوم كفارة للخطايا، قال ﷺ :« فتنة الرجل فى أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفرها الصيام، والصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر »(٣).

ويكفى الصائم تشريف الله والملائكة له بالصلاة عليه، قال ﷺ :« إن الله وملائكته يصلون على المتسحرين »(٤).

والصوم جنة من النار، قال ﷺ :« من صام يوما فى سبيل الله جعل الله بينه وبين النار خندقا كما بين السماء والأرض »(٥).

---

(١) فى ظلال القرآن ١/١٦٧.

(٢) إسناده صحيح على شرط مسلم، رواه ابن حبان فى صحيحه وأحمد النسائى والطبرانى وابن أبى شيبة وعبد الرزاق.

(٣) صحيح رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه عن حذيفة.

(٤) حسن صحيح الجامع الصغير ح (١٨٤٤).

(٥) صحيح، صحيح الجامع الصغير ح (٦٣٣٣).

وباب الريان لا يدخله إلا الصائمون، فإذا دخل آخرهم أُغلق[1].

خطورة الشبع:

عن المقداد بن معديكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[2].

وعن أبي جحيفة – رضي الله عنه – قال: أكلت خبز بُر بلحم سمين، فأتيت النبي ﷺ، فتجشأت، فقال: «احبس – أو اكفف – جشاءك، فإن أكثرهم شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة»[3].

قال الحليمي: وكل طعام حلال فلا ينبغي لأحد أن يأكل منه ما يثقل بدنه، فيحوجه إلى النوم، ويمنعه من العبادة، وليأكل بقدر ما يسكن جوعه، وليكن غرضه من الأكل أن يشتغل بالعبادة، ويقوى عليها[4].

من فوائد الجوع وآفات الشبع:

لقد ذكر الإمام الغزالي في الإحياء الكثير من فوائد الجوع وآفات الشبع، نذكر منها:

١ – صفاء القلب، وإيقاد القريحة، وإنفاذ البصيرة؛ فإن الشبع يورث البلادة، ويثقل القلب، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه، وفسد ذهنه، وصار بطيء الفهم والإدراك... ولهذا قال لقمان لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

٢ – رقة القلب وصفاؤه، الذي به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب، ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر، كأن بينه وبينه حجابًا من قسوة القلب، قال الجنيد: يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة.

٣ – الانكسار والذل، وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله

---

(١) صلاح الأمة ٢ / ٤٤٧ – ٤٤٩.

(٢) صحيح، صحيح الجامع ح (٥٥٥٠)، وأكلات أي لُقم.

(٣) حسن، السلسلة الصحيحة ح (٣٤٣).

(٤) شعب الإيمان ٥ / ٢٢.

تعالى، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع، فعندها تسكن لربها، وتخشع له، وتقف على عجزها وذلها.

٤ – وهي من أكبر الفوائد: كسر شهوات المعاصي كلها، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى، ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة، وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه.

قالت عائشة رضي الله عنها: أول بدعة حدثت بعد رسول الله ﷺ الشبع، إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا.

وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج، وشهوة الكلام، فإن الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام؛ فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة، والفحش والكذب، والنميمة، وغيرها، فيمنعه الجوع من كل ذلك.

وأما شهوة الفرج فلا تخفى غائلتها، والجوع يكفي شرها، وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعته التقوى فلا يملك عينه، فالعين تزني كما أن الفرج يزني، فإن ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة، وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوش به مناجاته، وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة.

٥ – دفع النوم، فإن من شبع شرب كثيراً، ومن كثر شربه كثر نومه، وفي كثرة النوم ضياع العمر، وفوات التهجد، وبلادة الطبع، وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر، وهو رأس مال العبد وفيه يتجر، والنوم موت؛ فتكثيره ينقص العمر، ثم فضيلة التهجد وفي النوم فواقها.

٦ – يستفيد من قلة الأكل صحة البدن، ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل، ثم إن المرض يمنع من العبادات، ويشوش القلب، ويمنع من الذكر والفكر، وينغص العيش، ويحوج إلى الدواء والطبيب، وفي التقلل من الطعام ما يمنع ذلك كله.

٧ – خفة المؤونة، فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعود الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له، آخذاً بمخنقه في كل يوم، فيقول: ماذا تأكل اليوم؟[1].

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ١٣٤ – ١٤٠ بتصرف.

وخطب عمر يومًا فقال: إياكم والبطنة، فإنها مكسلة عن الصلاة مؤذية للجسم، وعليكم بالقصد فى قوتكم، فإنه أبعد عن الأشَرِ، وأصح للبدن، وأقوى على العبادة، وإن امرأً لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.

وقال الفضيل بن عياض: ثنتان تقسيان القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل.

وقال لقمان لابنه: يا بنى، لا تأكل شيئًا على شبع، فإنك إن تتركه للكلب خير لك من أن تأكله(١).

وقال عبد الواحد بن زيد: من قوى على بطنه قوى على دينه، ومن قوى على بطنه قوى على الأخلاق الصالحة، ومن لم يعرف مضرته فى دينه من قبل بطنه فذاك رجل فى العابدين أعمى(٢).

حد الاعتدال فى الطعام والشراب:

يقول ابن قدامة المقدسى: وقد بالغ من الزهاد فى التقلل من الأكل، والصبر على الجوع... ومقام العدل فى الأكل رفع اليد مع بقاء شىء من الشهوة، ونهاية المقام الحسن قوله ﷺ: «ثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه».

فالأكل فى مقام العدل يصح البدن، وينفى المرض، وذلك أن لا يتناول الطعام حتى يشتهيه، والدوام على التقلل من الطعام يضعف القوى، وقد قلل أقوام مطاعمهم حتى قصروا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس كذلك، ومن مدح الجوع فإنما أشار إلى الحالة التى ذكرناها.

وطريق الرياضة فى كسر شهوة البطن: أن من تعود استدامة الشبع فينبغى له أن يقلل من مطعمه يسيراً يسيراً مع الزمان، إلى أن يقف على حد التوسط الذى أشرنا إليه، وخير الأمور أوساطها، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات، ويكون سببًا لبقاء القوة، فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع، فحينئذ يصح البدن، وتجتمع الهمة، ويصفو الفكر، ومن زاد فى الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن، وذلك بتكثير البخار فى الدماغ، حتى يغطى مكان الفكر وموضع الذكر، ويجلب أمراضًا أخر(٣).

---

(١) الآداب الشرعية ٣/١٨٤، ١٨٥.

(٢) رهبان الليل ٢/٢٢١.

(٣) مختصر منهاج القاصدين ص ١٧٧، ١٧٨.

خير الهدى هدى محمد ﷺ :

يقول ابن رجب: وكان النبى ﷺ يتوسط فى إعطاء نفسه حقها، ويعدل فيها غاية العدل، فيصوم ويفطر، ويقوم وينام، وينكح النساء، ويأكل ما يجد من الطيبات كالحلواء والعسل ولحم الدجاج، وتارة يجوع حتى يربط على بطنه الحجر، وقال: «عرض علىَّ ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبًا، فقلت: لا يا رب، ولكن أجوع يومًا، وأشبع يومًا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»، فاختار لنفسه أفضل الأحوال ليجمع بين مقامى الشكر والصبر والرضا(١).

وخلاصة القول أن النفس تطغى، ويزداد خلودها إلى الأرض كلما ازداد شبعها، وفى المقابل فإنها لا تنكسر بسلاح أقوى من سلاح الجوع، فالمطلوب منا ألا نصل إلى حد الشبع المذموم – كما ذكر العلماء فيما مر علينا –، وأن نستخدم سلاح الجوع كل فترة، لنسيطر على النفس أكثر وأكثر، فيستحب صيام الإثنين والخميس من كل أسبوع، والمداومة على ذلك، فقد كان النبى ﷺ يتحرى صيامهما، كما روت ذلك عائشة وأسامة بن زيد – رضى الله عنهما –(٢).

ومن لم يستطع صيامهما – لظروف خارجة عن إرادته – فليصم ثلاثة أيام من كل شهر، وذلك أن الله جعل الحسنة بعشرة أمثالها، فثلاثة أيام من الشهر كأنها صيام الشهر كله، وكان النبى ﷺ يصومها ويحض على صيامها، ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه: «أوصانى خليلى ﷺ بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر»(٣).

ومع هذه الأيام المباركة لا ننسى صيام يوم عرفة، والتاسع والعاشر من محرم، وست من شوال، وكذلك الإكثار من الصيام فى شعبان وعشر ذى الحجة.

---

(١) لطائف المعارف ص ١٣٩، ١٤٠.

(٢) رواه أحمد والترمذى وقال: حسن غريب ٧٤٥.

(٣) متفق عليه، انظر فقه الصيام ١٤٧، ١٤٨.

الفصل التاسع

اصطحاب كتاب من كتب علوم السلوك

عندما يستيقظ القلب من سباته، ويفيق من غفلته، يبدأ فى النظر حوله، فيستشعر حجم الخسارة التى لحقت به نتيجة رقاده الطويل، فيعزم على السفر، ويعمل على تعويض ما فاته.

فى هذه الفترة، فترة اليقظة والانتباه، والبدء فى السير إلى الله، تشتد الحاجة إلى دليل يعرفنا طبيعة الطريق الذى سنسير فيه، وما سنلاقيه من عقبات ومنعطفات، وكيف نتجاوزها، كما قال الشاعر:

وإنما القوم مسافرون ... لحضرة الحق وظاعنون

فافتقروا فيه إلى دليل ... ذى بصر بالسير والمقيل

قد سلك الطريق ثم عاد ... ليخبر القوم بما استفاد

فمع القرآن الكريم، وما فيه من تفصيل لطبيعة الطريق، علينا اصطحاب كتاب من كتب علم السلوك؛ للاستفادة من تجارب السابقين.

والكتابات التى تحدثت عن فقه السير إلى الله ليست بالقليلة، ولكن معظمها يغلب عليه كلام المتصوفة، مع ما فى ذلك من غموض وابتعاد عن النبعين الصافيين: القرآن والسنة.

والكثير من هذه الكتابات بنى منهجه على شعار: (التخلية قبل التحلية)، بمعنى أنه ينبغى للسائر إلى الله أن يتخلى عما فى قلبه من أمراض قبل أن يتحلى بمعانى العبودية، من يقين، وتوكل، وشكر، وصبر، وزهد... إلخ.

وهذه الطريقة – من الناحية العملية – فيها الكثير من المشقة، وثمرتها ضعيفة؛ لأن العبد كلما فتش فى نفسه فسيجد آفات وعيوب، وكلما تخلص من واحد منها ظهر له آخر، ولن يستطيع أن يدعى فى يوم من الأيام أنه تخلص منها جميعًا.

وفى المقابل فهناك كتابات أخرى – وإن كانت قليلة – تتبنى منهج الرسل فى التزكية، والذى أشار إليه القرآن فى العديد من مواضعه.

يتظلق هذا المنهج من قاعدة أن نور الإيمان عندما يدخل القلب فإنه يحرق ما يقابله من ظلمات وأهواء وأمراض، وبحسب قوته يكون التخلص من هذا الباطل.

فشعاره قول الله عز وجل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨].

فإذا دخل الحق القلب زهق الباطل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

ومن هذه الكتابات بعض ما كتبه ابن القيم، وابن الجوزى، وابن رجب، وابن تيمية، وعلى رأسها يأتى كتاب (مدارج السالكين شرح منازل السائرين) لابن القيم.

ويتميز هذا الكتاب بعدة مزايا:

– منها أن صاحبه مشهود له بالقدم الراسخ فى العلم والصلاح، والسير على نهج السلف الصالح – رضوان الله عليهم –.

– ومنها أن ابن القيم رحمه الله له باع طويل فى علم السلوك، فالذى يقرأ ما كتبه يستشعر أنه يتحدث عما رآه وعايشه، وليس من سمع كمن رأى.

– ومنها كذلك أنه عمل على تنقية هذا العلم مما دخل عليه من المخالفات التى جاء بها البعض، ممن تأثروا بالثقافات الأخرى، فسار ابن القيم فى هذا الكتاب على طريقة القرآن والسنة فى التزكية.

يقول – رحمه الله –: اعلم أن أشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور... وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنبًا إلا أحرقه، وهذا حال الصادق فى توحيده الذى لم يشرك بالله شيئًا، فأى ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها، فسماء إيمانه قد حُرِست بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال السارق منها إلا على غرة وغفلة لا بد منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سُرِق منه استنقذه من سارقه أو حصل أضعافه بكسبه، فهو كذا أبدًا مع لصوص

الجن والإنس، ليس كمن فتح لهم خزانته، وولّى الباب ظهره[1].

والمتأمل لما حدث مع الصحابة يجد أن هذا هو المنهج الذى ساروا عليه، ووصلوا به إلى القمم السامقة فى الارتباط بالله عز وجل.

وهذا مما يؤكد عليه القرآن فى قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد : ١٧].

فلم يُطلب منهم – رضوان الله عليهم – التفتيش داخل نفوسهم عن الآفات، بل كانوا يتعاملون مع ما يظهر أمامهم منها، وكانوا يعالجونها بما لا يتصادم مع فطرتهم.

قال عروة بن الزبير رضى الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغى لك هذا، فقال: لما أتانى الوفود سامعين مطيعين، دخلت نفسى نخوة فأردت أن أكسرها.

ويذكر أن أبا ذر – رضى الله عنه – عيَّر بلالاً – رضى الله عنه – بسواده، ثم ندم فألقى بنفسه، فحلف: لا رفعت رأسى حتى يطأ بلال خدّى بقدمه، فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال[2].

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: متى أتكلم؟، قال: إذا اشتهيت الصمت، قال: ومتى أصمت؟، قال: إذا اشتهيت الكلام، وكان إذا كتب كتابًا فخاف فيه العجب مزقه ويقول: اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى.

يؤكد على هذا المسلك ابن القيم فيقول: اعلم أن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التى طبعت النفوس عليها، وأصحاب الرياضات الصعبة، والمجاهدات الشاقة، إنما عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها.

ثم يقول رحمه الله: وقد سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ فقال لى: مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التى فى طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها،

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص: ١٨٧.

(٢) تهذيب مدارج السالكين، ص: ٤٢٩.

والاشتغال بقتلها، انقطع ولم يمكنه السفر قط، ولكن لتكن همتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله ثم امض على سيرك.

فالصفات ما خلقت سدى ولا عبثًا، وأنها بمنزلة ماء يسقى به الورد، والشوك، والثمار، والحطب، وأنها صوان، وأصداف لجواهر منطوية عليها... وقد رأى النبى ﷺ أبا دجانة يتبختر بين الصفين، فقال: «إنها مشية يبغضها الله إلا فى هذا الموضع» فانظر كيف خلّى مجرى هذه الصفة، وهذا الخلق يجرى فى أحسن مواضعه، وتأمل كيف صارت الصفة المذمومة عبودية، وكيف استحال القاطع موصلاً.

... فصاحب الرياضات، والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات والخلوات: هيهات هيهات، إنما يوقعه ذلك فى الآفات والشبهات والضلالات، فإن تزكية النفوس مُسَلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليمًا وبيانًا وإرشادًا، لا خلقًا ولا إلهامًا، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التى لم يجئ بها الرسل، فهو كالمريض الذى يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقها، وعلى أيديهم وبمحض الانقياد والتسليم لهم(١).

وفى مقابل ما يطرحه ابن القيم فى طريقة تعامله مع الآفات نجد أن هناك كتابات عديدة تخالف هذا النهج، فيطلب أصحابها من المريدين – على سبيل المثال –: الخروج من أموالهم، بل والتخلص منها كى تتفرغ قلوبهم من الدنيا – على حد زعمهم – وكذلك الخروج إلى الطرقات وسؤال الناس لتنكسر نفوسهم.

وهذا ما سماه الشيخ محمد الغزالى رحمه الله «تمارين على الذل»، وقال: إن هؤلاء كانوا يربون أتباعهم على التواضع بشتى الطرق المهينة، فإذا رأوا أنفة فى مسلك أحدهم، أو دلائل عزة وترفع، جعلوا عليه مهمة حمل أحذية الجماعة، والمحافظة عليها، حتى تنكسر نفسه، وينخفض رأسه، وبذلك يكون مرشحًا لعبادة الله كما يجب، ولم يدر هؤلاء أنهم يرشحونه

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص: ٤١٨ – ٤٢٠ بتصرف.

أيضًا ليكون عبدًا للناس جميعًا، وأن مثل هذا الكائن الممسوخ هو أمل المستعمرين، الذين يقيمون وجودهم على إذلال الأمم، وقتل الشعور بالكرامة فى نفوس بنيها[1].

نقاء العقيدة:

من مميزات كتاب مدارج السالكين أنه قدم العقيدة الإسلامية صافية نقية، خالية من الشوائب كما كانت عقيدة السلف الصالح – رضوان الله عليهم –، وقلما نجد كتابًا فى هذا الفن يتناول العقيدة بهذا النقاء، فكثيرًا ما نجد فى الكتابات الأخرى إشارات غامضة، وتعلقًا بالرؤى والإلهام والكشف، دون النظر إلى موافقتها للشريعة أو مخالفتها لها.

يقول ابن القيم: فإن هؤلاء يقع لهم أذواق ومواجيد، وواردات تخالف الحكم الشرعى، وتكون تلك معلومة لهم لا يمكنهم جحدها، ويتركون بها ظاهر الحكم، وهذا كثير جدًا[2].

والكتاب يرد أيضًا على الكثير من الفرق التى تخالف عقيدة أهل السنة والجماعة، كالقدرية والجبرية والقائلين بوحدة الوجود، وهذه الفرق وإن كانت قد اندثرت، ولا نكاد نرى لها أثرًا، إلا أن التحصن من أفكارها واجب؛ كيلاً تكون فى يوم من الأيام مدخلاً للشيطان.

الفهم الصحيح ووضوح فقه الأولويات:

من أهم ما يميز هذا الكتاب أن مؤلفه ابن القيم رحمه الله حذر فيه – وبصورة متكررة – من عدم التوازن والاعتدال فى التعامل مع الواجبات، فبين الميزان الصحيح لأفضلية العبادة، وحذر من ترك الجهاد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والسعى فى قضاء حوائج الناس، بدعوى التفرغ لإصلاح النفس.

يقول رحمه الله: ثم أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم فى أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق، فهم فى ذلك أربعة أصناف:

الصف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها... وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

---

(١) مجلة البيان العدد ١٥١ – ربيع الأول سنة ١٤٢١ هـ، مقال بعنوان: «تقديس البشر»، د. عبد العزيز بن محمد، نقلاً عن «تأملات فى الدين والحياة» ص ١٣٦.

(٢) تهذيب مدارج السالكين، ص: ٦١٩.

الصنف الثانى: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد فى الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان: فعوامهم ظنوا أن هذه غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه، ودعوا الناس إليه، وقالوا هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزهد فى الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم رأوا هذا مقصوداً لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من ذى النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس، وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل، فتصدوا له وعملوا عليه، واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذى نسب إليه، واحتجوا بأن الأنبياء إنما بُعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم فى معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس، والترهب، ولهذا أنكر النبى ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس.

الصنف الرابع قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب فى كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات فى وقت الجهاد الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما فى حالة الأمن.

والأفضل فى وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك فى أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل فى أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل فى وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل فى أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل فى أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح فى إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها فى أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بعد كان أفضل.

والأفضل فى أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال: الاشتغال

بمساعدته وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلواتك.

والأفضل فى وقت قراءة القرآن: جمع القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل فى وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد فى التضرع والدعاء والذكر، دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل فى أيام عشر ذى الحجة: الإكثار من التعبد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل فى العشر الأواخر من رمضان: لزوم المسجد فيه، والخلوة والاعتكاف، دون التصدى لمخالطة الناس، والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء.

والأفضل فى وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته وحضور جنازته وتشييعه.

والأفضل فى وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم، فإن المؤمن الذى يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذى لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم فى الخير، فهى خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم فى الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل فى كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله فى ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذى تعلق به من العبادة وفارقه، يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض فى تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل لا يزال متنقلاً فى منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه فى السير حتى ينتهى سيره، فإن رأيت العلماء

رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم(١).

القرآن يهدى إلى الرشد:

ويؤكد ابن القيم على أن الطريق المأمون إلى الله – عز وجل – واضح فى القرآن فيقول: واعلم أن الخوف يثمر الورع والاستعانة وقصر الأمل، وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد، والمعرفة تثمر المحبة والخوف والرجاء، والقناعة تثمر الرضا، والذكر يثمر حياة القلب... وملاك ذلك كله أمران، أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه وطن الآخرة، ثم تقبل به كله على معانى القرآن واستجلائها وتدبرها، وفهم ما يراد منه، وما نزل لأجله، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك.

فهذه طريقة مختصرة قريبة سهلة، موصلة إلى الرفيق الأعلى، آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب، ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر الطريق البتة، وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها، ويحميهم، ويدفع عنهم، ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها(٢).

فقه التعامل مع الناس:

ويبين – رحمه الله – ضرورة تنوع أسلوب التعامل مع الناس؛ لاختلاف مستوياتهم، فيقول: يشتد افتقار العبد إلى العظة – وهى الترغيب والترهيب – إذا ضعفت إنابته وتذكره، وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره، لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب، ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهى، فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلى الأمر والنهى، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب، والمعارض المتكبر شديد الحاجة إلى المجادلة(٣).

آفة ترك الدنيا:

وفى مواضع مختلفة من الكتاب يبين ابن القيم آفة ترك الدنيا فيقول رحمه الله: فإذا تركها – أى الدنيا – وهو بشر لا مَلَك، تعلق قلبه بما يقيمه، ويقيته، ويعيشه، وما هو محتاج إليه، فيبقى فى مجاهدة شديدة مع نفسه، لترك معلومها وحظها من الدنيا، وهذه

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص: ٧٠ – ٧٣ بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق، ص: ٢٩٣.

(٣) تهذيب مدارج السالكين، ص: ٢٣٩، ٢٤٠.

قلة فقه فى الطريق، بل الفقيه العارف يردها عنه بلقمة، كما يرد الكلب إذا نبح عليه بكسرة، ولا يقطع زمانه بمجاهدته ومدافعته، بل اعطاها حقها وطالبها بما عليها من الحق.

هذه طريقة الرسل صلى الله عليهم وسلم، وهى طريقة العارفين من أرباب السلوك، كما قال النبى ﷺ: «إن لنفسك عليك حقًا، ولربك عليك حقًا، ولزوجك عليك حقًا، ولضيفك عليك حقًا، فأعط كل ذى حق حقه»...[1].

لا للعبوس:

ومن النقاط الدقيقة التى تحدث عنها: أن السير فى الطريق إلى الله لا ينافى اللطف والظرف، فيقول: فإذا تمكن العبد من حاله، وصار له إقبال مع الله، وجمعية عليه - ملكة ومقامًا راسخًا - أنس بالخلق، وأنسوا به، وانبسط إليهم، وحملهم على ضلعهم وبطء سيرهم، فعكفت القلوب على محبته؛ للطفه وظرفه، فإن الناس ينفرون من الكثيف، ولو بلغ فى الدين ما بلغ... ولله ما يجلب اللطف والظرف من القلوب، ويدفع عن صاحبه من الشر، ويسهل له ما توعَّر على غيره، فليس الثقلاء بخواص الأولياء، وما ثقل أحد على قلوب الصادقين المخلصين إلا من آفة هناك، وإلا فهذه الطريق تكسو القلوب حلاوة، ولطافة وظرفًا، فترى الصادق فيها من أحلى الناس والطفهم وأظرفهم، قد زالت عنه ثقالة النفس، وكدورة الطبع، وصار روحانيًا سمائيًا، بعد أن كان حيوانيًا أرضيًا، فتراه أكرم الناس عشرة، وألينهم عريكة، وألطفهم قلبًا وروحًا[2]...

ذلك والكتاب قد ظهر فى طبعة مهذبة من الأشياء التى كانت تقطع على القارئ استرساله واندماجه مع المعانى، فحُذفت الردود الكثيرة على أهل بدعة وحدة الوجود، وأُلغيت الاستطرادات الفقهية واللغوية والآثار الإسرائيلية والأحاديث الضعيفة والمعانى المكررة[3].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص: ٤٧٢، ٤٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص: ٥٧٦.

(٣) مقدمة تهذيب مدارج السالكين، ص: ٩، ١٠.

الفصل العاشر

الالتحاق بالمحاضن التربوية

يقول تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

فمن الوسائل المهمة لإحياء القلب واستمراره في يقظته: وجود البيئة الطيبة، والوسط الصالح، الذي يعين العبد على تطبيق ما سبق.

إن تيار المادية جارف، وانجذاب الناس إلى الأرض شديد، ولكي يستطيع المسلم أن يقاوم هذا كله ولا يذوب فيه لابد له من وضع يده في يد من يريدون وجه ربهم؛ ليكونوا جميعًا: ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

أخطار السير المنفرد:

فسير العابد إلى الله - عز وجل - منفردًا، ومحاولته تطبيق ما أشرنا إليه من وسائل متعددة بمفرده له مخاطر كثيرة.

- منها: أن من طبيعة النفس البشرية عدم الثبات على حال، ففيها إقبال وإدبار، وعزيمة وفتور، وقوة وضعف ... ففي حالات الضعف والفتور التي قد تنتابها يُخشى على صاحبها الركون للدنيا، والتراجع للخلف إذا ما كان يسير بمفرده، أما في حالة وجوده مع إخوانه فإنهم لن يتركوه في مثل هذه الحالة، بل سيقبضون على يديه، مثبتين إياه على الطريق، حتى يعود إلى سابق عهده من الهمة والنشاط.

- ومنها: أن الإنسان لا يعرف طبيعة نفسه إلا من خلال الاحتكاك بالآخرين.

يقول محمد قطب: لا يمكن أن يتم البناء النفسي والأخلاقي الصحيح للإنسان إلا في داخل الجماعة، حيث يبرز الجانب الجماعي من الإنسان بصورة تلقائية؛ بحكم ضرورة التعامل مع الآخرين، وحيث يمكن للمربي أن يلاحظ أسلوب التعامل، فيقوِّم ما قد يكون فيه من انحراف، أو يثبت ما يجده فيه من استقامة، لكي يتأكد وجوده، ولا يكون عرضة للانحراف عندما تضغط الظروف على المشاعر والوجدان ... وقد يبدو الإنسان لطيف المعشر، حلو الشمائل حين تلتقي به لأول وهلة لقاءً محدود التعامل، أو لقاءً في فسحة لا

تحتك فيه المصالح، ولا تحتاج فيه الذات إلى البروز ... ثم تفاجأ به ذا جفوة وغلظة، أو ذا أنانية حادة، أو ذا نزعة إلى التسلط، أو كسولاً لا يتعاون مع الآخرين، حين تجمعك به ظروف تضطر الإنسان أن يكشف عن حقيقة ذاته ... خاصة ظروف الضيق والشدة، وهى أشد ما يبرز الإنسان، ومن هنا لا يستطيع المربى أن يعرف طبيعة الشخص الذى يربيه حتى يوجده فى جماعة، ويراقب طريقة تصرفه إزاءها، ثم يقوم ما يحتاج فى نفسه إلى تقويم(١).

– ومن أخطار السير المنفرد أن صاحبه قد يصبح فريسة سهله لإبليس وجنوده، فالعبد كلما اقترب من مولاه ازدادت حرب الشيطان وهجماته عليه، فيشن الغارة تلو الغارة.

يقول ابن القيم: وما أمَر الله – عز وجل – بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو، فلا يبالى بما ظفر من العبد من الخطيئتين، فإنه يأتى إلى قلب العبد فيشاقه، فإن وجد فيه تقصيراً أو فتوراً، أو توانيًا وترخّصًا، أخذه من هذه الخطة، فثبطه وأقعده، وضربه بالكسل والتوانى والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك، حتى ربما ترك العبد المأمور جملة .. وإن وجد عنده حذراً وجدًّا، وتشميراً ونهضة، وآيس أن يأخذه من هذا الباب أمره بالاجتهاد الزائد، وسوَّل له أن هذا لا يكفيك، وهمتك فوق هذا، وينبغى أن تزيد على العاملين، وأن لا ترقد إذا رقدوا، ولا تفطر إذا فطروا، وأن لا تفتر إذا فتروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات فاغسل أنت سبعًا، وإذا توضأ للصلاة فاغتسل أنت لها، ونحو ذلك من الإفراط والتعدى، فيحمله على الغلو والمجاوزة، وتعدى الصراط المستقيم، كما يحمل الأول على التقصير دونه وأن لا يقربه ولا يدنو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه، وقد فتن بهذا أكثر الخلق، ولا ينجى من ذلك إلا علم راسخ، وإيمان، وقوة على محاربته، ولزوم الوسط(٢).

ومن مداخل الشيطان أيضًا للعبد فى بداية سيره إلى الله: محاولة تشكيكه فى القدر والجبر والاختيار وغير ذلك من الوساوس التى من شأنها أن تزعزع عقيدته إذا ما استرسل معها.

والحصن الذى ينبغى أن يتحصن به الواحد منا تجاه هذا كله: دوام اللجوء إلى الله، والاعتصام به، والإلحاح عليه فى صرف الشيطان عنه، مع الحرص على عدم الاسترسال فى هذه الوساوس، والتحصن بحصن العلم، ودراسة العقيدة الصحيحة – عقيدة السلف

---

(١) منهج التربية الإسلامية: ٢ / ٤٠.

(٢) الوابل الصيب: ص ٢٥.

الصالح – وملازمة الصالحين أصحاب العلم والخبرة.

– ومن أخطار السير المنفرد: أن الكثير من الوسائل التى أشرنا إليها تحتاج إلى إعانة من الآخرين، وتوفير الجو المناسب لتنفيذها.

أضف إلى ذلك أن الذى يسير بمفرده قد يجد صعوبة فى البدء بها فى آن واحد، خاصة وأن عليه الكثير من الأعباء الحياتية التى لا يستطيع الانفكاك عنها ... من هنا يشتد احتياجه إلى من يرتب أوراقه، ويضع له الخطط المناسبة لتطبيق هذه الوسائل بصورة متوازنة دون حدوث خلل فى حياته.

– ومنها: أن العبد يحتاج إلى علم شرعى يحصنه من الوقوع فى الشبهات والبدع، هذا العلم لابد أن يُدَرَّس له بطريقة منهجية متدرجة ومتوازنة، مع وجود مرجعية توضح معنى دقيق أشكل عليه، أو تجيب عن تساؤل عنَّ له، أو تريه كيفية صياغة هذا العلم فى واجبات عملية.

ومن العلوم المهمة التى يحتاجها العبد فى هذا الوقت: فقه الأولويات ومراتب الأعمال، فبدون معرفته قد يترك العمل الفاضل ويفعل المفضول.

ومثال ذلك: أنه قد يجد راحة نفسية فى القيام ببعض العبادات، والتى تُحدث أثرًا مباشرًا فى القلب، فيشعر بحلاوة الإيمان وقت أدائها، فيزداد اهتمامه بها على حساب أعمال أخرى قد لا يجد فيها قلبه، كمساعدة المحتاج والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

يقول ابن تيمية رحمه الله: ليس العاقل الذى يعلم الخير من الشر، ولكن العاقل الذى يعلم خير الخيرين، وشر الشرين[1].

وهذا النوع من العلم يصعب على العبد تحصيله بمفرده.

أهمية المحاضن التربوية فى عصرنا الحاضر:

من فوائد المحاضن التربوية: أنها وإن كانت هامة وضرورية فى كل زمان ومكان لحماية العبد من أخطار السير المنفرد إلا أنها فى هذا الزمان قد تعتبر من الواجبات... لماذا؟

لأن الأمة قد تحطمت، وصارت أنقاضًا، فالخلافة قد أُلغيت، والكثير من مظاهر الإسلام قد تلاشت، وابتعد الناس عن دينهم، وانحرفوا فى تصوراتهم وسلوكهم.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/٥٤.

والمسلم ليس مطالبًا بإصلاح نفسه فقط، بل والعمل على إصلاح الآخرين أيضًا، وعليه كذلك واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتحكيم شرع الله، وإقامة دينه فى الأرض.

وهذه كلها واجبات لا تسقط عنه مهما صلى وصام، بل لابد له من السعى لتغيير الواقع، وإقامة دولة الإسلام، وعودة الخلافة، وتحرير ديار المسلمين المغتصبة، وطرد اليهود من فلسطين، وتحرير المسجد الأقصى من دنسهم.

ومن رحمة الله بعباده أن قيّض لهذه الأمة مجددًا ربانيًا أحيا الأمل فى قلوب الغيورين، ووضع تصورًا واضحًا للقيام بهذه الواجبات، بل ولأستاذيه العالم أيضًا.

لقد نظر حسن البنا رحمه الله إلى الواقع من حوله، وقام بدراسة مناهج الدعوات الإصلاحية القائمة فى زمانه، فوجد أنها تهتم بجانب وتترك جوانب، وأنها تركز على الجانب المعرفى النظرى وتترك الجانب العملى التطبيقى، فالانفصال بين العلم والعمل كان بمثابة الحلقة التى شعر - رحمه الله - بعدم وجودها فى مناهج تلك الدعوات.

فخلص بعد دراسته لأحوال الأمة أنه لا صلاح لها إلا بإصلاح الفرد، ولا صلاح للفرد إلا بالتربية.

يقول فى إحدى رسائله: إن غاية الإخوان تنحصر فى تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح، يعمل على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة فى كل مظاهر حياتها: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، وأن وسيلتهم تنحصر فى تغيير العرف العام، وتربية أنصار الدعوة على هذه التعاليم حتى يكونوا قدوة لغيرهم فى التمسك بها، والحرص عليها، والنزول على حكمه(١).

فطريق التربية هو الطريق الوحيد الذى ينهض بالأمة، ويقيلها من عثرتها، ولم لا؟ والهدف من ورائه تكوين أمة جديدة، جاهدت نفسها، وانتصرت عليها، فأصبحت على غيرها أقدر.

فمن أقواله - عليه رحمة الله -: أيها الإخوان، إنكم فى دور التكوين؛ فلا يلهينكم السراب الخادع عن حسن الاستعداد وكمال التأهب، اصرفوا تسعين جزءًا من المائة من وقتكم لهذا التكوين، وانصرفوا فيه لأنفسكم، واجعلوا العشرة أجزاء الباقية لما حولكم من

---

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد: حسن البنا.

الشئون، حتى يشتد عودكم، ويتم استعدادكم، وتكمل أهبتكم، وحينئذ يفتح الله بينكم وبين قومكم بالحق وهو خير الفاتحين(١).

ويقول: إن معركتنا معركة تربوية(٢).

ويقول: إن العمل مع أنفسنا هو أول واجباتنا فجاهدوا أنفسكم(٣).

معنى التربية:

يقول الإمام البيضاوى فى تفسيره: التربية هى تبليغ الشىء إلى كماله شيئًا فشيئًا.

وفى مفردات الراغب الأصفهانى: هى إنشاء الشىء حالاً فحالاً إلى حد التمام(٤).

ومن معانيها أيضًا: ترجمة العلم النظرى إلى سلوك عملى، فالنظريات العلمية تظل حبيسة الورق ما لم تجد من يترجمها إلى الواقع العملى.

وهى من أهم مهمات الرسل.

ففى دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة: ١٢٩].

والمتأمل لهذا الدعاء يجد إبراهيم – عليه السلام – قد قدم التعليم على التزكية فى دعائه؛ فكلاهما يحتاجه الناس.

وتأتى الآيات الأخرى التى تتحدث عن مهام الرسول لتقدم التزكية على التعليم، لتبين أهميتها، وأنها من أهم ثماره، يقول تعالى: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٥١]، ويقول تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [الجمعة: ٢].

---

(١) بيان للإخوان بمحافظة الدقهلية عن مجلة المجتمع الكويتية.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أصول التربية الإسلامية للنحلاوى، ص ١٣.

إن العمل بالعلم يحتاج عند كثير من الناس إلى تعهد ومتابعة، فلكم سمعنا من توجيهات، وجلسنا فى محاضرات، ومع هذا كله لم يتغير فينا الكثير، لأن أغلبنا لم يجد من يأخذ بيده، ويعينه على العمل بما علم.

فلا يكفى الاقتناع العقلى لتغيير ما بالنفس من رواسب قديمة، وعادات راسخة، ولا يكفى كذلك ممارسة مقتضيات ومظاهر الأخلاق الحسنة مرة أو مرتين لتصير سجية من سجاياناً، ولكن لابد بعد هذه القناعة من ممارسة طويلة لهذه الأخلاق، كى تدخل منطقة اللاشعور، فتنطلق الأفعال بعد ذلك بصورة تلقائية، وبدون تفكير مسبق، وهذا لن يحدث فى يوم وليلة، بل لابد من صبر ومثابرة، وتعهد ومتابعة.

يقول جودت سعيد: الأمر لا يقتصر على وجود الفكرة فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تحويل الفكرة إلى إيمان يتدخل فى سلوك الإنسان، فوجود الفكرة بشكل أولى لا يستلزم إيمان الناس بها إيماناً يظهر على سلوكهم، ويدخل فى لا شعورهم، والناس كثيراً ما يتحدثون عن العدل والمساواة، ولكنهم عند التطبيق يظهرون بالقيم العشائرية الأكثر عمقًا فى داخلهم(١).

ويؤكد على هذا المعنى محمد قطب، فيقول: إن أمر الالتزام بالأخلاق الحميدة يحتاج إلى تعويد طويل حتى تصبح عادة تلقائية، ويحتاج إلى عمل دائب لغسل رواسب الجاهلية من النفس، وهى رواسب لا تذوب فى لحظة لأنها متشابكة مع خيوط النفس، وداخلة فى بنائها، كالبقعة الداخلة فى النسيج ربما تغسلها مرة فتذهب، وربما تحتاج إلى غسلات كثيرة حتى تذهب(٢).

ويقول أيضًا: فالتربية عملية مستمرة، لا يكفى فيها توجيه عابر – مهما كان مخلصاً، ومهما كان صوابًا فى ذاته – إنما يحتاج الأمر إلى المتابعة والتوجيه المستمر.

إن المتلقى نفس بشرية، وليست آلة تضغط على أزرارها ثم تتركها وتنصرف إلى غيرها، فتظل على ما تركتها عليه ... نفس بشرية دائمة التقلب، متعددة المطالب، متعددة الاتجاهات، وكل تقلب، وكل مطلب، وكل اتجاه فى حاجة إلى توجيه، فالعجينة البشرية عجينة عصية تحتاج إلى متابعة دائمًا، وليس يكفى أن تضعها فى قالبها المضبوط مرة إلى

---

(١) كن كابن آدم.

(٢) منهج التربية الإسلامية: ٢/٥٨.

الأبد وتستقر هناك، بل هناك عشرات من الدوافع المؤارة فى تلك النفس، دائمة البروز هنا والبروز هناك، ودائمة التخطى لحدود القالب المضبوط هنا وهناك، ولابد فى كل مرة من توجيه لإعادة ضبطها داخل القالب، حتى تنطبع نفس المتلقى بالتوجيه، فيقوم هو بذاته بعملية المتابعة والتوجيه والضبط .. ومن هنا مشقة التربية وخطورتها، وضرورتها فى ذات الوقت، فإما الجهد الدائب، وإما الضياع[1].

محاور التربية:

يقول حسن البنا رحمه الله: إن الخطب والأقوال والمكاتبات، والدروس والمحاضرات، وتشخيص الداء ووصف الدواء، كل ذلك وحده لا يجدى نفعًا، ولا يحقق غاية، ولا يصل بالداعين إلى هدف من الأهداف، ولكن للدعوات وسائل لابد من الأخذ بها والعمل لها.

والوسائل العامة للدعوات لا تتغير ولا تتبدل، ولا تعدو هذه الأمور الثلاثة:

١ - الإيمان العميق.

٢ - التكوين الدقيق.

٣ - العمل المتواصل[2].

لقد بدأ - رحمه الله - بالإيمان العميق، واعتبره أول محور من محاور التربية، فالتربية الإيمانية لابد وأن تسبق غيرها، ومستهدفها - كما أشرنا سابقًا - ربط القلوب بالله وحسن الاتصال به.

فإذا ما تم ذلك، سهل القيام بالمحاور الأخرى، لأن القلوب إذا صلحت تبعتها الجوارح بالصلاح.

وعندما تصل تلك التربية إلى هدفها، ويحدث الوصال بين القلب وخالقه، يصبح تغيير الظاهر بعد ذلك من السهولة بمكان، بل وتكفيه الإشارة، كما حدث مع الصحابة عند نزول آية تحريم الخمر، وكذلك تحويل القبلة.

أما المحور الثانى من محاور التربية والتغيير فهو: التكوين الدقيق، ومن خلاله يتم بناء الشخصية المسلمة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح (التربية السلوكية والأخلاقية)

---

(١) منهج التربية الإسلامية: ٢/٨٥.

(٢) رسالة بين الأمس واليوم: ص ١٦١.

ففيه يكتسب الفرد الصفات الحميدة، ويتخلص من الصفات المذمومة.

وطريقتها بإجمال تبدأ بتحديد مظاهر عملية للصفة المراد اكتسابها، وإلزام النفس كل فترة بالقيام ببعض هذه المظاهر، مع عدم التراخي في متابعة تنفيذها، وبمرور الوقت، وبالمداومة على ذلك، تكتسب النفس مظاهر الصفة، ليصبح صاحبها متخلقًا بها.

نعم .. قد يأخذ هذا الأمر وقتًا طويلاً، ولكن ليس هناك طريق غير ذلك، فالتربية أمر شاق وصعب.

ومما يُسَهِّل علينا القيام بهذا التكوين الدقيق: قوة الإيمان، فمن خلاله تنشأ الرغبة، وتقوى العزيمة، وتعلو الهمة، ويبتعد صاحبها عن جواذب الأرض التي طالما أقعدته عن الوصول إلى المعالي.

والمحور الثالث من محاور التربية، والتي أشار إليها البنا بقوله: العمل المتواصل يمكننا أن نطلق عليه مصطلح (التربية الدعوية والحركية)، والهدف منها تربية المسلم وتعويده على التحرك بالدعوة وسط الناس ... الدعوة بمفهومها الواسع، مع ترغيب الناس في الله عز وجل، وتحبيبهم فيه سبحانه وتعالى.

فتعريف المسلمين بالإسلام، وشموله لجميع مناحي الحياة: دعوة.

والعمل على إقامة الإسلام في حياة الناس، ومطابقة واقعهم على ما ينادى به: دعوة.

والمطالبة بتحكيم شرع الله وإعلاء رايته: دعوة.

ونصرة المظلوم والسعي في قضاء حوائج الناس: دعوة.

والعمل على نشر الإسلام بين غير المسلمين: دعوة.

فجميع ما يصدر من المسلم يمكن أن يكون له منطلق دعوى، سواء كان ذلك قولاً أو فعلاً.

فمقام الدعوة إلى الله من أفضل المقامات، وصاحبه من أتباع الرسل.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ويقول صاحب الظلال في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ

مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣].

هذه هى القولة الرهيبة التى تملأ القلب بجدية هذا الأمر، أمر الرسالة والدعوة.. والرسول ﷺ يؤمر بإعلان هذه الحقيقة الكبيرة، إنى لن يجيرنى من الله أحد، ولن أجد من دونه ملتحداً أو حماية، إلا أن أبلغ هذا الأمر، وأؤدى هذه الأمانة، فهذا هو الملجأ الوحيد، وهذه هى الإجارة المأمونة، إن الأمر ليس أمرى، وليس لى فيه شىء إلا التبليغ، ولا مفر لى من هذا التبليغ، وأنا مطالب به من الله، ولن يجيرنى منه أحد، ولن أجد من دونه ملجأ يعصمنى، إلا أن أبلغ وأؤدى.

يا للرهبة يا للروعة ويا للجد.

إنها ليست تطوعاً يتقدم به صاحب الدعوة، إنما هو التكليف، التكليف الصارم الجازم، الذى لا مفر من أدائه، فالله من ورائه.

وإنها ليست اللذة فى حمل الهدى والخير للناس، إنما هو الأمر العلوى الذى لا يمكن التفلت منه، ولا التردد فيه.

وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد.. إنها تكليف وواجب، وراءه الهول، وراءه المجد، وراءه الكبير المتعال (١).

علاقة المحاور بعضها ببعض:

فهذه هى المحاور الثلاثة للتربية والتى من خلالها يتم التغيير، وهى كما نرى ترتكز على المحور الأول: الإيمان العميق، فمن خلاله يتيسر القيام ببقية الوسائل.

وليس معنى التركيز على هذا المحور إهمال المحاور الأخرى، فمهما كانت درجة الإيمان فلن يتم اكتساب الأخلاق الحسنة إلا بالمداومة عليها.

وبدون التحرك بالدعوة وسط الناس يظل الإيمان خاملا، فوسائل ربط القلوب بالله، وزيادة الإيمان فيها، ما هى إلا محطات وقود نستكمل فيها النقص الذى قد يطرأ على إيماننا نتيجة الاحتكاك بالآخرين، ومخالطتهم، والصبر عليهم، وأيضا نتيجة مقارعة الظالمين، ومواجهة هجماتهم الشرسة، والعمل على كشف مخططاتهم الرامية إلى زعزعة الإسلام فى نفوس أبنائه، والسيطرة على ديارة.

---

(١) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٦، ٣٧٣٧.

فإذا ما انعزلنا عن المجتمع، وتقوقعنا على أنفسنا، فلأى مدى ستكون حاجتنا لتجديد الإيمان فى قلوبنا ونحن لم نغادر أماكننا؟ ناهيك عن تعرض من يفعل ذلك للحرج الشرعى؛لتركه واجب الدعوة إلى الله، وبخاصة فى هذا الوقت الذى أصبح فيه المسلمون كالأيتام على مائدة اللئام.

لقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم – ومن تبعهم بإحسان يدركون هذا الأمر جيدا، وكانوا ينكرون أشد الإنكار على كل من اعتزل الناس، وتفرغ للعبادة، فلقد بلغ عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – أن رجالا خرجوا من الكوفة، ونزلوا قريبا يتعبدون، فأتاهم ففرحوا بمجيئه، فقال لهم: ما حملكم على ما صنعتم؟، قالوا: أحببنا أن نخرج من غمار الناس، نتعبد، فقال عبد الله: لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتى ترجعوا(١).

وهذا عبد الله بن المبارك الذى كان يرابط فى سبيل الله بثغر من ثغور المسلمين يبعث برسالة إلى أخيه الفضيل بن عياض يعاتبه فيها لأنه ترك الرباط فى سبيل الله وانقطع لعبادة الله فى المسجد الحرام، يقول له:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك فى العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب

أو كان يتعب خيله فى باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب

يقول البهى الخولى: ولقد كتب ابن المبارك هذا الكلام لصديقه فى وقت لم يكن فيه الجهاد فرض عين، ومع هذا وصف عبادته بأنها لعب، وهى عبادة تقع فى أشرف بقعة على ظهر الأرض، ترى ماذا كان يقول ابن المبارك لصديقه لو أن الجهاد فرض عين؟ وماذا كان يقول عن العبادة لو أنها كانت فى غير المسجد الحرام؟(٢).

وهناك أمر آخر يبرر أهمية الحركة والجهاد فى سبيل الله بشتى صوره، وهو أننا لن نستفيد كثيرا من القرآن إذا قرأناه ونحن بعيدون عن واقع الحياة.

إن القرآن كتاب هداية وشفاء، وفيه الحل المناسب لجميع ما يعانى منه الناس، فأين المعاناة

---

(١) الزهد لابن المبارك، ص: ٣٩٠.

(٢) تذكرة الدعاة ٢١٢.

التى يعانيها المتعزل لكى يبحث عن دواء لها فى القرآن؟ وبأى روح سيستقبل آيات الابتلاء والصبر والثبات والجهاد؟

إن هذه الآيات وغيرها لن تقع مواقعها الصحيحة فى نفسه؛ لأنه غير معايش لها، بعيد عن تصورها، فكما قالوا: الحكم على شىء فرع من تصوره.

من هنا نقول أنه ينبغى السير فى المحاور التربوية الثلاثة فى آن واحد.

نعم، قد تسبق التربية الإيمانية أخواتها، ولكن ليس بصفة دائمة، بل بصفة مؤقتة، حتى ترتبط القلوب بالله، وتصبح النية خالصة لوجهه الكريم، ويكون الإيمان هو الدافع للأعمال، لا الحياء، ولا العادة، فيثاب المرء عند ذلك على كل فعل يقوم به، مهما كان حجمه، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [التوبة: ١٢٠].

من فوائد البدء بالتربية الإيمانية:

هناك أمر آخر يبرز أهمية البدء بالتربية الإيمانية وهو أنه كلما ازداد ارتفاع مستوى الأخوة بين الأفراد، وأصبحت أخوة إيمانية صادقة، وعندما يوجد مثل هذا النوع من الأخوة، فإنه من شأنه أن ييسر العملية التربوية، ويعطيها طعما وشكلا آخرين.

فعندما وصل الإيمان فى قلوب الأنصار إلى الدرجات العُلى كانت أخوتهم للمهاجرين لا مثيل لها.

يقول تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر: ٩].

ومن فوائد البدء بالتربية الإيمانية: تيسير القيام ببقية الواجبات، ولقد كان هذا هو منهج الرسول ﷺ فى تربيته لأصحابه.

كان عليه الصلاة والسلام يعمل على ربط قلوبهم بالله أولا، ثم يوجههم بعد ذلك للعمل المطلوب، فكان فى كثير من الأحيان يسبق توجيهه بقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» فتذعن القلوب لداعى الإيمان، فتلقى السمع، وتأخذ أهبة الاستعداد للتنفيذ.

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ :« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيرا »(١).

اقتراحات :إن المحاضن التربوية بشتى أنواعها، سواء كانت بين الرجل وزوجته وأولاده، أو بين الأصدقاء والمعارف، يمكن أن تكون بمثابة مراكز إشعاع إيمانى، ومحطات وقود يتزود منها كل من يردها، ويستكمل فيها ما نقص من إيمانه.

وهذه بعض المقترحات التى قد تساعد على ذلك:

١– هناك الكثير من الوسائل التى أشرنا إليها يشعر الواحد منا وكأن هناك حاجزا نفسيا يحول بينه وبين تنفيذها؛ إما لعدم ممارستها من قبل، أو لهيبته منها، أو لشكه فى الفائدة المرجوة منها، وهنا يأتى دور المحاضن التربوية، ففيها يمكن أن يتم تقديم نماذج عملية لهذه الوسائل مرة ومرة حتى تزول الرهبة، وينكسر الحاجز النفسى، ويستشعر الجميع مدى النفع الذى عاد عليهم نتيجة قيامهم بها.

فشدة الخوف من الله – على سبيل المثال – يمكن للمحاضن أن تساعد على زيادته فى القلوب من خلال تيسير القيام ببعض الوسائل العملية، كالذهاب إلى المقابر، وزيارة المستشفيات، وشراء الأكفان، ومتابعة كتابة الوصية والأمنيات.

وفيها يمكن للفرد أن يتعلم كيف يحصى ذنوبه، وكيف يتفكر فى مجالات الخوف، مع وضع ذلك كله فى برنامج يقوم به الشخص مع نفسه وفى بيته، مع متابعته فى تنفيذه.

وتدبر القرآن كذلك يحتاج إلى المحاضن، ففيها يتم التدريب على التدبر بالطريقتين التى سبق الإشارة إليهما، فعلى سبيل المثال يختار موضوع من الموضوعات – كالتى سبق ذكرها فى فصل تدبر القرآن – ويطرح بشكل واضح، مع ضرب أمثلة عملية من القرآن، ثم يطلب من الحاضرين استخراج الآيات التى لها علاقة بالموضوع فى سورة من السور، وشيئا فشيئا سيتعود الجميع على التدبر.

وهكذا فى بقية وسائل إيقاظ القلب السابقة.

٢– ترتيب برامج للاستفادة من المسجد، والأوقات الفاضلة، ومواسم الخير، ومثال ذلك: وضع برنامج للاستفادة من ليلة الجمعة ويومها، وتحرى ساعة الإجابة فيه، فيبدأ الواحد منا ليلته بالإفطار عند مغرب الخميس، وبعد صلاة العشاء يقرأ فى كتاب من كتب الرقائق، أو يستمع إلى موعظة من المواعظ، ثم يجلس مع نفسه ليتذكر ساعة الاحتضار

---

(١) صحيح، صحيح الجامع ح (٦٥٠٤).

وما يتلوها من أحداث، ثم يتبع ذلك بالاستغفار وصلاة التوبة، ولينم على وضوء مردداً أذكار النوم، ليستيقظ قبل الفجر بوقت كاف للتهجد والتضرع، والاستغفار لله عز وجل، ثم يتوجه إلى المسجد ليصلى الفريضة، وليمكث فيه ذاكرا لله – عز وجل – حتى طلوع الشمس، فيصلى صلاة الضحى، وينصرف إلى منزله ليستريح قليلا، ثم يغتسل غسل الجمعة، ويتطيب ويلبس الثوب المعد لها، ثم يتوجه إلى المسجد قبل الصلاة بوقت طويل.. ويحرص كذلك على الوجود فى المسجد فى الساعة الأخيرة من اليوم وقبل صلاة المغرب، يدعو الله – عز وجل – فيها، ويردد أذكار المساء، ويكثر من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

مثل هذا البرنامج كفيل بأن يجدد الإيمان فى القلب إذا ما تم الاستمرار عليه.

٣- ومن المقترحات أيضا لهذه المحاضن المباركة: العمل المستمر على ضبط الفهم الصحيح للأفراد، كيلا يحدث تشدد ومغالاة عند البعض منهم، والضابط لذلك هو هدى الرسول ﷺ.

يقول ابن رجب: إن أحب الأعمال إلى الله ما كان على وجه السداد والاقتصاد والتيسير، دون ما كان على وجه التكلف والاجتهاد والتعسير، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقد أنكر النبى ﷺ على من عزم التبتل والاختصاء، وقيام الليل، وصيام النهار، وقراءة القرآن كل ليلة، وقال: «لكنى أصلى وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»(١)، وقال ﷺ: «سددوا وقاربوا وأبشروا»(٢)، والمراد بالتسديد العمل بالسداد، وهو القصد والتوسط بين الإفراط والتفريط.. وقوله ﷺ: «وأبشروا» يعنى أن من مشى فى طاعة الله على التسديد والمقاربة فليبشر، فإنه يصل ويسبق الدائب المجتهد فى الأعمال، فإن طريق الاقتصاد والمقاربة أفضل من غيرها، فمن سلكها فليبشر بالوصول، فإن الاقتصاد فى السنة خير من الاجتهاد فى غيرها «وخير الهدى هدى محمد ﷺ»، فمن سلك طريقه كان أقرب إلى الله من غيره، وليست الفضائل بكثرة الأعمال البدنية، ولكن بكونها خالصة لله عز وجل، صوابا على متابعة السنة، وبكثرة معارف القلوب وأعمالها، فمن كان بالله أعلم وبدينه وأحكامه وشرائعه، وله

---

(١) صحيح، متفق عليه من حديث أنس، انظر صحيح الجامع الصغير ح (٥٥٧٢)..

(٢) صحيح، متفق عليه من حديث عائشة، صحيح الجامع الصغير ح (٣٦٢٨).

أخوف وأحب وأرجى فهو أفضل ممن ليس كذلك، وإن كان أكثر منه عملا بالجوارح..

ولهذا قال بعض السلف: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره، وقال ابن مسعود - رضى الله عنه - لأصحابه: أنتم أكثر صوما وصلاة من أصحاب محمد ﷺ وهم كانوا خيرا منكم قالوا: وبم ذاك؟، قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا، وأرغب في الآخرة، يشير إلى أن الصحابة - رضى الله عنهم - فاقوا على من بعدهم بشدة تعلق قلوبهم بالآخرة، ورغبتهم فيها، وإعراضهم عن الدنيا بتحقيرها وتصغيرها، إن كانت في أيديهم، فكانت قلوبهم منها فارغة، وبالآخرة ممتلئة، وهذه الحال ورثوها من نبيهم ﷺ، فإنه كان أشد الخلق فراغا قلبه من الدنيا، وتعلقا بالله والدار الآخرة، مع ملابسته للخلق بظاهره، وقيامه بأعباء النبوة وسياسة الدين والدنيا، وكذلك خلفاؤه الراشدون بعده، وكذلك أعيان التابعين لهم بإحسان كالحسن وعمر بن عبد العزيز، وقد كان في زمانهم من هو أكثر منهم صوما وصلاة، ولكن لم يصل قلبه إلى ما وصلت إليه قلوب هؤلاء، من ارتحالهم عن الدنيا وتوطنها في الآخرة.

.. فأفضل الناس من سلك طريق النبي ﷺ وخواص أصحابه في الاقتصاد في العبادات البدنية، والاجتهاد في الأحوال القلبية؛ فإن سفر الآخرة يقطع بسير القلوب، لا بسير الأبدان(١).

٤- البداية الربانية:

فمن خلالها ينتقل الجميع من صخب الدنيا ومشاغلها إلى الملأ والأعلى والتطلع إلى السماء.

فلو استشعر الحاضرون أن باب التوفيق الإلهي مغلق بما أحدثوا من ذنوب، وبما قصروا فيه من حقوق، وأنهم بحاجة إلى فتحه لتصيبهم الرحمات الربانية، ويوفقوا إلى ما يحبه الله ويرضاه، لو استشعروا ذلك ثم طلب منهم الاستغفار والصدقة، والصلاة على الرسول ﷺ لسارعوا إلى التنفيذ، ولدعوا الله بصدق أن يفتح عليهم أبواب فضله ورحمته، وألا يخذلهم ويكلهم إلى أنفسهم طرفة عين، ولسألوه الجنة، ولاستعاذوا به من النار.

فهذه الأمور وغيرها - إذا ما تمت المواظبة عليها - من شأنها أن تهيئ القلوب والعقول والأسماع لحسن الفهم والتلقي، كما قال تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢].

---

(١) المحجة في سير الدلجة، ص: ٤٦ - ٥٧ بتصرف.

ويكفى فى فضل هذه البداية استدعاؤها للملائكة لحضور هذه المجالس المباركة، قال ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض فضلا عن كتاب الناس، يطوفون فى الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجاتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادى؟ فيقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك فيقول هل رأونى فيقولون: لا والله ما رأوك، فيقول: كيف لو رأونى؟ فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا، وأكثر لك تسبيحا، فيقول: فما يسألونى؟ فيقولون: يسألونك الجنة، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها، فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا، وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟ فيقولون: من النار، فيقول الله هل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة، فيقول: فأشهدكم أنى قد غفرت لهم، فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»(١).

٥- دوام التذكير بالجنة وما فيها من نعيم، وتشويق القلوب إليها، وربط الأحداث بها، والمقارنة الدائمة بين نعيمها ونعيم الدنيا، وأنه لا نسبة بينهما، فالدنيا مهما صفت للإنسان وخلت من كل كدر وهم وحزن وقلق فإنها إلى زوال، فما ظنك بها وهذه الأكدار مصاحبة لها لا يخلو منها أحد من الناس.

أما الجنة فأهلها: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ [الكهف: ١٠٨]

لا يهرمون، ولا يموتون، ولا يمرضون.. ليس فيها هم ولا غم ولا نكد، ولا خوف من غائب ينتظر.

الكل فى سعادة لا حدود لها.. يتنعمون بما لا يخطر على قلب بشر ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

قصور لم تر العين مثلها، وتعجز مفردات اللغة عن وصفها؛ لأن جميع تصوراتنا تنصب مما شاهدناه فى الحياة الدنيا، والتى بكل ما تحتويه من زينة لا تساوى عند الله جناح بعوضة.. فأى روعة، وأى جمال ستكون عليه قصور الجنة، وأنهارها، وثمارها، وطعامها، وشرابها، وحورها؟

---

(١) صحيح متفق عليه عن أبى هريرة، صحيح الجامع ح (٢١٧٣).

يقول ﷺ : «إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام ما يقطعها»(١).

فهل لنا أن نحلم بأن الله – عز وجل – قد من علينا بدخولها؟ – فيها سننظر – بمشيئة الله وفضله ورحمته – إلى وجهه سبحانه، يقول ﷺ :«إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: هل تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتجنبنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم»(٢).

أى سعادة تلك التى سيشعر بها العبد وهو ينظر إلى وجه مولاه جل جلاله؟ سنوات طوال يدعوه ويناجيه يتضرع إليه وهو لا يراه، ثم يأتى موعد اللقاء ﴿ **مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ** ﴾ [العنكبوت: ٥].

– وفى الجنة – بإذن الله – سنلقى الحبيب المصطفى ﷺ، الذى طالما صلينا وسلمنا عليه، وتذكرنا سيرته.. فما أكثر اللحظات التى مرت علينا، وازداد فيها شوقنا إلى رؤيته.

هناك سنراه، ونجلس معه، ونستمع إليه هو وإخوانه من الأنبياء والمرسلين، والصحب الكرام، والتابعين، والمجاهدين والعلماء والشهداء الذين طالما قرأنا وسمعنا عنهم.

فإن قال قائل: وهل لأمثالنا – إذا ما دخلنا الجنة – أن يجلس مع هؤلاء الأخيار؟

يجيب القرآن على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٥].

فاطلب فيها ما تريد، فسيلبى طلبك فى الحال، وتجلس مع من تحب.

– وفى الجنة سيجتمع شمل الأسرة الصالحة: الأب، والأم، والأولاد، والأحفاد، ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ** ﴾ [الطور: ٢١].

– فى الجنة يشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض، فماذا يحدث؟

عن أنس – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ :«إذا دخل أهل الجنة الجنة فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض، قال: فيسير سرير هذا إلى سرير هذا، وسرير هذا إلى سرير هذا حتى يجتمعا جميعا، فيقول أحدهم لصاحبه: تعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: يوم

---

(١) صحيح أخرجه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم عن أنس، انظر صحيح الجامع ح (٢١٢٥).

(٢) صحيح رواه مسلم والترمذى عن صهيب، انظر صحيح الجامع ح (٥٢٣).

كنا فى موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا»[1].

– وفيها – بمشيئة الله ورحمته – سنرى الطغاة والظالمين وهم فى النار يعذبون.. سنرى فرعون وهامان، وكل باغ وظالم باع آخرته بدنياه، سنرى الذين ﴿طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: ١١، ١٢].

إن دوام التذكير بالجنة وما فيها من نعيم من شأنه أن يعيننا على استباق الخيرات والجد والاجتهاد، قال تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ومن شأنه أيضا أن يعيننا على الصبر على ما نلاقيه من ضغوط ومحن ونحن نسير فى طريقنا إلى الله – عز وجل – يجعلنا كذلك فى شوق وحنين للعودة إلى ديارنا الأولى:

فحى على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبى العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم

ولقد كان رسول الله ﷺ يذكر أصحابه دائما بالجنة، ويقارن بين نعيمها وبين نعيم الدنيا ليبين حقارة الدنيا الفانية، ففى الصحيحين عن البراء قال: أُهدى لرسول الله ﷺ ثوب حرير، فجعلوا يعجبون من لينه، فقال رسول الله ﷺ: «لا تعجبوا من هذا لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا». فمن تذكر الجنة ونعيمها هانت عليه الدنيا.

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف عام»[2].

هذا هو حال أدنى أهل الجنة منزلة، فهل من مشمر للجنة؟

عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل من مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها، هى ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام فى أبد فى دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، فى حلة عالية بهية، قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: قولوا إن شاء

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا.

(٢) رواه الترمذى.

الله، قال القوم: إن شاء الله»[1].

فواعجبا لها كيف نام طالبها، وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها؟ وكيف طاب العيش فى هذه الدار بعد سماع أخبارها؟ وكيف قر لمشتاق القرار دون معانقة أبكارها؟ وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين؟ وكيف صرفت عنها قلوب أكثر العاملين؟ وبأى شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين؟[2].

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) حادى الأرواح، ص: ٧.

الخـــاتمة

إن المداومة على فعل ما سبق من وسائل، مع دوام الاستعانة بالله – عز وجل – من شأنه أن يضع صاحبه على بداية الطريق الصحيح، منتظراً فضل الله ومِنَّته، وفتحه لمغاليق قلبه.

فالخير فضل من الله، يؤتيه من يرى فى قلبه صدقًا ورغبة أكيدة فى طلبه، كما قال تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا...﴾ [الأنفال: ٧٠].

فالعبرة بما فى القلوب ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

لذلك كان من أسباب إجابة الدعاء الإلحاح وعدم العجلة، بل وتكراره أكثر من مرة، فهذا كله يعكس صدق الداعى، ورغبته الشديدة فيما يدعو به.

يقول ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يُعطه، ومن يتق الشر يوقَه»(١).

فالمتأمل لهذا الحديث يجد أنه ﷺ لم يقل: ومن يتحر الخير يجده؛ لأن الخير محض فضل من الله – عز وجل – يعطيه لمن يتحراه ويأخذ بأسبابه، لذلك نجد الكثير من التوجيهات النبوية التى تصب فى هذا المعنى، فمن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن لم يجد فى قلبه رقة عند قراءة القرآن فعليه بتكلف البكاء مرات ومرات؛ ليرى –سبحانه وتعالى – صدقه فى طلبه فيعطيه مراده.

وما يحدث فى صلاة الاستسقاء من إظهار الذل والخضوع والمسكنة لله – عز وجل – ما هو إلا ترجمة عملية لهذا المعنى، لذلك كان الصحابة – رضوان الله عليهم – يتواصون فيما بينهم فى المواقف الصعبة بأن يُروا الله من أنفسهم خيراً.

فالعطاء الإلهى له علاقة وثيقة بما فى القلوب من صدق ورغبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فالصبر – على سبيل المثال – من عند الله كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

---

(١) سبق تخريجه.

ولكن كيف نستجلبه؟!

يقول ﷺ: «ومن يتصبر يصبره الله...»(١).

فلا بد من تحرى أسباب الصبر وتكلفها، والمداومة عليها وانتظار فضل الله وعطائه.

... وإلى أن يحدث الوصال، ويُفتح الطريق بين القلب وخالقه، علينا ألا نيأس من الوصول إلى الهدف، وألا تفتر عزائمنا، بل نجتهد أكثر وأكثر، لنضع أنفسنا فى طريق استجلاب رحمته سبحانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

ففى لحظة ما سيجد الصادق المجتهد منا كنزه، وستدب الحياة فى قلبه، فيشعر به قلباً آخر غير الذى كان يعهده طوال عمره.

عندئذ تكون اليقظة والانتباه، فينظر هذا السعيد حوله فيجد أن الكثير قد فاته، فيشمر عن ساعد الجد والاجتهاد، ويبدأ فى السير إلى الله محاولاً اللحاق بالركب، وكلما قطع مسافة وجد أمامه الكثير من الكنوز التى كان غافلاً عنها من قبل؛ فيشتد أسفه على ما مضى من سنوات طوال كان فيها من المغبونين، الذين استبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير.

سيعيش فى حياة أخرى غير التى يحياها الناس، فقلبه معلق بالسماء، ليس فيه إلا حب الله ومن والاه.

ستصغر الدنيا فى عينه، وستُطرد من قلبه، فلا يلهث وراءها، ولا يتنافس عليها مع أحد.

سيحدث الانسجام الداخلى بينه وبين نفسه، وتملأ قلبه السكينة والطمأنينة، وسيرضى بقدر الله - عز وجل.

سيصبغ الإحسان علاقته بجميع من حوله، وستتغير علاقته بوالديه وزوجته وأولاده وأقاربه وجيرانه وكل من يعرفه.

---

(١) جزء من حديث صحيح رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه.

وسيشعر بعلاقة خاصة تربطه بالكون وما فيه.

تزكو أخلاقه، وتتغير معاملاته، ويقل خوفه على أولاده ومستقبلهم المادى، وسيعمل على تأمين مستقبلهم الحقيقى، بحسن تربيتهم على الإسلام والخوف الدائم من الله.

سيحيا الحياة الطيبة التى وعد الله بها عباده وأولياءه، وسيحرص على وقته، فلن تراه يسمح بذهابه دون الانتفاع به، وسيجتهد فى الدعوة إلى الله غاية وسعه، وسيزداد حرصه على الجهاد ونيل الشهادة.

سيشعر بأنه يزداد قربًا من مولاه يومًا بعد يوم، وسيجد للإيمان طعمًا، وللذكر حلاوة، وللقرآن طلاوة، وسيردد: لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم لحاربونا عليه.

وسيتنزل عليه وعلى إخوانه – من أمثاله – نصر الله – عز وجل – وما ذلك على الله بعزيز، فقد وعد – سبحانه وتعالى – عباده بذلك شريطة تحريهم أسباب ذلك النصر، والتى من أهمها حسن صلتهم به وانتسابهم إليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾

[الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

وأخيراً...

فيا أخى الحبيب:

لعلك بجدك واجتهادك، وصدقك مع ربك، تجد قلبك، وتعثر على كنزك، فلا تنس كلما قرأت هذه السطور الدعاء لكاتبها بالمغفرة والرحمة، والهدى والسداد، وحسن الخاتمة، فذنبه كبير، وهو على خطر عظيم إن لم تتداركه رحمة ربه – جل وعلا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

المـراجـع

- إثبات عذاب القبر – البيهقى – دار الفرقان – عمان – الأردن – ط ٣ – ١٤١٣ هـ.
- إ حياء علوم الدين – أبو حامد الغزالى – دار الحديث – القاهرة – ط ١ – ١٤١٢ هـ.
- ا لأخلاق الإسلامية وأسسها – عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى – دار القلم – دمشق – ط ٤ – ١٤١٧ هـ.
- الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ – محمود عبد الحليم – دار الدعوة – الإسكندرية – مصر.
- الآداب الشرعية – ابن مفلح المقدسى – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط ٢ – ١٤١٧ هـ.
- الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار – النووى – دار الهدى – الرياض – ط ٦ – ١٤١٧هـ.
- أسماء الله وصفاته فى معتقد أهل السنة والجماعة – د. عمر سليمان الأشقر – دار النفائس – الأردن – ط ٣ – ١٤١٨ هـ.
- الإصابة فى تمييز الصحابة – ابن حجر العسقلانى – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ – ١٤١٥ هـ.
- أ صول التربية الإسلامية – عبد الرحمن النحلاوى – دار الفكر.
- الإيمان والحياة – د. يوسف القرضاوى – مؤسسة الرسالة – ط ١٧ – ١٤١٥ هـ.
- الإيمان – ابن تيمية – دار الكتاب العربى – بيروت – ط ١ – ١٤١٤ هـ.
- بستان الواعظين ورياض السامعين – ابن الجوزى – دار الكتاب العربى – بيروت – ١٤١٤هـ.
- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى – الحافظ المباركفورى – دار الكتب العلمية – بيروت.
- تذكرة الدعاة – البهى الخولى – دار التراث – القاهرة – ط ٨ – ١٤٠٨ هـ.

- التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة – القرطبى – دار البخارى – المدينة المنورة – ط ١ – ١٤١٧ هـ.
- تفسير القرآن العظيم – للحافظ ابن كثير – مكتبة العبيكان – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت – ط ٢ – ١٤١٧ هـ.
- التفسير الميسر – نخبة من العلماء – مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – المدينة المنورة – ١٤١٩ هـ.
- التفكر من المشاهدة إلى الشهود – د. مالك بدرى – الدار العالمية للكتاب الإسلامى – الرياض – ط ٤ – ١٤١٥ هـ.
- تهذيب مدارج السالكين لابن القيم – عبد المنعم صالح العلى – وزارة العدل – الإمارات – ١٤٠٢ هـ.
- التوبة إلى الله – د. يوسف القرضاوى – مكتبة وهبة – القاهرة – ط ١ – ١٤١٨ هـ.
- التوهم – الحارث بن أسد المحاسبى – مكتبة القرآن – مصر.
- تيسير الفقه فى ضوء القرآن والسنة – فقه الصيام – د. يوسف القرضاوى – مؤسسة الرسالة – ط ١ – ١٤١٠ هـ.
- تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان – عبد الرحمن السعدى – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط ١ – ١٤٢٠ هـ.
- جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم – ابن رجب الحنبلى – دار الحديث – القاهرة – ط ٥ – ١٤٠٠ هـ.
- الجامع لأحكام – القرطبى – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ٥ – ١٤١٧ هـ.
- الجزاء من جنس العمل – د. سيد حسين العفانى – مكتبة ابن تيمية – القاهرة – ط ٢ – ١٤١٧ هـ.
- حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح – ابن قيم الجوزية – مكتبة المدنى – السعودية.
- الحكمة فى مخلوقات الله – أبو حامد الغزالى – دار إحياء العلوم – بيروت – ط ٣ – ١٤٠٦ هـ.

- حياة الصحابة – محمد يوسف الكاندهلوى – دار صادر – بيروت – ط ١ – ١٩٩٨م.
- الداء والدواء – ابن قيم الجوزية – دار ابن كثير – دمشق – بيروت – ط ١ – ١٤١٣هـ.
- الذل والانكسار للعزيز الجبار – الحافظ ابن رجب الحنبلى – مكتبة التوعية الإسلامية – القاهرة – ط ١ – ١٤١٤ هـ.
- ذم الهوى – أبو الفرج الجوزى – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ٢ – ١٤١٣هـ.
- الرحيق المختوم – صفى الرحمن المباركفورى – دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة – ط ٥ – ١٤١٠ هـ.
- رسالة المسترشدين – تحقيق وتعليق عبد الفتاح أبو غدة – دار السلام – مصر – ط ٤ – ١٤٠٢ هـ.
- الرقائق – محمد أحمد الراشد – مؤسسة الرسالة – ط ٢ – ١٤٠٠ هـ.
- رهبان الليل – سيد بن حسين العفانى – مكتبة ابن تيمية – القاهرة – ط ٤ – ١٤١٨ هـ.
- روائع إقبال – أبو الحسن الندوى – دار القلم – دمشق – ط ١ – ١٤٢٠ هـ.
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء – ابن حبان البستى – دار الكتب العلمية – بيروت.
- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين – النووى – مؤسسة الرسالة – ط ٢٠ – ١٤١٢هـ.
- زاد المهاجر إلى ربه – لشمس الدين ابن القيم – مكتبة المدنى – جدة.
- الزهد – عبد الله بن المبارك – دار الكتب العلمية – بيروت.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة – محمد ناصر الدين الألبانى – مكتبة المعارف – الرياض – ١٤١٥ هـ.
- سير أعلام النبلاء – الذهبى – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط ٢ – ١٤١٩ هـ.
- السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة – محمد أبو شهبة – دار القلم – دمشق – ط ٣ – ١٤١٧ هـ.
- شرح العقيدة الطحاوية – ابن أبى العز الحنفى – حققها وراجعها جماعة من العلماء – المكتب الإسلامى – بيروت – ط ٩ – ١٤٠٨ هـ.

- شرح وتبيان لحديث ما ذئبان جائعان – ابن رجب الحنبلى – مؤسسة الريان – بيروت – ط ٢ – ١٤١٧ هـ.
- شعب الإيمان – البيهقى – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ – ١٤١٠هـ.
- شكاوى وحلول – محمد صالح المنجد – دار الوطن – الرياض – ط ٢ – ١٤٢٠ هـ.
- صحيح الترغيب والترهيب للمنذرى – تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى – مكتبة المعارف – الرياض – ط ٣ – ١٤٠٩ هـ.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته – محمد ناصر الدين الألبانى – المكتب الإسلامى – دمشق – ط ٣ – ١٤٠٨ هـ.
- صحيح مسلم بشرح الإمام محيى الدين النووى – دار المعرفة – بيروت – ط ٣ – ١٤١٧هـ.
- صفة الصفوة – أبو الفرج الجوزى – دار المعرفة – بيروت – ط ٢ – ١٣٩٩ هـ.
- صلاح الأمة فى علو الهمة – د. سيد بن حسين العفانى – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط١ – ١٤١٧ هـ.
- صيد الخاطر – أبو الفرج ابن الجوزى – دار اليقين – المنصورة – مصر – ط ١ – ١٤١٣هـ.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين – ابن قيم الجوزية – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٦ هـ.
- ظاهرة ضعف الإيمان (الأعراض – الأسباب – العلاج) – محمد صالح المنجد – دار أصداء المجتمع – القصيم – السعودية.
- العقيدة فى الله – د. عمر سليمان الأشقر – دار النفائس – الأردن – ط ١١ – ١٤١٨هـ.
- فتح البارى شرح صحيح البخارى – الحافظ ابن حجر العسقلانى – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ – ١٤١٠ هـ.
- فقه السيرة – محمد الغزالى – دار القلم – دمشق – ط ٦ – ١٤١٦ هـ.
- الفوائد – ابن قيم الجوزية – دار النفائس – بيروت – ط ٧ – ١٤٠٦ هـ.
- فى رياض الجنة – جاسم عبد الرحمن – المكتب المصرى الحديث – القاهرة.

- في ظلال القرآن – سيد قطب – دار الشروق – مصر – ط ١٥ – ١٤٠٨ هـ.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير – المناوى – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ – ١٤١٥ هـ.
- قصر الأمل – أبو بكر بن أبى الدنيا – دار ابن حزم – بيروت – ط ١ – ١٤١٦ هـ.
- قيام الليل والمناجاة – سلامة محمد أبو الكمال – دار اليقين – المنصورة – مصر.
- كتاب التهجد وقيام الليل – أبو بكر بن أبى الدنيا – مكتبة الرشد – الرياض – ط ١ – ١٤١٨ هـ.
- كن كابن آدم – جودت سعيد – دار الفكر – دمشق – ط ١ – ١٤١٩ هـ.
- لسان العرب – ابن منظور – مكتبة الرشد – الرياض – ط ٣ – ١٤١٤ هـ.
- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، زين الدين بن رجب الحنبلى – دار ابن حزم – بيروت – ط ١ – ١٤١٤ هـ.
- مباحث فى علوم القرآن – مناع القطان – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط ٢١ – ١٤٠٧هـ.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – الهيثمى – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٨ هـ.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية – دار الإفتاء – السعودية – ط ١ – ١٣٩٨ هـ.
- مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا – دار الدعوة – الإسكندرية – ١٤١٠ هـ.
- المحجة فى سير الدلجة – الحافظ بن رجب الحنبلى – دار البشائر الإسلامية – بيروت – ط ٤ – ١٤١٨ هـ.
- محمد رسول الله ﷺ – محمد الصادق عرجون – دار القلم – دمشق – ط ٢ – ١٤١٥هـ.
- مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر – لمحمد بن نصر المروزى – اختصره أحمد المقريزى – عالم الكتب – ط ٢ – ١٤٠٣ هـ.
- مختصر منهاج القاصدين – المقدسى – المكتب الإسلامى – بيروت – ط ٨.
- معالم فى الطريق – سيد قطب – دار الشروق – القاهرة – ط ١٠ – ١٤٠٣ هـ.

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقى – دار المعرفة – بيروت – ط٤ – ١٤١٤ هـ.
- مفاتيح للتعامل مع القرآن – د. صلاح عبد الفتاح الخالدى – مكتبة المنار – الزرقا – الأردن – ط ١ – ١٤٠٦ هـ.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة – شمس الدين ابن القيم – دار ابن عفان – الخُبر – المملكة العربية السعودية – ط ١ – ١٤١٦ هـ.
- من تصلى عليهم الملائكة ومن تلعنهم – د. فضل إلهى – إدارة ترجمان الإسلام – باكستان – ط ١ – ١٤٢٠ هـ.
- منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – دار الشروق – القاهرة.
- موارد الظمآن فى محبة الرحمن – د. سيد بن حسين العفانى – مكتبة التابعين – القاهرة – ط ٢ – ١٤١٥ هـ.
- الوابل الصيب من الكلم الطيب – لشمس الدين ابن القيم – مكتبة المؤيد – الرياض – ط ٥ – ١٤١٤ هـ.
- وحى القلم – مصطفى صادق الرافعى – دار الكتاب العربى – بيروت.
- اليوم الآخر (القيامة الصغرى) – د. عمر سليمان الأشقر – مكتبة الفلاح – الكويت – ط ١ – ١٤٠٦ هـ.

المجلات

- مجلة البيان – المنتدى الإسلامى لندن.
- مجلة المجتمع – جمعية الإصلاح الكويتى.
- مجلة النور – بيت التمويل الكويتى.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
● **المقدمة**	٥
● **تمهيد: حول مستهدف التربية الإيمانية فى مرحلتها الأولى**	١١
● **الباب الأول: لماذا الإيمان أولاً؟**	١٥
الفصل الأول: دوافع الأعمال	١٧
– علاقة الإيمان بالحاجة	١٨
– كيفية إنشاء الرغبة	١٩
الفصل الثانى: حقيقة الإيمان	٢١
– القلب محل العبودية	٢٢
– علاقة العبودية بالإيمان	٢٣
الفصل الثالث: عندما يضعف الإيمان	٢٥
– مظاهر ضعف الإيمان	٢٥
الفصل الرابع: الإيمان أولاً	٢٩
– نموذج عملى	٣٠
– الأمر بالمعروف قبل النهى عن المنكر	٣٢
– تطبيقات عملية من السيرة	٣٣
– خطورة طغيان النفس	٣٧
– لا تكن كالشمعة	٣٩
– الإيمان مفتاح كل خير	٣٩

- الإيمان يصنع المعجزات ٤٠
- دور الإيمان فى تقويم السلوك وحل المشاكل ٤٢
- كيفية تغيير الصفات ٤٤
- دور الإيمان فى التربية السلوكية ٤٦
- الإيمان وأمراض القلوب ٤٧
- أمثلة للمتكبرين ٤٨
- علاج الرياء ٤٩
- خطورة عدم البدء بالإيمان ٥٠

● **الباب الثانى: كيف نبدأ بالإيمان؟** ٥٣

● **تمهيد**: حول شروط البداية ٥٥
- أثر الجواذب الأرضية فى غفلة الإنسان ٥٥
- إيقاظ القلب هو البداية ٥٦
- من علامات حياة القلب ٥٧
- شروط البداية ٥٩
- مظاهر قوة الرغبة ٦٠
- وسائل إحياء القلوب ٦٠

الفصل الأول: شدة الخوف من الله - عز وجل - ٦١
- الخوف هو بداية الدعوات ٦١
- الخوف من الله مستهدف الطاعات ٦٥
- الخوف من الله أصل كل خير ٦٦
- من أحوال الخائفين ٦٦

- لماذا الخوف من الله؟ ٦٩
- أولاً: الخوف من مغبة التقصير فى حق العبودية ٦٩
- ثانيًا: الخوف مهابة الله – عز وجل ٧٣
- ثالثًا: الخوف من عاقبة الذنوب ٧٦
- رابعًا: الخوف من غضب الله – عز وجل ٨١
- خامسًا: الخوف من الاستدراج ٨٤
- سادسًا: الخوف من محبطات العمل ٨٥
- سابعًا: الخوف من عدم قبول الأعمال ٨٨
- ثامنًا: الخوف من الخذلان ٨٩
- تاسعًا: الخوف من سلب الإيمان ٩٠
- عاشرًا: الخوف من سوء الخاتمة ٩٢
- حادى عشر: الخوف من لقاء الموت ٩٢
- ثانى عشر: الخوف من سكرات الموت وقبض الروح ومعرفة المصير ٩٣
- ثالث عشر: الخوف من ضمة القبر وسؤال الملكين ٩٥
- رابع عشر: الخوف من أهوال يوم القيامة ٩٦
- خامس عشر: الخوف من الحبس فى النار ٩٧
- الوسائل العملية لاستجلاب الخوف من الله – عز وجل ٩٩
- القسم الأول: كثرة ذكر الموت ١٠٠
- الوسائل العملية للتذكر الدائم للموت ١٠٤
- القسم الثانى: الاستماع إلى المواعظ والقراءة فى كتب الرقائق ١١٠
- القسم الثالث: إحصاء الذنوب (كتابة) ١١١
- مجالات الذنوب ١١١

– القسم الرابع: التفكر فى أسباب الخوف من الله – عز وجل – ١١٢
– بين الخوف والرجاء ١١٣
– غـــاية الخـــوف ١١٤
– خير الهدى هدى محمد ﷺ ١١٥
الفصل الثانى: تدبر القرآن الكريم ١١٩
– الطريق إلى الله واضح فى القرآن ١١٩
– يا حسرة من هجر القرآن ١٢٠
– شروط الانتفاع بالقرآن ١٢٢
– كيف نحيا بالقرآن؟ ١٢٥
– التحذير من ترك التدبر ١٢٦
– لا عذر لأحد فى ترك التدبر ١٢٨
– أحوال الصالحين مع القرآن ١٣٠
– تدبر القرآن يولد الأفكار ١٣٢
– أقرب الطرق لفهم القرآن ١٣٣
– الوسائل المعينة على تدبر القرآن ١٣٤
– أولاً: التحقق بشرط الانتفاع بالقرآن ١٣٥
– ثانيًا: التأدب بآداب التلاوة ١٣٥
– ثالثًا: التعامل الصحيح مع خواطر التلاوة ١٣٧
– رابعًا: اتباع نماذج عملية للتدبر ١٣٩
– نماذج عملية للتدبر الموضوعى ١٤٢
– النموذج الأول: البداية مع العبد «قراءتان للقرآن» ١٤٢
– فعل الله وفعل الإنسان ١٤٢

- الارتباط الوثيق بين القراءتين ١٤٤
- النموذج الثانى للتدبر الموضوعى بعنوان: «العبرة بما فى القلوب» أو «أهمية الصدق» ١٥٠
- النموذج الثالث: «مفتاح التوفيق والخذلان» ١٥٢
- النموذج الرابع: «حول مفهوم الإحسان» ١٥٣
- النموذج الخامس: سنن النصر والتمكين ١٥٤
- النموذج السادس: حول أسباب الهداية والضلال ١٥٦
- النموذج السابع: أهمية الشكر فى الحفاظ على النعم ١٥٨
- تساؤل مهم ١٦٠
- تلبيس إبليس ١٦١
- لا بديل عن التدبر ١٦٢
- أهمية المداومة على القراءة اليومية للقرآن ١٦٤
- دور القرآن فى تثبيت القلوب ١٦٤
- القرآن يرد على الشبهات ١٦٥
- القرآن يعصم من الفتن ١٦٧
- تجربة من الواقع المعاصر ١٦٧
- يا حسرة على العباد ١٦٨

الفصل الثالث: قيام الليل والتضرع بالأسحار ١٧١
- لا بديل عن أنات السحر ١٧٢
- إنه شرفنا ١٧٣
- الليل مزرعة الإخلاص ١٧٣
- القيام من أهم صور الشكر ١٧٤

- بالليل يتم الوصال ١٧٥
- هكذا كان أسلافنا ١٧٦
- ما أحلاها من لحظات ١٨٠
- سهام السحر لا تُخطىء ١٨١
- لا تترك الكنز ١٨٢
- وصية البنا ١٨٢
- اسجد واقترب ١٨٢
- من معينات القيام ١٨٣
الفصل الرابع: مداومة الإنفاق فى سبيل الله ١٨٥
- من فوائد الصدقة ١٨٧
- حجم الإنفاق فى حياة الصحابة ١٩٠
- علاقة الإنفاق بالسير إلى الله - عز وجل - ١٩١
- يا حسرة على العباد ١٩٣
- متى تؤتى الصدقة ثمارها ١٩٤
- أهمية تدريب النفس على مداومة الإنفاق ١٩٥
- المحروم من حرم الخير ١٩٨
- إنفاق المال طريق الشهادة ١٩٩
- فهلا اقتحمنا العقبة؟ ٢٠٠
الفصل الخامس: الذكر والفكر ٢٠١
- دُور الجنة تُبنى بالذكر ٢٠١
- بالذكر تحيا القلوب ٢٠١
- كيف نحيى قلوبنا بالذكر؟ ٢٠٢

- أهمية ربط الذكر بالفكر ٢٠٤
- تأهيل القلب للفكر والذكر ٢٠٥
- أعمال من شأنها أن تساعد على تأهل القلوب ٢٠٦
- مجالات الفكر ٢٠٨
- المجال الأول: التفكر فى خلق الله ٢٠٨
- المجال الثانى: التفكر فى آيات أسماء الله الحسنى ٢١٣
- ضوابط لابد منها ٢١٨
- المجال الثالث: التفكر فى عبودية الكون والتفاعل معها ٢٢٠
- مشاعر متبادلة مع الكون كله ٢٢١
- وحدة العبودية فى الكون ٢٢٣
- المجال الرابع: التفكر فى النعم والعمل على إحصائها ٢٢٤
- المجال الخامس: التفكر فى شكل الحياة بدون بعض النعم ٢٢٦
- المجال السادس: التفكر فى الماضى ٢٢٨
- المجال السابع: التفكر فى حقيقة الفقر إلى الله ٢٢٩
- فى مجال حفظ الحياة ٢٣٠
- المجال الثامن: التفكر فى العواقب ٢٣٢
- المجال التاسع: التفكر فى أيام الله ٢٣٥
- إمكانية الجمع بين مجالات الفكر ٢٣٦
- طريقة أخرى للانتفاع بالذكر ٢٣٧
- وصية أخيرة ٢٣٧

الفصل السادس: التعلق بالمساجد ٢٣٩

- علاقة المسجد بالسير إلى الله عز وجل ٢٤٠

– حاجة القلوب إلى الرباط ٢٤٠
– فضل الارتباط بالمسجد ٢٤١
الفصل السابع: اغتنام مواسم الخيرات والأوقات الفاضلة ٢٤٥
– أهمية الذكر فى البكور ٢٤٧
– فائدة فى أسرار الأوقات ٢٤٨
– وصية البنا ٢٤٨
– أهمية الاجتهاد فى يوم الجمعة ٢٤٨
– رمضان شهر الخير ٢٤٩
– تابعوا بين الحج والعمرة ٢٤٩
– فوائد مواسم الخيرات ٢٥٠
الفصل الثامن: الصيام ٢٥١
– خطورة الشبع ٢٥٢
– من فوائد الجوع وآفات الشبع ٢٥٢
– حد الاعتدال فى الطعام والشراب ٢٥٤
– خير الهدى هدى محمد ﷺ ٢٥٥
الفصل التاسع: اصطحاب كتاب من كتب علوم السلوك ٢٥٧
– نقاء العقيدة ٢٦١
– الفهم الصحيح ووضوح فقه الأولويات ٢٦١
– القرآن يهدى إلى الرشد ٢٦٤
– فقه التعامل مع الناس ٢٦٤
– آفة ترك الدنيا ٢٦٤
– لا للعبوس ٢٦٥

الفصل العاشر: الالتحاق بالمحاضن التربوية ٢٦٧
- أخطار السير المنفرد ٢٦٧
- أهمية المحاضن التربوية فى عصرنا الحاضر ٢٦٩
- معنى التربية ٢٧١
- محاور التربية ٢٧٣
- الوسائل العامة للدعوات لا تتغير ولا تتبدل ٢٧٣
- علاقة المحاور بعضها ببعض ٢٧٥
- من فوائد البدء بالتربية الإيمانية ٢٧٧

● **الخاتمة** ٢٨٥

● **المراجع** ٢٨٩

● **الفهرس** ٢٩٥

إن القلوب في داخلها الإيمان ، ومهما بلغت قسوتها فيها حنين إلي الله تعالي ، وشوق إلي الاتصال به ، والسير إليه ، إلا أن أصحابها لا يستطيعون تجريدها من حب الدنيا وربطها بالآخرة ، وكثيراً ما يتساءلون : كيف يكونون ربانيين وهم بين أزواجهم وأولادهم وفي أعمالهم ودون أن يعتزلوا الناس وينقطعوا للعبادة ؟ .

يقول ابن مسعود - رضي الله عنه - لأصحابه : أنتم أكثر صوماً وصلاة من أصحاب محمد وهم كانوا خيراً منكم ، قالوا : وبم ذاك ؟ قال كانوا أزهد منكم في الدنيا ، وأرغب في الآخرة .

فقد حققوا التوازن في حياتهم بصورة لا مثيل لها ، فهم بالليل رهبان ، وبالنهار فرسان ... في مجال العلم علماء ، وفي ساحة الجهاد مجاهدون ، وفي المحاريب راكعون ساجدون ... يُعلّمون الجاهل ، ويسعون في قضاء حاجة المحتاج ، ويسارعون في نجدة الملهوف ... خير الأزواج لأزواجهم ، والأباء لأبنائهم ، والجيران لجيرانهم ... ظرفاء لطفاء ، لا يمل أحد من الحديث معهم . عاشروا الناس بأبدانهم ، وعاملوا الله بقلوبهم ... فكيف وصلوا إلي هذا ؟

الناشر

دار التوزيع والنشر الإسلامية
٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ فاكس: ٣٩٣١٤٧٥